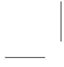
التحدي الكبير

المواجهة بين العلم والخرافة






حسن الخاطر

التحـدي الكبيـر

المواجهة بين العلم والخرافة

ⓒ أطياف للنشر والتوزيع، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الخاطر، حسن سعيد
التحدي الكبير / حسن سعيد الخاطر - القطيف، ١٤٣٤هـ
٣٩٢ ص؛ ١٤ × ٢١سم
ردمك: ٩ - ٨ - ٩٠٤٤٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- السحر ٢- الخرافات ٣- الشعوذة أ- العنوان
ديوي ١٣٣ ٨٩٦٢/ ١٤٣٤

رقم الإيداع: ٨٩٦٢/ ١٤٣٤
ردمك: ٩ - ٨ - ٩٠٤٤٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

أبيات حول الكتاب

للأستاذ الأديب فريد النمر[(١)]

تُضِـيْءُ لَنَـا قَلْبًـا تُضِـيْءُ عُقُـوْلا
وَتَبْنِـي مِـنَ الرُّؤْيَـا سَـنًا مَأْمُـوْلا
وَتَبْحَـثُ فِـي الأَسْـرَارِ وَهْـيَ خَبِيْئَـةٌ
تُدَوِّرُهَـا بِالرَّائِعَـاتِ وُصُـوْلا
وَتَقْـرَأُ فِـي الأَشْـكَالِ وَهْـيَ عَدِيْمَـةٌ
تُؤَوِّلُهَـا بِالمـُوْرِقَـاتِ فُصُـوْلا
فَتَسْـتَافُ مِـنْ كُلِّ الدِّيَانَـاتِ نَظْـرَةً
تُفَاحِصُهَـا فَحْـصَ الخَبِيْـرِ طَوِيْـلا
هُنَـا نَظْـرَةُ الدُّنْيَـا بِسِـفْرِكَ غَابَـةٌ
تُعَلِّـلُ مَـا نَخْشَـى بِنَـا تَعْلِيْـلا

(١) من ألمع شعراء القطيف، ولد عام ١٩٦٥م، له ديوان شعر مطبوع عام ٢٠١٢م، بعنوان (رعشة تحت الرماد).

هُـوَ الْعِلْـمُ يَمْحُـو سَـطْوَةَ الجَهْـلِ فِكْرَةً
وَيُعْلِـي صُرُوْحًـا فِـي ذُرَاهُ أَصِيْـلا
تُفَتِّـحُ لِلْأَذْهَـانِ شُـرْفَةَ آمِـلٍ
يُنَقِّـبُ عَـنْ وَحْـيِ الدُّنَـا المَغْلُـوْلا
مَتَـى يَسْـتَفِيْقُ القَلْـبُ مِـنْ هَذَيَانِـهِ
النَّائِـي وَيُصْلِـحُ بِالْعُلُـوْمِ عُقُـوْلا
هُنَـا بِالـمَـعَـارِفِ كُنْـتَ إِشْـرَاقَةَ النُّهَـى
وشَـرَّعْتَ سِـفْرًا بِالهُـدَى مَشْـغُوْلا

فريد النمر

القطيف

١٤٣٤/٦/٢٥هـ

كلمة حول الكتاب[1]

منـذ أن وُجِـد الإنسـان على وجـه الأرض وهـو يبحث عن حلـول لمشـاكله النفسـية والصحيـة والاجتماعيـة والاقتصاديـة وغيرهـا. ولـم تقتصر رحلة البحث عن العلاج للمشـاكل على بعد واحد، بل تعددت الأبعاد والجوانب على أمل الوصول إلى حلول جذرية وقادرة على شفاء الغليل وعلاج المريض.

وقد كان لطرد الشـياطين والعفاريت والجن من الأشخاص والمجتمعـات والأماكـن العامة، والتخلص من تأثيراتهم السـلبية علـى حياتهـم الخاصّـة والعامّة في المـوروث الشـعبي الكثير من الأسـاطير والخرافات والأوهام الخيالية والعـادات المتوارثة منذ

(١) الشيخ عبد الله اليوسف، مواليد قرية (حلة محيش) بالقطيف عام ١٣٨٣هـ، سافر لطلب العلوم الدينية في إيران عام ١٤٠٢هـ، حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة المصطفى في قم، عام ١٤٣٣هـ، تخصص الفقه والمعارف الإسلامية، له عشرات المؤلفات، في السيرة، والثقافة، والفقه الإسلامي، والتراجم، والشباب والمرأة، والقضايا الاجتماعية.

قديم الزمان واستمر لليوم وإن كان بوتيرة أقل.

وعندما نراجع أرشيف ثقافات وعادات الشعوب المختلفة سنجد فيها من العجب العجاب الشيء الكثير، بدءًا من التعلق بالخرافات والأساطير مرورًا بالأوهام والتخيلات والافتراضات غير العلمية وليس انتهاء باللجوء إلى المشعوذين والدجالين والسحرة!

وقد انتشرت الخرافات والأساطير الخيالية عند بعض الشعوب والأمم نتيجة لغياب العلم والوعي في القرون الماضية؛ مما جعل الناس يتعلّقون بها بحثًا عن الحلول للمشاكل المستعصية والمزمنة التي تحلّ بهم سواء كانت شخصية: نفسية أم جسدية، أو كانت على المستوى الاجتماعي العام.

وكان من ضمن الخرافات والأساطير السائدة في بعض المجتمعات؛ ومنها المجتمع العربي: ضرب البقر لطرد الجنّ والعفاريت، وربط ذيل البقر بأغصان من الأشجار ثم حرقها لجلب المطر، ومنها: إذا مات أحد الزعماء حبسوا جملًا في حفرة ويتركوه من دون طعام أو ماء حتى يموت، اعتقادًا منهم أن المتوفى سيحشر راكبًا معه جمله وليس راجلًا!

ومن الخرافات التي كانت منتشرة: إذا مات عزيز قوم عندهم قاموا بذبح ناقة أو جمل عند قبره تكريمًا لشخصه بعد الموت؛

وتعويضًا عنه لعدم قدرته على ذبح النوق والجمال للضيوف!

ومنها: إذا ظهرت عدوى بين الجمال يقومون بكيّ لسان وعضد أحد الجمال السليمة لوقف العدوى عن باقي الجمال!

ومنها: تعليق أسنان الثعلب أو النمر أو القطط على أعناق الأطفال حفاظًا عليهم من تأثير العفاريت والشياطين والجن!

وبالإضافة إلى تلك الخرافات والأساطير والأوهام لجأ بعض الناس - ولا يزالون - إلى ألوان أخرى بحثًا عن التنبؤ بمستقبلهم كقراءة الكفّ والفنجان، ومطالعة الأبراج علّهم يجدون فيها ما يشير إلى سعادتهم أو معرفة ما يخبّئه لهم القدر، أو اللجوء إلى المشعوذين والدجالين لعلاج أمراضهم وحلّ مشاكلهم، وما ذاك إلا سرابٌ في سراب!

والحقيقة المؤكدة أنه كلما تقدّم العلم وارتفع الوعي عند الناس قلّ الاعتقاد بالخرافات والأساطير، وكلما ازداد الجهل وقل الوعي زاد الإيمان بها، واندفعوا نحو التعلق بكلّ سراب ووهم!

والإسلام الذي يدعو إلى العلم ويحثّ عليه، حارب الخرافات والأساطير بأساليب دينية وعلمية متعددة، وأوجد البدائل، وحثّ على التداوي بما يقرّره الطبيب الحاذق. كما يعدّ العلاج بالدين من أهم الوسائل في معالجة الكثير من الأمراض

النفسية والعصبية وغيرها.

وفـي القـرآن الكريم الكثيـر من الآيات الشـريفة التي تحث علـى التفكر والتفكير، وإعمال العقـل، وبيان فضل العلم، والنهي عـن اتّبـاع الأوهام والخرافـات والأسـاطير، وذم الجهـل، واتّباع الهوى، وتحريم اللجوء إلى السحرة والمشعوذين.

وكذلك عمل الرسـول الأعظم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام على تطهيـر الفكر مـن الخرافـات والأسـاطير، وإيقاظ العقـل، وتنمية التفكيـر المنطقـي بما يسـاعد علـى التخلص من أغـلال الأوهام وقيود الأساطير الخيالية التي لا حقيقة علمية أو واقعية لها.

وهـذا الكتاب الذي بين يديـك – أيها القارئ الكريم – مهمّ فـي موضوعه، وجميل في أسـلوبه، ودقيق فـي مطالبه، فهو جدير بالمطالعـة والقـراءة، لمـا يتضمنـه من مـادة ممتعة ومفيـدة، ولما يحتويـه أيضًـا من مباحث علميـة مهمّة، ولما فيه مـن موضوعات ذات علاقة مباشرة بثقافة وعادات الناس.

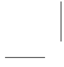
وقد اسـتفاد كاتبه الأسـتاذ/ حسـن الخاطر، دام توفيقه، من تخصّصـه العلمي، كما اسـتنار بآراء أهل الخبـرة والتجربة والعلم فـي استشـراف آرائهم، واسـتخلاص ما توصلـوا إليـه، وإضافتها للكتاب تطبيقًا لقول الرسول الأكرم ﷺ: «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه».

أسـأل الله سـبحانه وتعالى أن يوفّـق الأخ الكريم والصّديق المثابر الأسـتاذ/ حسـن الخاطر، إلـى المزيد من العطـاء العلمي والثقافـي، وأن يسـتمرّ علـى الكتابة مواصلًا السـير فيهـا من دون توقـف، وأن يجعل هـذا الكتاب في ميزان كتابـه، وأن يضاعف له الأجر والثواب؛ وأن ينفع بقلمه، ويفيد بعلمه المكتبة الإسـلامية؛ إنه سميع مجيب الدعاء.

عبد الله اليوسف

القطيف

٢/ ٧/ ١٤٣٤هـ






كلمة حول الكتاب[1]

ثمـة علاقـة عميقة بيـن الإيمان والعلـم، بوصـف أن العلم هـو أحد جسـور الإيمان، فكلما ازداد الإنسـان علمًـا، ازداد قدرة علـى معرفة واكتشـاف حقائق الكون الربانية. كمـا أن قيم الإيمان تدعـو إلـى العلم وتحـث على تعلمـه، وبـذل الجهود مـن أجله. ولكـن لعوامل عديدة، حينما سـادت في مجتمعاتنـا قيم التخلف والانحطاط، سـادت نزعات الخرافة والسـحر والشعوذة، وغابت قيم العلم والأخذ بالأسباب. لذلك لا يمكن مواجهة هذه النزعات المقيتة والخطيرة، إلا بالعودة إلى قيم الإيمان التي تعلي من شـأن

(١) المفكر الإسلامي الشيخ الكاتب محمد المحفوظ، مواليد سيهات عام ١٩٦٦م، سافر لطلب العلم في حوزة القائم لأكثر من خمسة عشر عامًا، أسس معهد (آفاق الثقافي) بـ(سيهات)، له العديد من المؤلفات، منها: نظرات في الفكر السياسي الإسلامي، الإسلام مشروع المستقبل، الأهل والدولة بيان من أجل السلم المجتمعي، الإسلام ورعاية المسنين، الإصلاح السياسي والوحدة الوطنية، العرب ومتغيرات العراق، الواقع العربي وتحديات المرحلة الراهنة.

العلم والأخذ بالسنن والنواميس الربانية.

وأصحاب الضمائر الميتة والنفوس المريضة والعقول الشيطانية، يتسع تأثيرهم في أي فضاء اجتماعي، يتخلى عن حقائق الإيمان ويستصغر شأن العلم والمعرفة. لذلك إذا أردنا قطع الطريق على أولئك النفر المرضى، فلا سبيل لنا إلا تعميم الوعي الديني والاجتماعي المستند على حقائق العلم والفكر السنني.

وهذه الحقيقة الإسلامية، ثاوية في كل تشريعات الإسلام وأنظمته الشخصية والاجتماعية والعامة، فلا مجال في هذا السياق للصدفة أو الحظ، وإنما هي مجموعة من القواعد والنواميس الربانية التي تدير حياة الإنسان فردًا وجماعة، لهذا فإن مجتمعاتنا الإسلامية، أحوج ما تكون إلى العودة إلى الفكر السنني وعالم الأسباب والمسببات، فكل الظواهر المجتمعية، هي وليدة ونتاج عالم الأسباب والمسببات، والخالق عزّ وجلّ يجري قدرته في الوجود الإنساني من خلال عالم الأسباب والمسببات.

وإن التغافل أو التحايل على الفكر السنني، باللجوء إلى الخرافة والشعوذة، فإنه لن يفضي على المستوى الواقعي، إلا البعد عن السماء وأنظمة الباري عزّ وجلّ في الوجود.

والكتاب الذي بين أناملك، عزيزي القارئ، هو محاولة

جادة لتظهير الفكر السنني في الحياة الاجتماعية، ودعوة معرفية مستديمة لنبذ كل نزعات الخرافة والشعوذة؛ لأنها ببساطة شديدة، لا تنسجم ونواميس الباري عزّ وجلّ في الوجود، ولأنها تساهم في تخريب الحياة الأسرية والاجتماعية من دون فائدة تذكر، وفي سياق محاربة الخرافة والشعوذة في مجتمعاتنا نود ذكر النقاط التالية:

١ - أهمية أن يتجه الخطاب الديني والثقافي في المجتمع، باتجاه تعزيز الفكر السنني وصياغة مقولات تحليلية متكاملة، انطلاقًا من تشريعات الإسلام وهدي أئمة الهدى عليهم السلام؛ لأن الظواهر الاجتماعية، هي ظواهر مركبة، ولا يمكن معالجتها بخطاب وعظي - وصفي، وإنما بخطاب معرفي - تحليلي، يناقش كل الاحتمالات والعوامل، ويصل إلى نتائج معرفية من جراء الدراسة والتحليل وليس وليدة الانطباع والرغبة المجردة.

ونهيب في هذا السياق، بكل الأطراف التي تساهم في صياغة وصناعة الخطاب الديني والثقافي، للالتفات إلى هذه المسألة، فالموعظة الأخلاقية ضرورية، لأنها وكما جاء في الحديث الشريف، حياة القلوب، ولكن الاكتفاء بها لا يساهم في معرفة نواميس وقوانين الباري عزّ وجلّ في الوجود الاجتماعي والإنساني.

٢- العمل وبذل الجهد المتواصل، لتعميم الوعي الديني

والثقافي على مساحات المجتمع المختلفة؛ لأنه لا سبيل لمواجهة الخرافة وكل أشكال الشعوذة، إلا بغرس الوعي الديني والثقافي في نفوس وعقول أبناء المجتمع، حتى يتمكن أبناء المجتمع من إفشال ونبذ كل أشكال التحايل التي يستخدمها صانع الخرافة والمشعوذ، فتعزيز الوعي المستند على عالم الأسباب والمسببات، هو الكفيل في مواجهة كل نزعات الخرافة في الفضاء الاجتماعي.

٣- لعوامل وأسباب عديدة، لسنا في صدد بيانها وتوضيحها، يشكل المجتمع النسوي، الحاضن الأبرز للقبول أو التعاطي بنية حسنة مع المشعوذين وصناع الخرافة في المجتمع.

من هنا فإن النساء الواعيات والعالمات في المجتمع، يتحمّلن مسؤولية مضاعفة على هذا الصعيد، فالمطلوب هو تطوير الخطاب الديني والثقافي النسوي، وتطوير المناشط الثقافية والاجتماعية النسوية، وتعزيز الفكر السنني في الفضاء النسوي، حتى تتمكن المرأة في مجتمعنا، من المساهمة الإيجابية في مواجهة نزعات الخرافة والشعوذة، فوعي المرأة هو الذي يحدد إلى حدّ بعيد، قدرة مجتمعنا على مواجهة هذه المخاطر، التي تفتك بنا من الداخل، وتحول دون بناء حياة اجتماعية سليمة وقادرة على مواجهة التحديات.

وهذا الكتاب هو أحد الجهود الثقافية التي يبذلها الواعون من أبناء مجتمعنا، لتخليص المجتمع بكل شرائحه من آفة وخطر

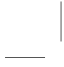
الخرافة والشعوذة، وكاتب هذا الكتاب هو الأستاذ حسن الخاطر، وهو من الكفاءات الثقافية التي لم تتوقف عن العطاء الثقافي، فمع كل انشغالاته وهمومه، إلا أنه قادر بجدّه وعزمه، على رفد المكتبة الاجتماعية بالعديد من المؤلفات، والإصدارات.

ونرجو من العلي القدير، أن يوفقه للمزيد من خدمة المجتمع والعطاء الثقافي المتواصل، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

محمد المحفوظ

سيهات

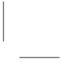
٢٥/ ٧/ ١٤٣٤هـ






جاء في كتاب نهج البلاغة، الذي جمعه الشريف الرضي في القرن الرابع الهجري، أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، عزم المسير إلى الخوارج، فقال له أحد المنجِّمين: إن سرت في هذا الوقت، خشيتُ ألاَّ تظفر بمرادك، فقال عليه السلام:

أَتَزْعَمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ؟ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ، وَاسْتَغْنَى عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ، وَتَبْتَغِي في قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّكَ ـ بِزَعْمِكَ ـ أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ، وَأَمِنَ الضُّرَّ!! ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال: أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُومِ، إِلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ، والمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ! وَالْكَافِرُ في النَّارِ! سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ.



الإهداء

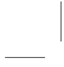
يقال -أيها الصديق- إن الأرض مسـرح صغير جدًّا في حلبة كونية شاسعة، أخذت العدوانية تتفشى على هذا المسرح الصغير، وفي هذه الأيام يكتشـف البشـر طرائـق جديدة لتطويـر عدوانيتهم بأساليب لا نستطيع أن نتخيّلها إلا بصعوبة فائقة.

وعلـى الرغم من ذلك، هنالـك زاوية ضيقة جدًّا يحويها هذا المسرح، يعيش فيها القليل لينعموا بالطمأنينة والحب.

ما كنت لأتوقع -أيها الصديق- أن القرن الحادي والعشرين، الذي محيـت فيه الصداقة كما تمحو عتمة الليل ضياء النهار، قادر على إنجاب صديق وفيٍّ مثلك، أشعر معه بالطمأنينة والحب.

إننـي أنقش إليك حبي من تلك الزاوية الصغيرة التي لا يراها إلا أنا وأنت، أخي الدكتور السـيد حسن العوامي، إليك أهدي هذا الكتاب، آملًا أن تجد فيه نظرة أكثر عمقًا لهذا الكون.

صديقك






ملحوظة مهمة

يجب عليّ أن أعترف قبل بداية هذا الكتاب بهذه الكلمات: ليس في نيتي إطلاقًا أن أسيء إلى أيّ معتقد ديني على وجه الأرض، سواءٌ المعتقد اليوناني أو الهندوسي أو السومري أو حتى معتقد (الفايكنج)، هذا الكتاب كتب من أجل نظرة علمية أفضل لهذا الكون الذي نعيش فيه.

إن أكثر النظريات جمالًا وإقناعًا هي النظرية التي تتوافق مع العقل البشري، النظرية التي قدمها (الفايكنج) والتي تعزو سبب الكسوف إلى أن هناك إلهًا اسمه سكول، يأخذ شكل الذئب، يأتي جائعًا فيلتهم الشمس، وفي المقابل هناك نظرية أخرى تقول: إن كسوف الشمس يحدث عندما يرمي القمر ظلّه على الأرض أثناء وقوعه بينهما.

لا شك أن النظريتين متعارضتان وكلاهما يقدّمان سبب حدوث ظاهرة الكسوف، إلا أن النظرية الثانية نظرية علمية

ومعقولة، أما الأولى فليست كذلك، فهي لم تقدّم تفسيرًا منطقيًا فيكون مصيرها السقوط والفشل.

أخيرًا، إن الكتابة النصية لهذا البحث والاقتباسات والتعليقات والمعادلات الفيزيائية والحسابات الرياضية والأحداث والتحليلات التاريخية، تمت كاملة بواسطتي، لهذا فإن أية أخطاء لغوية أو فيزيائية أو رياضية أو تاريخية أو مطبعية في هذا الكتاب تنسب لي.

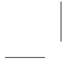
المؤلف

شكر خاص

أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان..

لكل من ساهم بوقته في إخراج هذا الكتاب إلى الوجود..

لـكل من سـاهم بماله فـي طباعة هـذا الكتـاب، وتخفيض سعره..






الهدف من هذا الكتاب

«يظن الناس أن الصرع شيء من عند الآلهة، وهذا فقط لعجزهم عن فهمه، ولكنهم إذا درجوا على وصف كل ما لا يفهمونه بأنه من عند الآلهة فلن تكون هناك نهاية للأشياء التي من عند الآلهة».

الطبيب أبقراط

ظهر الإنسان على وجه هذه الأرض، ونشأت في دماغه أسئلة كثيرة حول الحياة التي يعيش فيها، تطورت هذه الأسئلة وانبثقت منها أسئلة أخرى أكثر تعقيدًا نتيجة تطور دماغ الإنسان، لقد كان الإنسان في بدايته أكثر تقزمًا مما نتخيّل، لم يكن يستطيع أن يتحرر من خيالاته الطفولية، كان عقله أشبه بعقل النملة التي تعتقد أن الإله ليس بأكثر من نملة عظيمة لها زبانيتان.

هنـاك غرابـة في هذا الكـون الذي نعيش فيه، وهـذا ما يجعل تفكيرنـا محصـورًا فـي زاوية ضيقـة بيـن ضلعين يقعان فـي محيط مخيّلتنا البشرية، ومن الصعوبة جدًّا أن نهرب من هذه الزاوية، ليس فقط القدماء بل نحن أيضًا، وكتفسـير لذلك سنسـأل سـؤالًا سهلًا، في حالة انعدام احتكاك الهواء، أيهما يصل إلى الأرض أولًا الجسم الخفيف أم الثقيل؟ ريشـة الطير أم حجر كتلته ١٠٠ كجم؟ ستكون الإجابة ومن دون تردد: الحجر الثقيل سيصل إلى الأرض قبل ريشة الطيـر، ذلك أننا نعيش فـي عالـم يوجد فيه احتـكاك، ومن الصعوبة جـدًّا أن نقفز فوق هذا العالم، ذلـك أن عقلنا تكيف مع ذلك، وهذا الخطأ وقع فيه أرسطو والكثير من الفلاسفة وظلّ ممتدًا لألفي سنة.

ليس من السـهل أن نخالف حدسـنا، لكن إذا اسـتطعنا تجاوز ذلك، فبهذه الطريقة العلمية الموضوعية التي تبني نتائجها على الصعيد العملي لا النظري نضمن أننا نسير في الاتجاه الصحيح، فليس كلُّ ما يبـدو اعتياديًّا وظاهريًّا واقعيًّا. في كتاب (عندما تغير العالـم) لجيمس بيـرك، يذكـر هذه القصة الجميلـة: (ذات يوم أبدى أحد الأشـخاص ملاحظة للفيلسـوف البارز (ويتجنشـتاين- Wittgenstein)[1] تساءل فيهـا: كيـف كان الأوروبيون أغبيـاء في العصور الوسـطى قبل عصر كوبرنيوكس[2]، إذ نظروا إلى السـماء وظنوا بأن الشـمس تدور حول

(١) فيلسوف نمساوي، وهو من أشهر الفلاسفة في القرن العشرين، ولد عام ١٨٨٩م، توفي عام ١٩٥١م.

(٢) عالم فلكي بولندي، ولد عام ١٤٧٣م، توفي عام ١٥٤٣م، أزاح الأرض من

الأرض! والشيء المؤكد أن قدرًا متواضعًا من الفطنة الفلكية كان كفيلًا بأن ينبئهم بأن العكس هو الصحيح؟ أجابه (ويتجنشتاين) بقوله: أوافق، ولكني أتساءل: ماذا سيكون عليه الحال لو أن الشمس كانت بالفعل تدور حول الأرض؟).[1]

كانت إجابة (ويتجنشتاين) ذكية جدًّا، فمن الصعب أن نتخيّل كيف ستبدو لو ظهر لهم أن الأرض تدور حول الشمس! ففي كل يوم أذهب فيه للعمل أشاهد الشمس تشرق من تاروت وتتحرك شيئًا فشيئًا حتى تغرب في الآجام، وهذا يعطيني دلالة واضحة، كما أعطى السابقين، بأن الشمس هي التي تدور حول

المركز ووضع الشمس بدلها، قال صراحة: إن الأرض تدور حول الشمس، وبهذا يكون كوبرنيوكس هو أول من رمى سهمًا باتجاه الكنيسة، وهناك رواية لم أتأكد من صحتها أن كوبرنيوكس اعتمد على مخطوطات ابن الشاطر الدمشقي المتوفى في عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، الذي قال بدوران الأرض حول الشمس، أو العلامة أبي جعفر محمد الطوسي المتوفى عام ٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م، وسواء صدقت الرواية أو لم تصدق فهذا لا يقلل من شأن كوبرنيوكس الذي واجه هيمنة الكنيسة وأخرج أوروبا من عصر الظلام إلى عصر النور، والإنسان الناجح هو الذي يستفيد من تجارب الآخرين، هذه هي الحقيقة التي يحاول أن يتجاهلها الجميع، أيضًا نحن لا ننسى أن هناك من قال بالمركزية الشمسية قبل ابن الشاطر، ففي اليونان أثبت الفيلسوف أرسطارخوس ذلك، ومما يؤسف عليه أنَّ بعض الكتّاب يحاولون أن يقللوا من إنجازات العظماء ويتهمونهم بالسرقة من علماء العرب ويقضون جلّ حياتهم في هذه السخافات، وحالة كوبرنيوكس هي واحدة من هذه الحالات، أتمنى أن نتجاوز نحن العرب هذه المرحلة.

(١) عندما تغير العالم/ ١١.

الأرض، ومع ذلك فإنني أرفض هذه الفكرة.

فالعلم له نظرته الخاصة تجاه أيّ ظاهرة كونية، ولسنا مجبرين على تصديقها، إلا أن العقلاء تُثير فيهم هذه النظرية إحساسًا قويًّا مما يجعلهم مجبورين على تصديقها وقبولها، فالعلم وحده هو الذي يجعلنا نتقبل الحقيقة حتى لو أنها لا تتفق مع رؤيتنا.

تبيّن لنا الكثير من المشاهدات أنها خادعة، مثلها مثل ثبوت الأرض ودوران الشمس حول الأرض وثبوت النجوم، وما هذا إلا وهمٌ، بالطبع فشعورنا بسكونية النجوم هو خلاف الواقع.

هناك آية قرآنية إذا نظرنا إليها من زاوية علمية فإننا نستنتج هذه الحقيقة، يقول تعالى: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾[1]، إن معرفتنا اليوم تؤكد ذلك، فنحن نشاهد صورًا لنجوم قد مضى عليها ملايين بل مليارات السنين الضوئية، إنها الحقيقة، فالنجوم تتحرك عن أماكنها.

حدثني ذات مرة أخي الدكتور أنور آل محمد، في مدينة سان أنطونيو (San Antonio) التابعة لتكساس، أنَّ حافلة أطفال اصطدمت بقطار فماتوا جميعًا وأصبحت أرواحهم تحلّق في المكان، والدليل على صدق روايتهم أن السيارات ترتفع للأعلى تلقائيًا في تلك المنطقة بسبب قوة سحب الأرواح لها، كان هذا

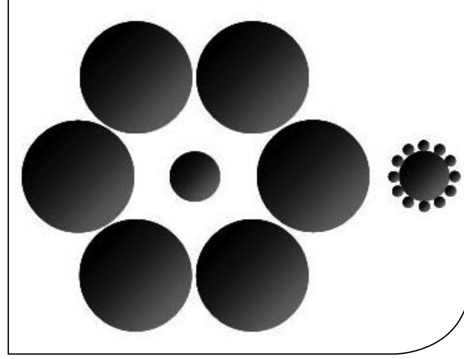
---

(١) الواقعة:٧٥.

تفسـيرًا ملائمًا لظاهرة حركة السيارات بالاتجاه المعاكس، ارتفاع السـيارات لا شـك فيـه، لكن التفسـير الذي يشـرح هـذه الظاهرة سـخيفٌ جدًّا رغم كونه أكثر تناغمًا مع ذلك، قـام أحد الفيزيائيين بدراسـة تلك المنطقة فأثبت لهم بالحسابات الفيزيائية الأنيقة أنها ليسـت بمرتفع بل هي منحـدر! لكن لوجود مراجـع بقربها تتمثل في التضاريس يتبين لهم أنها مرتفع، وأن القصة لا تعدو عن كونها أكاذيب.

لتوضيح الصورة أكثـر، فالكثير قد صادف في وقوفه بجنب إشـارة المـرور أن سـيارته ترجـع للخلـف وهـي واقفـة، وتلقائيًا يقـوم بالضغـط على المكابح بكلّ قوّته كي لا تسـتمر السـيارة في رجوعها، والسـبب أن السـيارة التـي بجانبه قد تحركـت، وبما أن المرجـع السـيارة المتحركـة فيبدو له أن سـيارته ترجـع للخلف، وللتغلـب علـى هـذه الخدعـة يكفينا أن ننظـر إلى الأشـجار على الطريق. أيضًا تبدو لنا الشـمس أقرب بكثير في وقت الغروب منها في وسط النهار، تساعدنا هذه الأمثلة كثيرًا على التعامل مع واقعية العلم، وهذا يعطينا دفعًا قويًّا بأننا نتحرك في الاتجاه الصحيح.

فعلينـا أن نتكيـف مـع واقعية العلـم حتى لو كانـت تخالف رغبتنا، وليس هذا فحسـب، بل حتى لو كانت تخالف مشـاهدتنا، ربما يعتقد البعض أنها فكرة غبية وسـاذجة أن نعتقد بذلك، إلا أن النتيجة الأكثر يقينًا قد بيّنت خلاف ذلك.



ننظر إلى الشكل يمينًا، مقارنة بين دائرتين، أيهما أكبر الدائرة التي على اليمين أم الموجودة على اليسار؟ معظم الناس يقولون إن الدائرة التي على اليمين أكبر من التي على اليسار، لكن الواقع هو أن الدائرتين متساويتان ولهما القطر نفسه، ببساطة نحتاج إلى مسطرة لنتأكد من ذلك ونفحص الموضوع جيِّدًا، العديد من هذه الأشكال المعروفة بالخدع البصرية تخدع الإنسان من الوهلة الأولى، وفي مثالنا لو ركّزنا جيِّدًا في الدائرتين فقط سنكتشف خلاف ما كنا نتوهمه للوهلة الأولى، السبب بكل بساطة هي قضية المرجع، فالدائرة المحاطة بدوائر صغيرة تبدو أكبر من الدائرة المحاطة بالدوائر الكبيرة.

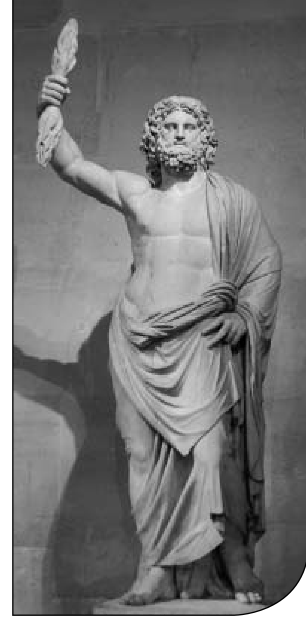
عندما نلقي نظرة سريعة إلى الوراء نرى إدراك الإنسان للأسف الشديد إدراكًا طفوليًّا، وكانت تحكمه هذا الأفكار الطفولية التي يشعر بارتياح كبير من ممارستها، وخاصة فيما يراه الإنسان من تلك الكوارث الطبيعية المحيطة به.

لقد وجد الإنسان نفسه مستسلمًا لقوى الطبيعة دون أن يفكر في تغيير أحداثها، أمراض تفتك بالإنسان، ظواهر طبيعية وقف

الإنسان حائرًا أمامها، اختفاء القمر في الليل وبعد فترة قصيرة يعود، صواعق حارقة وبراكين متفجرة تقتل بشراسة ولا تفرق بين الإنسان والحيوان، زلازل تهزّ الأرض وتقتل من عليها، مياه تمطرها السماء فتحدث طوفانًا يقتلع الأشجار ويغرق الإنسان، وبالتأكيد فإن هذه الظواهر شكلت شبحًا مخيفًا على الإنسان، ففي ظروف حزينة ومأساوية كهذه من الطبيعي أن تنشأ في دماغه فكرة القوة الضخمة التي تمتلكها الآلهة والشياطين، كنوع من المعالجة لهذه المشكلة في ظلّ غياب التفسير العلمي، وكثيرًا ما كانت تدور في ذهن الإنسان مثل هذه التساؤلات، ماذا عن الرعد والبرق أو الزلازل والبراكين؟

اليونانيون مثلًا أسندوا ظاهرة الرعد لكبير الآلهة (زيوس)[١] نتيجة غضبه، لجأ الناس إلى هذه النظريات غير العلمية كي يفسروا ظاهرة سير العالم بهذه الطريقة، وهي معالجة جيدة شعر الناس من خلالها بنوع من أنواع الطمأنينة لكنها غير نزيهة بالفعل، وهذا هو الذي حدث في جميع الحضارات التي انتشرت فيها الميثلوجيا[٢]، يجب أن يبتكروا طرائق عديدة من خلالها يقومون بمسرحية تكفير الذنوب التي فعلوها تجاه زيوس ليرضى عنهم.

(١) هو أعظم الآلهة رهبة في الحضارة اليونانية، ويعود سبب ذلك لامتلاكه لقوة الرعد والبرق، ثار ضد والده (كرونوس) وتغلب عليه وحكم الكون بدله.
(٢) المقصود بالميثولوجيا علم الأساطير، وهي كلمة يونانية (μυθολογία)، وتنطق باللغة الإنجليزية (mythology).



تمثال زيوس (ملك الآلهة)

وكمثال على ذلك يذكر بريوشينكين في كتابه (أسرار الفيزياء الفلكية والميثلوجيا القديمة) حول قصة الخسوف والكسوف ما نصه: «لقد رأى سكان وادي الرافدين القدماء في ظاهرة الخسوف والكسوف رزية شريرة، ونية شرٍّ يضمرها عفاريت سبعة ضوار ذوو طابع كوني، ينقضُّون بضراوتهم هذه على سبعة آلهة،كواكب عليا تجسدهم خمسة كواكب، والشمس والقمر»[١].

عندما نتوغل في الماضي أكثر وأكثر ونجمع جملة الأحداث نخرج بحقيقة واضحة، وهي أن الإنسان اعتقد بقوة ضخمة تتمثل في الآلهة والشياطين، هذه القوة تحكمه ويجب عليه أن يستسلم لها، وبالطبع أن هذا الاعتقاد نتج عن جهل الإنسان.

ومع أن الحضارات البشرية بأكملها خيّم عليها الجهل فقد كانت عاجزة تمامًا عن تقديم تفسير علمي لذلك، فقد كانوا مقتنعين تمامًا بالممارسات التي يفعلونها وكانوا يحصلون على نتيجة جيدة يرضون بها أنفسهم، وهذه المسألة هي الأساس في تطور الخرافات وتمريرها للأجيال اللاحقة.

(١) أسرار الفيزياء/ ٦٧.

صورة حضارة (الفايكنج - Vikings)(١) تقرِّب لنا ذلك، عاشت هذه الحضارة قبل أكثر من ألف سنة في اسكتلندا، يتصف الفايكنج بالقسوة والقوة ويعيشون على السلب والنهب، لهم العديد من الآلهة الذكور والإناث مثلهم كمثل الحضارة اليونانية والرومانية والهندية والرافدية، لكن الأمر الغريب هو خوفهم من قوى الطبيعة وشعورهم بالضعف أمامها.



(أودن) أبو الآلهة، وهو إله الحرب، وثور هو إله الرعد والبرق، أما الإله المسؤول عن كسوف الشمس اسمه (سكول)، يأخذ شكل الذئب فيأتي مسرعًا جائعًا فيلتهم الشمس، فيقوم الفايكنج بالصراخ ليخيفوا الذئب فيهرب، فيفرحون بعودة الشمس من جديد، لم يكن يعلم الفايكنج أن الشمس سوف تظهر بصراخهم أو بدونه، فالصراخ ليس له علاقة بذلك، ونفسها بالضبط الميثلوجيا الصينية التي أسندت هذه الظاهرة إلى تنّين

(١) تشمل الدول الإسكندنافية أوروبا الشمالية: السويد، الدنمارك، النرويج، إيسلندا، فلندا.

ضخم، فيدقّون الطبول، وتشترك كثير من الحضارات في هذه الميثلوجيا.



أودن إله الحرب



ثور إله الرعد

وكمثال أعجب من المثال السابق، ارتسمت صورة في دماغ الفايكنج حول وحش بحر الشمال، تعاملوا معه بطريقة غريبة وهي مسألة تقديم الأضاحي البشرية لهذا الوحش الأسطوري لاتقاء شرِّه، طريقة لا تبعث على السرور إطلاقًا، ضرورة تقديم فتاة عذراء كنوع من القربان لهذا الوحش، بهذه الطريقة العنيفة واجه الفايكنج أسطورة وحش بحر الشمال.

هذا هو الجهل الذي كانت تعيش فيه أوروبا في عصورها المظلمة، لقد ذكر بعضه ابن فضلان في رحلته التي قام بها قبل أكثر من ألف سنة، ومنذ الآن سيكون أفضل كثيرًا أن نعرف كيف تحولت تلك العصور المظلمة إلى عصور متقدمة في العلم.

ويؤسفني إدراج هذه القصة الحزينة التي كتبها ابن فضلان في رحلته إلى بلاد الفايكنج[١] حول مسألة الأضاحي البشرية: (فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه: من يموت معه؟ فقالت إحداهن: أنا، فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث سلكت، حتى إنهما ربما غسلتا رجليها بأيديهما.

وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له وإصلاح ما يحتاج إليه والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة. فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية حضرت إلى النهر الذي فيه سفينة فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من الخشب ثم مُدَّت حتى جعلت على ذلك الخشب، وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا يفهم، وهو بعد في قبره لم يخرجوه، ثم جاؤوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشّوه بمساند الديباج الرومي، ثم جاءت امرأة عجوز يقال لها «ملك الموت» ففرشت على السرير الفرش التي ذكرنا، وهي وليت خياطته وإصلاحه، وهي تقتل الجواري، فرأيتها ساحرة ضخمة مكفهرة.

فلما وافوا قبره نحو التراب عن الخشب ونحوا الخشب واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه، فرأيته قد اسوَّد لبرد البلد،

---

(١) عاش في القرن العاشر الميلادي، سافر إلى بلاد الصقالبة، بعثة رسمية من الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٨٢-٣٢٠هـ)، صورت رحلته كفلم روائي بعنوان المحارب الثالث عشر.

وقـد كانـوا جعلوا معـه في قبره نبيـذًا وفاكهـة وطنبـورًا فأخرجوا جميع ذلك، فإذا هو لم ينتن ولـم يتغير منه شـيء غير لونه، فألبسوه سـراويل ورانًا وخفًّا وقرطقًـا وخفتا ديباج له أزرار ذهب، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمورية، وحملوه حتى أدخلوه القبة التي على السفينة، وأجلسوه على المضربة، وأسندوه بالمساند وجاؤوا بالنبيـذ والفاكهـة والريحـان فجعلـوه معه. وجـاؤوا بخبـز ولحم وبصل فطرحـوه بين يديه، وجاؤوا بكلب فقطعـوه نصفين وألقوه في السفينة، ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه الى جانبه، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا ثم قطعوهما بالسيف وألقوا لحمهما في السـفينة، ثم جاؤوا ببقرتين فقطعوهما أيضًا وألقوهما فيها، ثم أحضروا ديكًا ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها.

والجارية التي تريد أن تقتل ذاهبة جائية تدخل قبة من قبابهم فيجامعهـا صاحـب القبـة ويقول لهـا: «قولي لمـولاك إنما فعلت هـذا من محبتك». فلمـا كان وقت العصر من يـوم الجمعة جاؤوا بالجاريـة إلى شـيء قد عملوه مثـل ملبن البـاب فوضعت رجليها علـى أكف الرجال وأشـرفت على ذلـك الملبـن وتكلمت بكلام لهـا فأنزلوهـا ثم أصعدوها ثانيـة ففعلت كفعلها فـي المرة الأولى ثـم أنزلوهـا وأصعدوها ثالثة ففعلـت فعلها في المرتيـن ثم دفعوا إليهـا دجاجة فقطعت رأسـها ورمت به وأخـذوا الدجاجة فألقوها في السـفينة. فسألت الترجمان عن فعلها فقال: «قالت في أول مرة

أصعدوهـا: ها أنذا أرى أبي وأمي، وقالـت في الثانية: ها أنذا أرى جميع قرابتي الموتى قعودًا، وقالت في الثالثة: ها أنذا أرى مولاي قاعدًا في الجنة، والجنة حسـنة خضـراء، وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه»، فمروا بها نحو السـفينة فنزعت سوارين كانا عليها ودفعتهما إلـى المرأة التي تسـمى ملك المـوت، وهي التـي تقتلها، ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها، وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت.

ثم أصعدوها إلى السـفينة، ولم يدخلوها القبة، وجاء رجال ومعهم التراس والخشب، ودفعوا إليها قدحًا من النبيذ فغنَّت عليه وشربته، فقال لي الترجمان: «إنها تودع صويحباتها بذلك، ثم دفع إليهـا قدحًا آخر فأخذته وطوّلـت الغناء، والعجوز تسـتحثُّها على شـربه والدخـول إلى القبـة التي فيهـا مولاها، فرأيتهـا وقد تبلّدت وأرادت دخـول القبة فأدخلت رأسـها بينها وبين السـفينة فأخذت العجوز رأسـها وأدخلتهـا ودخلت معها. وأخـذ الرجال يضربون بالخشـب على التراس لئلا يُسـمع صوتُ صياحهـا فيجزع غيرها مـن الجـواري، ولا يطلبن الموت مع مواليهن، ثـم دخل إلى القبة ستة رجال فضاجعوها واحدًا بعد الآخر، ثم أضجعوها إلى جانب مولاها وأمسـك اثنان رجليها واثنـان يديها، وجعلت العجوز التي تسـمى ملـك الموت فـي عنقها حبـلًا مخالفًـا، ودفعته إلـى اثنين ليجذبـاه، وأقبلـت ومعهـا خنجر عريـض النصل، فأقبلـت تدخله

بين أضلاعها موضعًا موضعًا وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت.

ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت فأخذ خشبة وأشعلها بالنار، ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة ووجهه إلى الناس، والخشبة المشتعلة في يده الواحدة، ويده الأخرى على باب أسته، وهو عريان، حتى أحرق الخشب المعبّأ الذي تحت السفينة من بعدها وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها»[1].



شيفا أحد أهم الآلهة الثلاثة في الديانة الهندوسية

إن فكرة تقديم الأضاحي البشرية ليست مقتصرة على شعب الفايكنج وحسب، بل تشترك الكثير من الحضارات في هذه الفكرة، كالحضارة البابلية والحضارة الفرعونية والحضارة الهندية، وهذا يحدث نتيجة الطقوس الدينية والثقافة السائدة في تلك الحضارة، وكمثال على ذلك، ففي الهند مثلًا هناك عادة هندوسية أن المرأة الأرملة تُقدم كأضحية لزوجها المتوفى وترمى في المحرقة وتسمى هذه الثقافة (Sati)

(١) رحلة ابن فضلان/ ١٥.

(ستي) نسبة إلى الإلهة الهندوسية (ستي) التي أحرقت نفسها لأنها لم تستطع الصبر على إهانة أبيها داكشا لزوجها شيفا، وتعني بالهندية (المرأة الطاهرة أو المقدسة)، هذه العادة منعت من قبل السلطة الحاكمة وأصبحت نادرة وربما قد اختفت الآن، وبالخصوص في المناطق غير الريفية، فمن الحالات المعاصرة والنادرة ذكرت البي بي سي، في تاريخ ٢١ أغسطس من عام ٢٠٠٦م، بولاية ماديا براديش أن امرأة قفزت لمحرقة زوجها كما هو المتبع في الطقوس الهندوسية، فاحترقت مع جثة زوجها[1].

وقد يكون من الجدير أن نذكر ما قاله الرحالة العربي ابن بطوطة[2] أثناء زيارته لدولة الهند: «ولما انصرفت عن هذا الشيخ، رأيت الناس يهرعون من عسكرنا، ومعهم بعض أصحابنا. فسألته: ما الخبر؟ فأخبروني أن



لوحة لثقافة (Sati) حرق أرملة هندوسية مع جثة زوجها الميت

(1) http://news.bbc.co.uk/2/hi/south_asia/5273336.stm.

(٢) أشهر الرحالين المسلمين، ولد في طنجة عام ٧٠٣هـ، وتوفي في مراكش عام ٧٧٩هـ.

كافرًا من الهنود مات، وأجَّجت النار لحرقه، وامرأته تحرق نفسها معـه. ولما احترقا جاء أصحابي وأخبـروا أنها عانقت الميت حتى احترقـت معه. وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينـة راكبة، والناس يتبعونها من مسـلم وكافر، والأطبال والأبـواق بين يديها، ومعها البراهمـة، وهم كبراء الهنود. وإذا كان ذلـك ببلاد السـلطان اسـتأذنوا السـلطان فـي إحراقها فيـؤذن لهم فيحرقونها»[1].



الهندوس يحرقون موتاهم

والشعب الهندوسي حتى هـذه اللحظـة يحرق موتاه، وهذه عادة لا يمكن تحاشـيها من دون أن نعلق عليهـا، وذلـك لأجـل أن تتفكك الروح من الجسـد وتنطلق إلى السماء.

عندما أعود بذاكرتي لعشـرين سنة مضت، أشاهد في قريتي القديـح حيث كانت تكثـر العيـون، والاعتقاد السـائد أن كلَّ عين تسـكن بها جنية، وكلّ نخيل يسكن به جني، الخوف مسيطر علينا، والطريقـة الوحيـدة التـي في مخيّلتنـا والتي نضمن بهـا ألا تتعدّى

(١) رحلة ابن بطوطة/ ١٤٦.

الجنية على أطفالنـا، هو عقد مصالحة، والبند الذي يتضمنه العقد هو تقديم بعض الأغذية كالبيض مثلًا عوضًا عن أطفالنا، مع العلم أن مثل هذه الأمور اختفت بشكل ملحوظ، وقد ساعدت الظروف على اختفائها، فالأشجار قطعت والعيون دفنت.

نقطـة فـي غايـة الأهمية يجـب أن يعرفهـا القارئ أن منشـأ الأسـاطير ليـس بالضرورة هو الفـراغ، بل أميل إلـى احتمال قوي أنه لا توجد أسـطورة تنشـأ من فراغ، معظم الأسـاطير في الأرض نشـأت من جذور واقعية لكنها وظِّفت بطريقة غير صحيحة، وهذا مـا يعطيها قوة كبرى، ونتيجة التطور مـن تلك الجذور وصلت لنا في هذا العصر بهذه الصورة التي نشاهدها.

أمثلـة توضيحيـة لمعالجـة هـذا الموضـوع، ظاهـرة تقديم الأغذيـة للجنية ربما كانت نتيجـة أن أحد الأطفال حدثت له حالة وفـاة وتكـررت العمليـة من وقت لآخـر، الحادثة كانـت موجودة بالفعل إلا أن معالجتها لم تسلك الطريق الصحيح.

اليونانيون عندما يتحدثون عن حروب الآلهة كحرب زيوس مـع والـده كرونوس، فهـذه الحـرب حدثـت بالفعل بين السـماء والأرض نتيجة الصواعق والبراكين التي تعرضت لها أرض اليونان قديمًا ففسـرت على أنها حربٌ بيـن زيوس ووالده كرونوس مثلًا. لتبسـيط الصـورة أكثر، قد أوضـح الباحثون أن جزيرة سـانتوريني اليونانية تعرضت لبركان مدمِّر قبل ٣٦٠٠ عام تقريبًا، تسـبَّب هذا

البركان في اختفاء الحضارة اليونانية، وبالاستناد إلى هذه الحادثة التاريخية يمكننا أن نتوقع أن الذين قدّر لهم النجاة ربما صاغوا حكايات أسطورية تتحدث عن حروب الآلهة؛ لأنهم لم يفهموا طبيعة البركان، وتقول الأبحاث إن قوة البركان أعظم مما تخيّله الباحثون، ففي عام ٢٠٠٦م، بواسطة الحفريات استطاع العلماء تقدير قوة هذا البركان، فقد قدّر بخمسين ألف قنبلة مثل التي ألقيت على هيروشيما، وإذا سلمنا بصحة هذا التقدير فمما لا شك فيه أن اختفاء معظم الحضارة اليونانية كان بسبب هذا البركان.

ففي دراسة في جريدة الشرق الأوسط العدد ٨٢٩٣، بتاريخ ٢٣/ جمادى الأولى/ ١٤٢٢هـ، بعنوان (بركان سانتوريني سبب انهيار الحضارة اليونانية الأولى)،لـ(أحمد عثمان)، جاء فيها:

«اختفت أول حضارة أوروبية في ظروف غامضة منذ حوالي ٣ آلاف و٦٥٠ سنة، وحتى الآن لا يعرف أحد سبب انهيارها المفاجئ، ولكن في برنامج قدمه تلفزيون البي بي سي البريطاني يوم ٢ اغسطس (آب) الماضي، كشف الباحثون أن ثوران بركان سانتوريني تسبب في القضاء على الحضارة المينية أولى الحضارات التي ظهرت في أوروبا»[1].

لا أودّ أن أتكلم عن تلك الممارسات التي كنت أشاهدها في

(1) http://www.aawsat.com/details.asp?issueno=8070&article=51950.

مجتمعنا فهي تسبب لي الإحباط الشديد، وأتمنى لو لم أشاهدها في يوم ما، إن النقطة المهمة هي الاعتقاد بعقائد تسبب لصاحبها الضرر الكبير جرّاء الاعتقاد بها، أنا لا أتكلم عن الزواج في يوم معين أو السفر في يوم معين، أستطيع أن أحدد موعد الزواج قبل عدة أشهر، وبهذا أختار اليوم المناسب فيه أو السفر أيضًا؛ لأننا على علم مسبق بالأيام المناسبة وغير المناسبة، وأظن أن هذه الصورة يعمل بها شريحة في مجتمعنا وهذه الممارسة ليس فيها نوعٌ من الأذى، فالمطارات لن تتوقف وقانون الجاذبية لن يتعطل، ستسير الكواكب في مساراتها وستقلع الطائرات من أماكنها، المشكلة المزعجة والأكثر إزعاجًا بكثير هي أن تصل الممارسة إلى حدٍّ يسبب الضرر على أصحابها، ويمكن للقارئ أن يحكّم عقله بسهولة جدًّا، وأظن أنه سيتفق معي في ذلك، وأرجو من القارئ أن يضع هذا الموضوع نصب عينه، ففي الحالة التي نصل فيها إلى إيذاء أنفسنا بسبب أو بآخر فهنا يجب أن نحكم عقلنا، وأنا أعترف أن هناك صعوبة كبرى في تحقيق ذلك، وهذا إحساس شخصي أشعر به، فهناك أنواع من الاعتقادات تسبب الأذى لأصحابها، ويتعدَّى الأمر إلى ما هو أبعد من هذا كالإضرار بالآخرين.

هناك العديد يمتنعون عن الزواج ويتقشفون ويعملون رياضات غريبة جدًّا، ويمشون على الجمر ويعذبون أجسادهم بطرائق بشعة جدًّا، لأن هناك أفكارًا صيغت في دماغهم أن ما يفعلوه هو الطريق

الوحيد للوصول إلى قفزة دينية نتيجتها الكرامات التي تحصل على أيديهم، هذا شـأنهم بالطبع، وإن كان يسبب الإزعاج، لكن المزعج أكثر من ذلك كلِّه بكثير أن تسبب الضرر للآخرين بقتلهم؛ لاعتقادك أن اللـه يأمرك بهـذا، أو تمارس معهم الخداع باسـتخدام الشـعوذة وتحضير الجن لتسـرق أموالهم أو تنتهـك عرضهم وتمارس معهم جرائم أخلاقية بحجة علاجهم، فهذه جريمة كبرى يجب أن نتصدّى لإيقافها ومنع انتشارها، وهذه المجلات والمحطات الفضائية التي تـروج لهذه السـخافات هي عصابات منظمة، مفلسـة فكريًّا، هدفها سـرقة أموال الناس وعقولهم، والإنسان الحكيم هو الذي لا يعطي لهذه الأمور أية قيمة.



● المشي على الجمر سيرنلاكا



● المشي على الجمر إسبانيا

ولـن نسـتطيع في هـذا الكتـاب أن نغـوص بعيدًا فـي جميع مـا ذكرنـاه أعـلاه، سـأكتفي بالتعليق علـى مسـألة (Firewalking)، (المشـي علـى الجمر)، فقد حظيت بشـعبية كبيـرة وخاصة في هذه

الأيام وأصبحت سلعة جيدة للاسترزاق وسرقة أموال الناس باسم العلاج، وعمل لها مهرجانات للاحتفال بها كظاهرة شعبية في كثير من البلاد كاليابان مثلًا، هذه العادة مارسها الكثير من الناس من ثقافات وديانات مختلفة كالهند واليونان والصين لأهداف مختلفة أيضًا، كاختبار القوة في تحمل الألم أو اختبار الإيمان أوكسر الخوف من مبدأ مواجهة الخوف بالشجاعة أو تكريمًا للآلهة أو للشفاء أو غير ذلك، ويعود تاريخها إلى الهند بحوالي ١٢٠٠ سنة قبل الميلاد[١]، وهذه الممارسة ليس لها دلالة إطلاقًا على القوة كما يتصور الكثير، فقد بيَّن أستاذ الفيزياء بجامعة بيستبرج بأمريكا (ديفيد ولي- David Willey) بتفسيرات فيزيائية أنيقة جدًّا أن المشي على الجمر ليس من الأفعال الخارقة، فالجمر موصل بطيء للحرارة وهناك عوامل مساعدة لا نستطيع أن نتجاهلها كسمك جلد القدمين ورطوبتهما والخطوات السريعة التي يقوم بها من يريد المشي على الجمر بحيث تكون الخطوة نصف ثانية أو أقل، كلّ هذه العوامل تساعد على عدم احتراق القدمين، ولمن يريد تفصيلًا أكثر حول ذلك يستطيع الرجوع إلى المقال على الرابط أدناه[٢]، وخلاصة الأمر أن المشي على الجمر ليس من الأفعال الخارقة، وهذا ما أكده

(1) Firewalking Myth vs Physics.
http://www.pitt.edu/~dwilley/Fire/FireTxt/fire.html.

(2) Firewalking Myth vs Physics.
http://www.pitt.edu/~dwilley/Fire/FireTxt/fire.html.

الدكتور ديفيد، والسبب الذي يجعل هؤلاء يعزوه لأسباب مجهولة أو خارقة هو أنهم لن يتكسبوا المال إذا فعلوا ذلك.

وبالملاحظة أن الخشب استخدم قديمًا كعازل للحرارة، مثلًا في مقابض القدور المعدنية التي تستخدم لطبخ الرز ليساعد على عدم إيصال حرارة النار، وفي المكاوي التي تستخدم لكوي الثياب، فاليد تحترق عند ملامستها للقطعة المعدنية ولا يكون لها كذلك عند ملامستها للقطعة الخشبية بسبب أن المعدن أفضل من الخشب في إيصال الحرارة. وربما حتى هذه اللحظة يستخدم الخشب في الحماية من الحرارة في الملاعق والصفاري (القدور)، لكن الشيء المنتشر في هذه الأيام هو البلاستيك المقاوم للحرارة.

سأضع هذا الجدول[1] الذي يبين معامل التوصيل الحراري (K) لبعض المواد والمعادن، وسنلاحظ الفرق الكبير بين النحاس والخشب، فالنحاس أفضل في التوصيل من الخشب بخمسة آلاف مرة:

المادة	الموصلية الحرارية	المادة	الموصلية الحرارية
الألمونيوم	٢٣٨	الحديد	٧٩,٥
النحاس	٣٩٧	الفضة	٤٢٧
الذهب	٣١٤	الخشب	٠,٠٨

(1) Physics for scientists and engineers with modern physics/545.

يجب أن نذكر واقعة معروفة لدينا؛ لأنها ذات صلة بعنواننا، جاء في كتاب السنن الكبرى للنسائي هذا الحديث: «أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ بَعْضُهُمْ: لا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَصُومُ فَلا أُفْطِرُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[١].

تفشَّت الخرافات قبل بعثة الرسول ﷺ في الجزيرة العربية نتيجة الجهل؛ والسبب الرئيس تأثرهم بالثقافات الأخرى عن طريق التجارة أو هجرة القبائل.

ولو تأملنا في الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول ﷺ، لوجدنا أنها عاشت حالة من الجهل، وانتشرت فيها الخرافات، فعبدت الأحجار والأشجار، اللات، وهبل، ومناة، والعزى، وذو الشرى، وود، ونسر ويعوق وسواع، ونائلة وإساف، كثير من الآلهة أكثر من أن تحصى عبدت في الجزيرة العربية، ومئات الأصنام نصبت فوق الكعبة، كل قبيلة اتخذت صنمًا لها يطوف حولها المشركون قبل فتح مكة.

---

(١) سنن النسائي ٣/ ٢٦٤.

وقد يكون من المستحسن أن نذكر قصة إساف ونائلة، لما تحويها هذه القصة من غرابة، تذكر كتب التاريخ أن إساف ونائلة كانا عاشقين من اليمن، فتقدم إساف لخطبة نائلة فرفض أبوها أن يزوجها إياه، ففعل الرذيلة بها داخل الكعبة، فمسخهما الله حجرين، ووضع إساف على الصفا ونائلة على المروة، ومع مرور الزمن نقلا إلى داخل الكعبة بأمر عمرو بن لحي لعبادتهما[١].



منحوتة تدمرية، صنم اللات



منحوتة نبطية، ذو الشرى

وإذا فحصنا الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول ﷺ يتبين لنا بوضوح فكرة تعدّد الآلهة ولم يعبدوا إلهًا واحدًا، مئات الأصنام منتشرة حول الكعبة، ولا يوجد بيت في مكة إلا وفيه صنم يعبد من دون الله، كلّ هذه الممارسات حاربها الرسول ﷺ، كسّر الأصنام حول الكعبة عندما فتح مكة وقد أمر عليَّ بن أبي طالب عليه السلام أن

(١) راجع هذه القصة بالتفصيل في كتاب أخبار مكة للأزرقي.

يركب على كتفيه ليقوم بهذه المهمة، أرسله أيضًا إلى اليمن لهدم صنمهم الفلس، مهمة الرسول ﷺ كانت الدعوة إلى عبادة إله واحد وهو الله، ونبذ الأصنام.

يذكر ابن هشام في سيرته أن أوّل من أدخل الأصنام إلى مكة هو عمرو بن لحي: «حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق -وهم ولد عملاق. ويقال: عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح- رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنمًا، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنمًا يقال له: هُبَل، فقدم به مكة، فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

ويستمر ابن هشام في وصف الحالة المأساوية للقبائل العربية وأصنامها:

فكان الذين اتخذوا تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم، وسموا بأسمائهم حين فارقوا دين إسماعيل. هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر، اتخذوا سواعًا فكان لهم برهاط[1]. وكلب بن وبرة من قضاعة اتخذوا ودًّا بدومة الجندل.

---

(١) من أرض ينبع.

قال ابن إسحاق: وقال كعب بن مالك الأنصاري:

ونَنسى اللات والعُزى ووُدّا ... ونسلبُها القلائد والشنوفا[١]

ويستمر ابن هشام في ذكر أصنام العرب والقبائل التي تعبدها، لدرجة قال فيها: قال ابن إسحاق: واتخذ أهل كل دار في دارهم صنمًا يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفرًا تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله[٢].

إن القارئ يدرك أن تاريخ الأصنام تاريخ طويل جدًّا ووجدت من آلاف السنين، حاول أسلافنا استقراء الطبيعة ونتج عن هذا الاستقراء الخطأ عبادة الكواكب والنجوم والحيوانات والأصنام، يقول تعالى: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾[٣]، ويقول تعالى في موضع آخر عن قوم بلقيس: ﴿**وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾[٤].

---

(١) الشنف: القرط.

(٢) السيرة النبوية ١/ ٧٨.

(٣) الأعراف:١٣٨.

(٤) النمل:٢٣.

ومـن عبادة الأصنام إلى خرافات أسـوأ ما تكـون، كالكهانة والتنجيم والتّطيّر، نكتفـي بذكر حديثين، جاء في فيض القدير عن الرسـول ﷺ: «ليـس منا مـن تطير ولا من تطير لـه، أو تكهن أو تكهن له، أو سـحر أو سـحر له»[١]. يذكر كنز العمال هذا الحديث حول الرسول ﷺ: «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»[٢].

تفسـير الوقائـع الكونيـة كان خروجًا ملحوظًا وتمـردًا على تراث المجتمع المسـتمد تراثه من نظريات سـابقة بعيدة كلّ البعد عـن الصـواب، فيوجد على أقـل القلائل ممن اسـتطاع أن يدرس طريقـة عمل الكـون، وقد وصلوا إلى نتيجة جيـدة، وبعض هؤلاء القلائـل قـد أخفـوا ما وصلـوا إليـه، فالمعلـوم أن تجهيـل الناس يسـتفيد منه كثيرون، فوجود العالم بين الجهـلاء يعطيه قيمة أكبر، لكن بريق هذا العالم سيخبو لو وضع في طبقة كلها علماء، كالثري الذي يعيش في مدينة كل سـكانها أثريـاء تكون ألمعيته أقلّ مما لو كان في مدينة كل سكانها فقراء.

كهنـة بابل مثلًا فكوا لغز الخسـوف والكسـوف، فاسـتغلوا جهـل النـاس بحـلِّ هـذا اللغز لمصالـح شـخصية أفادتهـم كثيرًا وانعكـس ذلك على المكانة الاجتماعية المرموقة التي حظوا بها،

---

(١) فيض القدير ٥/ ٤٩٠.

(٢) كنز العمال ٦/ ٧٤٩.

بسطوا نفوذهم على بسطاء الناس بتجهيلهم وإقناعهم أن الآلهة قد غضبت عليهم، يقول برتراند راسِل[١] في كتابه (أثر العلم في المجتمع): «لقد كان العلمُ العامل الأساس في تبديد الخرافات البدائية الأخرى، فالخسوف والكسوف كانا أول ظاهرتين طبيعيتين خرجتا من حيّز الخرافات البدائية إلى نطاق العلم، إذ استطاع البابليون التنبؤ بهما، لكن الأمر فيما يتعلق بكسوف الشمس لم يكن على درجة عالية من الدقة، واحتفظ كهنتهم بهذه المعرفة لأنفسهم واستخدموها لتقوية قبضتهم على جموع الشعوب»[٢].

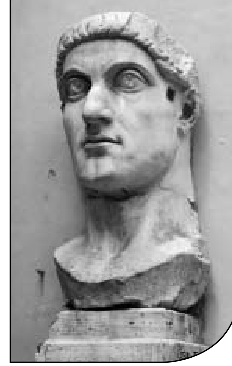
ونخلص من هذا إلى النتيجة المهمة التي ذكرناها، وعندما ننظر عن كثب إلى هذه المسألة نخرج بنتيجة أهمّ من السابقة، تحكي كتب التاريخ حول قسطنطين أنه أثناء الحرب رأى الصليب في السماء، فيذكر أوسابيوس القيصري في كتابه (حياة قسطنطين العظيم)[٣] أن الإمبراطور قسطنطين الكبير أثناء الحرب رأى علامة الصليب منيرة في السماء مع كتابة باللغة اليونانية تقول:

(١) فيلسوف إنجليزي ولد عام ١٨٧٢م، حصل على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٥٠م، توفي عام ١٩٧٠م.

(٢) أثر العلم في المجتمع/ ٢١.

(٣) إمبراطور روماني، ولد عام ٢٧٢م، حكم بين الفترتين (٣٠٦ م -٣٣٧م)، كان يعبد الشمس كأبيه، اعتنق المسيحية بعد ذلك بسبب مشاهدته للصليب في السماء، عمل جاهدًا على ترويج المسيحية والدفاع عنها، التي عمل أسلافه للقضاء عليها.

(بهذا تغلب)، وعلى أثر ذلك اعتنق المسيحية واتخذ من الصليب علامة له.



تمثال رأس قسطنطين



قسطنطين يرى الصليب في السماء

بالطبع قد اعتقد قسطنطين أن ما رآه هو كرامة له، وساعده البعض على ترويج المسيحية، فقد استدعى الكهنة وسألهم عن ذلك؟ فأجابوه بأنه هو الله، وهو الابن الوحيد للإله الواحد الوحيد، وأن العلامة التي رآها هي رمز الخلود، وعلامة النصر على الموت التي أحرزها لما كان على الأرض[1].

ويستمر المسلسل أن الشكوك خامرت قسطنطين في هذه الرؤيا وظهر له الرب بنفس العلامة التي رآها، حول حياة قسطنطين

---

(١) لتفصيل أكثر حول حياة قسطنطين يرجى مراجعة كتاب،(The life the blessed emperor Constantine، Eusebius Pamphilus)، الكتاب ترجم إلى اللغة العربية أيضًا بعنوان(حياة قسطنطين العظيم)، لأوسابيوس القيصري، تعريب القمص مرقس داود.

في سير القدّيسين والشهداء في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، يذكر موقع الكنيسة: (بعد وفاة أبيه تَسلَّم المملكة ونشر العدل والإنصاف ومنع المظالم، فخضع الكلُّ له وأحبّوه، ووصل عدله إلى سائر البلاد، فأرسل إليه أكابر روما طالبين أن ينقذهم من ظلم مكسيميانوس فزحف بجنده إلى إنقاذهم. وفى أثناء الحرب رأى في السماء في نصف النهار صليبًا مكوّنًا من كواكب مكتوبًا عليه باليونانية الذي تفسيره «بهذا تغلب»، وكان ضياؤه يشع أكثر من نور الشمس، فأراه لوزرائه وكبراء مملكته فقرأوا ما هو مكتوب ولم يدركوا السبب الموجب لظهوره.

وفى تلك الليلة ظهر له ملاك الرب في رؤيا وقال له: «اعمل مثل العلامة التي رأيتها وبها تغلب أعداءك». ففي الصباح جهّز علمًا كبيرًا ورسم عليه علامة الصليب، كما رسمها أيضًا على جميع الأسلحة، واشتبك مع مكسيميانوس في حرب دارت رحاها على الأخير الذي ارتدَّ هاربًا، وعند عبوره جسر نهر التيبر سقط به فهلك هو وأغلب جنوده. ودخل قسطنطين روما فاستقبله أهلها بالفرح والتهليل، وكان شعراؤها يمدحون الصليب وينعتونه بمخلِّص مدينتهم، ثم عيّدوا للصليب سبعة أيام، وأصبح قسطنطين ملكًا على الشرق والغرب»[1].

(1) http://st-takla.org/Saints/Coptic-Orthodox-Saints-Biography/Coptic-Saints-Story_1396.html.

يمكــن التعبيــر عن الصليب الذي اتخذه قســطنطين ونقشــه على أســلحته، كالتميمة تجلب له النصر، وهــذا هو بالضبط الذي اعتقده الإمبراطور قسطنطين.

وقد اســتخدمت التمائم قديمًا للحماية والحفظ من العدو، ومعنى التميمة كما جاء في لســان العرب: التَّمائمُ واحدتُها تميمةٌ، وهــي خَــرزات كان الأعــرابُ يعلِّقونها علــى أَولادِهــم يَنْفون بها النفْس والعَين بزَعْمهم، فأَبطله الإِسلامُ؛ وإِيّاها أَراد الهُذَلي بقوله:
وإِذا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفارَها   أَلْفَيْتَ كلَّ تَمِيمةٍ لا تَنْفَعُ

ليس بالضرورة أن تكون رؤية قســطنطين كهلاوس بصرية، قــد تكــون رؤيتــه حقيقية، وهذا ما أشــرنا إليه ســابقًا أن الأســاطير ليــس بالضرورة أن تنشــأ من الفراغ، وفي الوقت نفســه كان يجهل قســطنطين أن ما شــاهده ظاهــرة طبيعية لا أكثر مــن ذلك، تحدث بســبب انعكاس أشــعة الشــمس فــي ظــروف خاصة علــى الثلوج الســاقطة من الســحاب، والكتابة ربما تكون أنــه توهم ذلك وربما نعــزو اعتقاد أصحابه فــي ذلك إلى قوة الإيحــاء إن لم تكن الرؤية حقيقيــة، ومهمــا يكــن من أمــر التفســير، فالكرامــة التــي اعتقدها قسطنطين ليست كذلك.

وعلــى نفس التــردد من القصة الســابقة، هنــاك قصة تحكى للأطفال كنت أســمعها عندما كنت صغيرًا، أن كلبًا سرق قطعة من

اللحـم وجرى بها مسـرعًا حتى لا يلحقه أحـد، وصل الكلب إلى نهر وحاول عبور النهر ليذهب إلى مسـكنه ليستمتع بقطعة اللحم، نظر الكلب إلى النهر فوجد صورته في الماء، فاعتقد أن هناك كلبًا آخر يحمل قطعة لحم أخرى، قرر الكلب أن يأخذها منه ففتح فمه لينقض عليه فسقطت قطعة اللحم في النهر.

فـي شـهر صفر من عـام ١٤١٣هـ، توفي المرجع الشـيعي السـيد أبو القاسـم الخوئي رحمه الله، وهو مرجع الطائفة الشيعية آنـذاك، تخيّل الناس بعد موتـه أن صورته موجودة في القمر، كنت صغيـرًا آنـذاك، وجدت النـاس تنظر فـي الليل إلى صـورة القمر، وقـد فعلـت مثل ما فعلـه النـاس، إن الاحتمال الأقـوى لذلك هو انعكاسـات نفسـية لا أكثر مـن ذلك، ونتيجـة قوة الإيحـاء صدّق النـاس ذلك، إن تعلـق الناس بشـخصية معينة يفعل فيهـا أكثر من ذلـك، هذا صحيح، بمعنى من الصعب أن تتخيّل الناس شـخصية سياسـية أو دينيـة تعلقـت بها لسـنوات عديدة وربما عقـود عديدة تغادر عالـم الدنيا وتدفن تحت التراب، من الصعوبة تخيّل ذلك.

نحن نعرف في علم النفس كيف تفعل قوة الإيحاء في دماغ الإنسان، وهذا الشـيء يستعمل في العلاج بالأحرف المقطعة وما شـابهها وسـنتطرق لهـذه النقطـة لاحقًا، قـوة الإيحاء تسـتطيع أن تؤثر بها على جماعة بشـكل أسـهل من أن تؤثر بها على فرد بعينه، وكما أشـار الأخصائي النفسي الأسـتاذ فيصل العجيان في الحوار

الذي أجريته معه في القسم الثاني من الكتاب أن الأفراد يسقطون الأشياء على المثيرات الغامضة عوضًا عما يفقدونه.

توجد رواية زائفة أيضًا حول رئيس العراق صدام حسين أنه ظهر بعد إعدامه شنقًا في عام ٢٠٠٦م، على سطح القمر، ومن أبرز الذين دافعوا عن هذه المسألة خليل الدليمي، وهو رئيس هيئة الدفاع عن صدام حسين، أكد في حوار على قناة (LBC)، أن صدام حسين بعد اغتياله بيومين ظهرت صورته على سطح القمر، كان مقتنعًا بما يقول وأخرج صورة القمر وأخذ يترجمها أنها صورة صدام حسين، وتفاعل العراقيون مع الحدث بإطلاق الأعيرة النارية ليكون توثيقًا لصدق روايتهم، والأغرب من ذلك يقول: إن الأمريكيين اتصلوا بهم، وقالوا: إن الرئيس صدام حسين ظهرت صورته على القمر، ويستطيع القارئ الرجوع إلى هذا المقطع من اليوتيوب ليشاهد الحوار[١].

وعلى كل حال، من الطبيعي أن تفتتن كلّ أمة بعظمائها، ومن الطبيعي أيضًا ألا يتوقع الناس أن مثل هذه الحوادث تمرُّ مرورًا طبيعيًا.

إننا نجد عمومًا قصصًا غريبة في تاريخنا العربي، بل البشري، أن البعض لا يتحمَّل أن تسدل الستار على هذه المسرحية، غموض

(1) http://www.youtube.com/watch?v=zA7JDOU_lCY.

لا يقهـر، لحظـات عصيبة جدًّا مـن الصعب أن يتصورها الإنسـان، ويذهـب الأمـر إلى أسـوأ من ذلـك بكثير، يحكـي لنـا التاريخ عن الخليفة الأموي الوليد بن يزيد أنه نبش قبر جاريته بعد موتها بأربعين يومًـا فرآها جيفة عفنة، فقال: ما رأيتهـا أجمل من هذا اليوم، ومات علـى أثرهـا، وإذا أخذنا سـيناريو آخر وهو انتحـار الفتيات في وفاة عبد الحليم حافظ والكثير من الأمثلة المشابهة في هذا العنوان.

هذه القصة-قصة الصليب- لا يمكن تحاشـيها بل يجب أن نقـف عندها ونضعها تحـت المجهر لنفحصها جيِّـدًا، فالكرامات التـي ادّعاها البعض بقصـد أو من دون قصد ليسـت بالضرورة أن تكون حقيقية، فرؤية قسـطنطين مثلًا واعتقـاده بها هو نتيجة جهله بقوانيـن الطبيعة، كذلـك اعتقاد الناس في القرابيـن التي يقدمونها للكهنة هو جهلهم أيضًا بقوانين الطبيعة.

تنتـج الكرامـات أيضًا عـن طريق الخـداع، ويتطلـب الأمر براعة وحذرًا في التعامل مع هذه الأمور، ذلك أن المرء نفسـه يقع تحـت سـيطرة هذا الخداع فيتوهـم أن ذلك كرامة لـه، ولفهم هذه النقطة سأسرد أمثلة تاريخية توضح ذلك.

سـننظر الآن باقتراب أكثر إلى قصة يرويها ابن عساكر في كتابه تاريـخ دمشـق، حول علي بـن عبد الله بـن خالد بن يزيد بـن معاوية بـن أبي سـفيان، الأمـوي السـفياني، المعروف بأبـي العَمَيْطَـر، بويع لـه بالخلافة بدمشـق فـي عام ١٩٥هـ، فتـرة حكم الأميـن، يقول ابن

عساكر: «قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل للهيثم بن خارجة: كيف كان مخرج السفياني بدمشق أيام ابن زبيدة بعد سليمان بن أبي جعفر؟ فوصفه بهيئة جميلة، واعتزال الشر قبل خروجه، ثم وصفه حين خرج بالظلم، فقال: أرادوه على الخروج مرارًا فأبى. فحفر له خطاب الدمشقي المعروف بابن وجه الفُلْس وأصحابه تحت بيته سربًا ثم دخلوه في الليل، ونادوه: أخرج، فقد آن لك، فقال: هذا شيطان، ثم أتوه في الليلة الثانية، فوقع في نفسه، ثم أتوه في الليلة الثالثة، فلما أصبح خرج. فقال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: أفسدوه»[١].

في عام ٢٠٠٩م، بتاريخ ١٠ ديسمبر، يوم الخميس في منتصف الليل وحتى الساعة الثانية فجرًا، أبلغ عن ظهور القديسة العذراء مريم بالورّاق بمصر، وبالتحديد بين منارتي كنيسة القديسة العذراء مريم ورئيس الملائكة ميخائيل، تقرير تلفزيوني مفصل لقناة (سي تي في) يستطيع القارئ مشاهدته[٢] وملخص التقرير، أن الآلاف من مصر حضروا لمشاهدة هذا الحدث الجليل، وكانوا يرددون: «مِنْ أَيْنَ لِي هَذَا أَنْ تَأْتِيَ أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ؟»[٣]، وهذه الكلمات نطقت بها القديسة اليصابات كتحية وسلام عندما باركتها السيدة العذراء مريم بالزيارة، جاء في إنجيل لوقا: «وَدَخَلَتْ بَيْتَ زَكَرِيَّا وَسَلَّمَتْ عَلَى أَلِيصَابَاتَ، فَلَمَّا سَمِعَتْ أَلِيصَابَاتُ سَلاَمَ مَرْيَمَ

(١) تاريخ دمشق ٤٣/ ٢٧.

(2) http://www.youtube.com/watch?v=vl4LWD3yEFU.

(٣) إنجيل لوقا ١/ ٤٣.

ارْتَكَضَ الْجَنِينُ فِي بَطْنِهَا وَامْتَلَأَتْ أَلِيصَابَاتُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَصَرَخَتْ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَتْ: «مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ وَمُبَارَكَةٌ هِيَ ثَمَرَةُ بَطْنِكِ! فَمِنْ أَيْنَ لِي هَذَا أَنْ تَأْتِيَ أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ؟،...».

وهذا الحدث ليس الوحيد، فالتاريخ يذكر ظهورات عديدة للسيدة العذراء مريم، ففي عام ١٨٥٨م، أبلغ عن ظهور السيدة العذراء مريم في لورد بفرنسا وأكدت حملها الطاهر للقديسة برناديت (Bernadette)، وصادق على هذه العقيدة البابا بيوس التاسع، وقد ظهرت السيدة العذراء مريم للقديسة برناديت ١٨ مرة، وهناك ظهورات عديدة في أماكن متفرقة في هذا العالم، ما يهمنا الآن أن نضع هذه الحادثة تحت المجهر ونسأل: هل حقًا ظهرت السيدة العذراء مريم في عام ٢٠٠٩ بالوراق بمصر؟

لماذا لم يسأل أحدٌ نفسه من آلاف الحاضرين عن حقيقة هذا الظهور؟ لماذا تقبلناها كمعجزة من دون فحصها. فحص الكثير من الباحثين المسألة جيِّدًا، وخرجوا لنا بتفسير لهذه الظاهرة، وهو جهاز يستعمل في الأفلام وفي المحطات الفضائية الإخبارية، اسمه (هولوجرام–Hologram)، وهذا الجهاز يستخدم تقنية التصوير الثلاثي، بواسطة أشعة الليزر ولا يحتاج لسطح لتتكون عليه الصورة، ألا يحقّ لنا أن نسأل: أليس من الممكن أن يكون هذا الجهاز هو الذي أوحى للآلاف بظهور السيدة العذراء مريم بالوراق بمصر؟.

حوار جميل على قناة الحياة بعنوان (ظهور السيدة العذراء



ظهور السيدة العذراء مريم عام ٢٠٠٩م، بالوراق بمصر

بين الحقيقة والوهم)[1]، أثار القس الإنجيلي رفعت فكري عدة تساؤلات للقمّص عبد المسيح، أن المسيحية قوية بكتابها المقدس وتعاليمها الراقية، لذلك فهي ليست بحاجة إلى هذه الظهورات لإثبات صحتها، وضع سؤالًا تشكيكيًا حول صورة السيدة العذراء مريم، صور مختلفة نتيجة إبداع الفنانين، كلّ صورة تختلف عن الصورة الأخرى، والشيء المتيقن منه أن السيدة العذراء مريم ظهرت في القرن الأول الميلادي، في فترة لم تكن فيها آلات التصوير موجودة، السؤال هنا: هل ظهرت السيدة العذراء مريم بصورتها الحقيقية أم بصور الفنانين المختلفة؟ اعتبر القمص عبد المسيح بأن هذا السؤال ساذج جدًّا، ذلك أن السيدة العذراء كائن روحاني والذي يظهر روحها وتأخذ الشكل المألوف في ذهن الناس.

وقبل أن أنتقل للمثال الثالث، رأيت من الضروري أن أتكلم حول مزار لورد وقصة سيدة لورد، لما لها من أهمية من قبل المسيحيين، لورد قرية تقع جنوب فرنسا، ويقصدها الملايين

(1) http://www.youtube.com/watch?v=gmr68u0NPk0.

سنويًّا للتشافي من الأمراض، والأمر الذي يثير التساؤل، لقد مضى أكثر من قرن ونصف على ظهور السيدة العذراء مريم للقديسة برناديت، وعلى الرغم من عشرات وربما مئات الملايين الذين قصدوها خلال هذه الفترة الزمنية، فإن الكنيسة لم تقر إلا بـ(٦٧) حالة فقط، وبالطبع فلا يوجد حالة واحدة من بين الحالات التي أقرت بها الكنيسة لرجوع عضو كاليد أو الرجل، بل كانت أمراض بعضها بسيط كالتهاب العين، وبعضها معقد كالشلل.

تقرير مصوَّر بثته قناة (اتش تو) الإخبارية حول لورد، ويقول التقرير إن عدد الذين يقصدون المزار سنويًّا ٥ ملايين إنسان، وتم اختيار يوم ١١ فبراير لعيد سيدة لورد يتم فيه إحياء ظهور السيدة مريم العذراء إلى فتاة اسمها (برناديت سوبيرو) عمرها ١٤ سنة في مغارة ١٨ مرة، وكل هذه الظهورات حصلت عام ١٨٥٨م، ويقول التقرير حتى اليوم أكدت الكنيسة (٦٧) شفاءً عجائبيًا في لورد، لكن السؤال الذي لا يمكن تجاهله: لماذا هذه النسبة المخجلة التي لا تتعدَّى واحدًا من مليون؟! وبناء على النظرة نفسها يتضح لنا أنه لا توجد ضمانات حقيقية للمرضى الذين يذهبون إلى لورد للتبرك بها والشرب من مياهها في التشافي والعلاج[1].

وحول برناديت، فقد ولدت في أسرة فقيرة عام ١٨٤٤م، في مدينة لورد بفرنسا، حاصرتها الأمراض من كل جهة، ذهبت في

(١) لمشاهدة التقرير: http://www.youtube.com/watch?v=Bcaqsqpamxo.

عام ١٨٥٨م، لجمع الحطب للتدفئة مع أختها وصديقتها فدخلت مغارة، فظهرت لها السيدة العذراء مريم بصورة امرأة جميلة، توالت الظهورات ١٨ مرة، وقد أمرتها السيدة العذراء في ظهوراتها بالصلاة من أجل الخطائين، كما أمرتها ببناء كنيسة، طلبت السيدة العذراء منها أن تشرب من ماء موجود في المغارة وبعد ذلك تدفق الماء بحفرة صغيرة حفرتها بأصابعها، أصبح الناس يتبركون بهذا الماء حتى يومنا هذا، حيث يجري في حنفيات للشرب وتعبئة القوارير وحمامات للسباحة، وهناك حالات مسجلة لدى الكنيسة في قوة الماء الخارقة في الشفاء، طفل عمره سنتان قد شفي بعد أن قطعت أمه الأمل في شفائه، ورجل أعمى أعيد له البصر، وهناك أكثر من ستين حالة موثقة سجلتها الكنيسة، توفيت برناديت عام ١٨٧٩م، ويقال إن جسدها حتى هذه اللحظة لم يتحلل، فقد كشف أكثر من مرة بعد وفاتها وهو في حالته الطبيعية، ونعشها موجود حاليًا في غرفة زجاجية داخل كنيسة دير راهبات المحبة، وهنا يبرز سؤال آخر أكثر أهمية: هل بالفعل أن جسد برناديت لم يتحلل بعد أن كشف أكثر من مرة أم أنها خدعة كالنار المقدسة؟

إذا أردنا أن نناقش قصة برناديت بموضوعية سنجد فيها الكثير من المتناقضات، وهناك سؤال مهم: كيف يمكننا أن نصدق قصة فتاة عمرها ١٤ سنة ونصادق على أقوالها، حتى إن أختها وصديقتها لم يريا الحدث، والمسألة التي في ذهن البشر أن عدم

تحلل الجسد دليل على قداسة الشخص، هي مسألة غير صحيحة، وإلا لكان فرعون ولينين وستالين من القديسين، قد يعترض بعضهم أن هذه الأجساد وما شابهها تدخّل فيها العلم بإضافة مواد كيميائية تساعد على بقاء الجسد لفترة طويلة من الزمن كجسد فرعون مثلًا تعرض لعملية تحنيط وما زال حتى هذه اللحظة.

ينقل لنا التاريخ أن جسد هشام بن عبد الملك (١٢٥هـ) لم يتحلل، يذكر تاريخ دمشق بعد أن نبش العباسيون قبور بني أمية (١٣٢هـ) وجدوها متحللة وبعضها يوجد فيه ما تبقى من تحلل الجسد، إلا جسد هشام بن عبد الملك فقد وجد صحيحًا لم يبل منه إلا أرنبة أنفه، فصلبه العباسيون ثم أحرقوه.

ونظرًا لضعف منهج التفكير النقدي تظهر بين فترات متقاربة مثل هذه الأمور بكثرة، مستدلين بها على قداسة هؤلاء الأشخاص، وإليك الآن -أيها القارئ- هذا الخبر من صحيفة (دنيا الوطن)، هذا الخبر المنشور في عام ٢٠٠٦م، بعنوان: فتح قبر عبد الحليم حافظ حديث الناس في القاهرة: جثته لا زالت على حالها وكأن صاحبها دفن للتو، ننقل مقطعًا من الخبر، ويمكن للقارئ قراءته كاملًا على الرابط التالي الموجود في الحاشية السفلية[1].

مقدمة التقرير تقول: أصبحت قضية جثة عبد الحليم حافظ

(1) http://www.alwatanvoice.com/arabic/news/200651824/30/07/.html.

التـي لم تتحلـل في قبرها رغم مـرور ٢٩ عامًا علـى وفاته حديث الناس في القاهرة بعد أن كشفت عنها مجلة روز اليوسف المصرية التـي أكـدت نقلًا عـن الذيـن رأوا الجثمان أن جثة عبـد الحليم لا زالـت علـى حالهـا وكأن صاحبها دفـن للتو... عبـد الحليم الذي توفـي قبل ثلاثين عامًا في لندن بعـد أن أصيب بنزيف حاد إثر إبرة لوقف النزيف أعطاها له الطبيب المعالج.

أنا شـخصيًّا لا أصدق بهذه القصة إطلاقًا ونسـبة صحتها لا تتجـاوز الواحد من المليون، وإذا كان يسـتحيل عليَّ -للأسـف- فحـص الموضوع جيِّدًا إلا أننا نملك مؤشـرات حول هذه النقطة، فلـو قمنـا بعملية مسـح سـريعة علـى المجتمع المصـري نجد أن الخرافات وجدت بيئة مناسبة فيه قديمًا وحديثًا، وسنتطرق لبعض هـذه الخرافات في الحلقة القادمة، وقد يكون أشـهرها الأشـجار التـي نبتت في غابـة بألمانيا، وظهور السـيدة العـذراء في الوراق، والكثيـر مـن ذلك. وتشـير الدراسـات أنـه يوجد دجال لـكل مئة وعشـرين مصريًّا، وثلاث مئة ألف شخص يدعون العلاج بواسطة تحضيـر الروح، وعددٌ مثلهم يعالجون بالقرآن والكتاب المقدس، وأكثر من ربع مليون مصري يمارسـون الشعوذة، وهذه الإحصائية ذكرهـا الدكتور خالـد منتصر في مقال بعنـوان: (الخرافة المصرية من عفريتة علي الحجار إلى جثة عبد الحليم حافظ)[1].

(1) http://www.elaph.com/Web/ElaphWriter/2006139034/4/.html.

ومهمـا كان الأمر، إن الفكـرة التي تقول: إن عدم تحلل جثة الشخص يدلّ على قداسة الشخص، وتحلل جثته إلى تراب لا يدل على قداسته، هي فكرة خاطئة وغير صحيحة، ويجب على القارئ أن يعلـم أن بعـض الجثـث تحقن بمـادة الفورماليـك المخصصة لحفـظ الجثـث فـي الثلاجـات وعلـى وجـه الخصـوص الجثث القادمة من دولة إلى دولة أخرى، نحن أيضًا لا نستطيع أن نتجاهل الأسـباب العلمية المرتبطة بالعوامل البيئية، فبعض البيئات تساعد على المحافظة على الجسد، فهناك الكثير من الجثث اكتشفت في القطب الشـمالي وأماكن أخرى لآلاف السـنوات من دون تحلل، نشـرت جريدة سـبق فـي موقعهـا بتاريـخ ٢٥/ ١/ ١٤٣٤هـ، هذا الخبر بعنوان: الثلج يحفظ جثة فتاة ٥٠٠ عام:

عثـر فريق من علماء الآثار الشـهر الماضي على جثة سـليمة لفتاة تبيـن أن عمرهـا ١٥ عامًـا، في بيرو غـرب أمريـكا الجنوبيـة، كان الثلج حفظها وحنطها بشكل جيد. وأشارت تقديرات العلماء أن الفتاة تجمدت قبل أكثر من ٥٠٠عام، لكن الجثة التي تعود إلى تاريخ إمبراطورية الإنكا التي نشـأت في جنوب القارة الأميركية، حافظت على شكلها وملامحها وبشـرتها سـليمة، وبـدت معالمهـا كاملـة. وقـام العلمـاء بعمـل تحليل الحمـض الوراثـي النـووي للفتـاة، للتأكد مـن عمرها قبل دفنهـا والذي اتضح فعلًا أنه لم يتجاوز الـ١٥ عامًا ووفقاً لـ«سكاي نيوز عربية»[1].

(1) http://sabq.org/ofsfde.

والقصص حول هذا الموضوع أكثر من أن تحصى، ولا نستطيع أن نستطرد أكثر من ذلك، فقد وصلنا إلى نهاية هذه النقطة التي عرضنا فيها ما يتعلق بموضوع عدم تحلل الأجساد بعد الموت، وأثبتت من خلال العرض أن عدم تحلل الجسد في التراب لا يدلّ على قداسة صاحب الجسد، فهناك عوامل يتدخل فيها الإنسان كالتحنيط، إضافة إلى عوامل بيئية تتعلق بالتربة التي يدفن فيها الميت.

وشيء مماثل أيضًا، وهي النار المقدسة (holy fire)، التي تظهر بكنيسة القيامة في كل سنة في القدس، هذه الحادثة تتكرر في يوم السبت المقدس من كل سنة الذي يسبق عيد الفصح، وينظر لها المسيحيون كمعجزة من أعظم المعجزات تحدث بانتظام لقبر السيد المسيح في كنيسة القيامة، ومن خصائص هذه النار أنها لا تحرق، ويوجد تفسير علمي لذلك، الكثير من الصفحات في الإنترنت، لمن أراد أن يتوسع في موضوع النار المقدسة.

إن توصيف عملية دخول قبر المسيح ونزول النار المقدسة، يذكرها بطريك القدس (ديودوروس-Diodorus) كما جاء في موقع (مركز معلومات المسيحيين الأرثوذكس)، (Orthodox Christian Information Center): (أتجه في طريقي خلال الظلام ثم أركع على ركبتي، هنا أقول بعض الصلوات التي صدرت لنا عبر القرون، وأنا أنتظر، في بعض الأحيان بضع دقائق، لكن عادةً تحدث المعجزة مباشرة بعد صلاتي، من صميم الحجر


مصجزة النار المقدسة، وليام هولمان هانت (١٨٢٧م-١٩١٠م)

نفسه الذي وضع عليه السيد المسيح تخرج النار، وتكون باللون الأزرق، لكن قد تتغير وتتخذ ألوانًا وأشكالًا عديدة، لا يمكن وصفها لعقل بشري، ضوء وضباب يرتفعان من الحجر، وتخرج الشعلة المضيئة (الضوء) التي تتخذ شكلًا مختلفًا كل عام. وأحيانًا يغطي الضوء (النور) الحجر فقط، بينما في أوقات أخرى يغطى الضوء القبر (الغرفة) كله، لدرجة أن الناس الموجودين خارج القبر يستطيعون أن يروه، وهذا الضوء لا يحرق حيث لم تُحرق لحيتي من النار المقدسة ١٦ سنة كنت فيها بطريكًا للقدس، وهذا الضوء يكون مختلفًا عن الضوء المنبعث من النار العادية التي تشتعل في المصباح الزيتي. في مرحلة ما يخرج الضوء ويتكون على شكل عمود وتبدو النار أن طبيعتها مختلفة، وأكون قادرًا على إشعال الشموع بسهولة، ثم أتوجه خارج القبر، وأعطي النار إلى البطريك الأرمني أولًا، ثم إلى الأقباط، ثم إلى جميع الحاضرين في الكنيسة»[1].

(1) http://orthodoxinfo.com/general/holyfire.aspx.

لقـد تم التشـكيك في هـذه النار مـن زمن طويـل، ففي عام ١٢٣٨م، بيّـن البابـا (غريغورى التاسـع -Pope Gregory IX) أنها خدعة ونار مزورة[١]، أيضًا المسافر العثماني (أوليا جلبي-Evliya Celebi) قـال: إن هناك جرة من النفتا (naphtha) [منتجات النفط] (قنديـل) داخـل القبـر مخفيـة من قبـل الرهبـان ويتم مـن خلالها اشـعال النار[٢]، أما المؤرخ الإنجليـزي (إدوارد جيبون-Edward Gibbon)، قال عنها في كتابه (تاريخ انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانيـة): «النـار المقدسـة التي تشـتعل عشـية عيـد الفصح في كنيسـة القيامـة، هو نـوع من الاحتيـال الورع، ابتكـر لأول مرة في القرن التاسـع، وقد كان يُعترف بها بواسـطة الصليبييـن اللاتنيين، وتتكرر كل عام بواسطة مجموعة من رجال الدين اليونان والأرمن والأقبـاط، الذيـن يفرضونها على المتفرجين السـذج لمصلحتهم الخاصة، وذلك من استبدادهم»[٣].

الكثيـر أيضًـا شـككوا فـي هـذه النـار، وقبل بضع سـنوات وبالتحديـد في عام ٢٠٠٥م، وعلى الهواء مباشـرة، بثَّ التلفزيون اليوناني على قناة (ANT 1) محاورة حول النار، أثبت فيها المؤرخ

(1) The Appearance of Holy Fire at Pascha.
http://www.orthodoxdoncaster.co.uk/other-articles/970-the-appearance-of-holy-fire-at-pascha.html.

(2) Jerusalem، the biograghy/305.

(3) The History of the Decline and Fall of the Roman Empire 5/ 187.

(مايكل كالوبلوس–Michael Kalopoulos) للقديس الموجود في المحاورة أن النار خدعة كيميائية، جلب ثلاث شموع وأضاف إليها الفسفور الأبيض واشتعلت بعد عشرين دقيقة بشكل عفوي، ذلك أن الفسفور الأبيض له خاصية الاشتعال الذاتي عند ملامسته للهواء[1].

لقد درس مايكل العلوم الطبيعية ووجد لنا تفسيرًا علميًّا يمكننا من خلاله الحصول على النار المقدسة، من السهل أن يقنع الساحر الجماهير أن ما يفعله من المشي والنوم على لوح خشبي به آلاف المسامير دون أن يجرح ينم عن قوة خارقة يمتلكها هذا الساحر، أما أولئك الذين درسوا العلوم الطبيعية يعرفون جيِّدًا أن ما يقوم به هذا الساحر هو شيء طبيعي وليست قوة خارقة يمتلكها؛ لأنهم يعرفون جيِّدًا أن الضغط يتناسب عكسيًا مع المساحة، طبقًا للقانون التالي:



الآلاف من المسيحيين يحملون شموعًا أوقدت من النار المقدسة

$$P=\frac{F}{A}$$

(1) http://www.youtube.com/watch?v=MYAqaKOu_b8.

حيث الحرف (P) يمثل الضغط، الحرف (F) يمثل القوة، الحرف (A) يمثل المساحة.

الكثير من الممارسات التي يقوم بها الساحر أمام الجماهير هي حقيقة بالفعل وليست خدعة، بل تعتمد على قانون فيزيائي أو كيميائي كمركز الكتلة عندما يقوم الساحر بالمشي على الحبل وبيده عصا، أو لوح المسامير عندما يقوم الساحر بالمشي عليه، تجارب كثيرة تندرج تحت مظلة الفيزياء السحرية، لأن المشاهد يتوهم بأن هذه الأعمال من السحر.



المشي على المسامير

سحرة فرعون يبدو أنهم حصلوا على معلومات جيدة في علم الكيمياء، حالهم حال كهنة بابل الذين توصلوا إلى معلومات فلكية جيدة استطاعوا من خلالها معرفة الخسوف والكسوف، فاستغلوا معرفتهم بذلك إلى تقوية قبض سيطرتهم على الشعوب، من المحتمل القوي أنهم على معرفة بعنصر الزئبق (Hg) لذلك استخدموه في خدعتهم بحيث جعلوا عنصر الزئبق في جوف الحبال وبفعل الحرارة يتمدد الزئبق فتتحرك هذه الخيوط

كما تتحرك الأفاعي، وهناك احتمال آخر يتميز بأناقة جميلة، لكني أرى أنه ضعيف جدًّا، وهو أن سحرة فرعون استخدموا مادة (ثيوسيانات الزئبق الثنائي) (Hg(SCN)2)، فعندما تحترق تشكل أشكالًا خيطية أشبه ما تكون بالأفاعي.

الزئبق معدن سائل فضي اللون ويتميز بكثافة عالية حيث تبلغ كثافته ١٣٦٠٠ كجم لكل متر مكعب، بمعنى لو حصلنا على مكعب طوله وعرضه وارتفاعه متر واحد وملأناه بسائل الزئبق ووضعناه على الميزان سنشاهد أن كتلته ١٣٦٠٠ كجم، يتمدد الزئبق بالحرارة ولا يلتصق بجدار الإناء الموجود فيه، لهذا يستخدم في الترمومتر لقياس درجة حرارة الإنسان، يضع الطبيب الترمومتر في فم المريض فيبدأ الزئبق بالتمدد حتى يصل إلى درجة حرارة المريض فيخرج الطبيب الترمومتر ويقرأ درجة الحرارة.



• سحرة فرعون استغلوا جهل الناس بالتفسير العلمي لعنصر الزئبق في خداعهم، وقد انتصر عليهم النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه أظهر لهم أفعى حقيقية

وعلى أساس الفكرة

السابقة نستطيع أن نتوقع أن سحرة فرعون وضعوا الزئبق في الحبال المجوفة وعرّضوها للحرارة بفعل الشمس أو بواسطة نار كانت مخفية تحت السطح الموجود عليه الحبال، المهم أنهم استطاعوا أن يستخدموا الحرارة في تمديد الزئبق لتتحرك الحبال.

لقد استطاع النبي موسى بن عمران عليه السلام التغلب على سحرة فرعون بأن أظهر لهم معجزة إلهية وهي العصا التي تحولت -بإذن الله- إلى أفعى حقيقية بلعت ما يأفكون، وهي أفاعيهم الخادعة.

يقول تعالى: ﴿**قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**﴾[1]، يقول الطوسي في مجمع البيان حول الآية الكريمة: الضمير في إليه راجع إلى موسى، وقيل إلى فرعون، أي يرى الحبال من سحرهم أنها تسير وتعدو مثل سير الحيات، وإنما قال يخيّل إليه لأنها لم تكن تسعى حقيقة، وإنما تحركت لأنهم جعلوا داخلها الزئبق، فلما حميت الشمس طلب الزئبق الصعود فحركت الشمس ذلك فظن أنها تسعى[2].

ويوجد تعليق حول الآية المباركة يستحق القراءة، يذكره الرازي في كتابه التفسير الكبير: الهاء في قوله (يخيّل إليه) كناية عن موسى عليه السلام، والمراد أنهم بلغوا في سحرهم المبلغ الذي

---

(١) طه:٦٦.

(٢) مجمع البيان ٧/ ٣٦.

صار يخيّل إلى موسى عليه السلام أنها تسعى كسعي ما يكون حيًا من الحيات، لأنها كانت حية في الحقيقة، ويقال إنهم حشوها بما إذا وقعت عليه الشمس يضطرب ويتحرك[١].

ويقول الرازي في نفس العنوان وفي موضع آخر وحول الآية الكريمة: ﴿**قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**﴾[٢]، واحتج به القائلون بأن السحر محض التمويه. قال القاضي: لو كان السحر حقًّا، لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم؟ فثبت أن المراد أنهم تخيّلوا أحوالًا عجيبة مع أن الأمر في الحقيقة ما كان على وفق ما تخيّلوه. قال الواحدي: بل المراد سحروا أعين الناس، أي قلبوها عن صحة إدراكها بسبب تلك التمويهات، وقيل إنهم أتوا بالحبال والعصي ولطّخوا تلك الحبال بالزئبق، وجعلوا الزئبق في دواخل تلك العصي، فلما أثر تسخين الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض وكانت كثيرة جدًّا، فالناس تخيّلوا أنها تتحرك وتلتوي باختيارها وقدرتها[٣].

لقد عرف سحرة فرعون أن ما قام به موسى بن عمران عليه السلام ليس من أنواع الخداع والدجل وإنما هو معجزة حقيقية

(١) التفسير الكبير ٢٢/ ٨٣.
(٢) الأعراف:١١٦.
(٣) التفسير الكبير ١٤/ ٢٠٣.

تفـوق قـدرات البشـر؛ لذلـك آمنـوا باللـه وذابـوا فـي عشـق الله وواجهـوا طغيان فرعون، يقـول تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَـهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّـحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِـلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَـدُّ عَذَابًا وَأَبْقَـى* قَالُـوا لَن نُّؤْثِـرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَـا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّـذِي فَطَرَنَا فَاقْـضِ مَا أَنتَ قَـاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَـذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* إِنَّـا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1].

وهكـذا يتضـح للقـارئ أن الفـرق الجوهري بيـن المعجزة والشـعوذة، أن الأولـى لهـا حقيقة فـي العالـم الخارجـي والثانية ليسـت كذلك، فقد خيّل للناس أن أفاعي سـحرة فرعون هي أفاعٍ حقيقيـة نتيجة سـوء فهـم للظواهر العلميـة، والحقيقة أنها ليسـت بأفاعٍ حقيقية، بل حبال مجوفة بداخلها عنصر الزئبق.

ويمكن لهذا المثال الذي ذكرناه أعلاه حول سـحرة فرعون أن يسـاعدنا علـى فهم الخدع السـحرية وأنها ليس لهـا وجود في العالم الخارجي، ذلك بالفعل هو المنهج الذي سـار عليه سـحرة فرعـون ومـا زال الأحفاد يسـيرون علـى نفس مبدأ الأجـداد، فإذا شاهد إنسان ساحرًا يقوم بأعمال شعوذة يجب عليه أن يزرع الشك في نفسه ويتذكر سحرة فرعون، ماذا فعلوا!

---

(١) طه: ٧١-٧٣.

إن أحد الأسـباب الرئيسة التي تجعل السـحر علمًا زائفًا أن السـحرة أنفسـهم اعترفـوا بأن علمهـم علمٌ زائفٌ لا وجـود له في العالـم الخارجـي، عليـك أن تجعـل -أيهـا القارئ- هـذه القصة تهمـس في أذنك دائمًا، فالذي اسـتعمله سـحرة فرعـون ما هو إلا نوع من أنواع الشـعوذة والخداع، واسـتغلوا جهل الناس بالظواهر العلمية لإرهابهم، وربما يرى القارئ كتقويم لي لهذه الحالة بأنني على خطأ، على الأقل إذا لم أكن صائبًا فقد كشفنا عن زيف جانب مهـم من جوانب السـحر، وخلاصة مـا أريد أن أقوله: إن السـحر ليس من العلوم الحقيقية، بل هو من العلوم الزائفة.

ونتيجة جهلنا بالثقافة العلمية أغرقنا أنفسنا في مسألة السحر وأصبـح الكثير يتخوفون من السـحر والعين، ولا تجد مريضًا إلا ويقال عنه أنه مسحور، هذا شيء مقبول في العصور الماضية، أما الآن فالترويـج لذلك هـو طريق للرجوع إلى العصـور المظلمة، نحـن الآن نعيـش في اطِّراد علمي، وعجلة العلم لا تتوقف شـئنا ذلـك أم أبينـا، والإنسـان الحكيم هو الذي لا يهـدر وقته في مثل ذلـك، علينـا أن نبني معرفتنا على أسـس علمية ونسـتثمر أوقاتنا فيما هو أنفع لنا.

بالتأكيـد، لقـد قلّـت مثل هـذه الأمـور كثيـرًا نتيجـة القفزة المهولـة التي حققهـا العلم في حل ألغاز الكـون، فالحصول على المعرفـة العلمية يتميز بصعوبة فائقة في القـدم، أما الآن فالطلاب

في المرحلة المتوسطة وربما الابتدائية يعرفون جيِّدًا معلومات حول الزئبق ويستطيعون أن يشرحوا لك الكثير من الظواهر العلمية، ونتيجة الاطّراد العلمي أصبحت الكرامات قليلة جدًّا وقلّت الأساليب التي كانت تستعمل قديمًا كأعمال الشعوذة والخداع فلم يعد لمثل هذه الأمور مكانة في محيط دائرة العلم.

هناك موقف جميل جدًّا يذكره كتّاب السيرة النبوية حول الرسول ﷺ، يقول البيهقي في سننه: «انكسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فقال الناس: انكسفت الشمس لموت إبراهيم فقال النبي ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله وإلى الصلاة»[1]. إن توافق كسوف الشمس مع موت إبراهيم ليس له علاقة بما يجول في ذهن الناس من أن الشمس تنكسف لموت أحد العظماء، ولو كان غير الرسول ﷺ لاستغل هذه الظاهرة كرامة لابنه إبراهيم، وفي التاريخ شواهد كثيرة حول ذلك. ولتوضيح هذا الأمر فقد اتفق في خلافة المنصور أن الطاعون ارتفع عن أهل الشام، يقول ابن الجوزي في أحداث سنة إحدى وأربعين ومئة: «قدوم المنصور من الحج إِلى المدينة، ثُمَّ إِلى بيت المقدس، فصلى فِيهِ، ثُمَّ انحدر إِلَى الرقة، وقتل بها منصور بْن جعونة، لأن المنصور قَالَ: احمدوا اللَّه يا أَهْل

(١) سنن البيهقي ٢/ ٣١١.

الشـام، فقد رفع عنكـم بولايتنا الطاعون. فَقَالَ منصـور: اللَّه أكرم من أن يجمعك علينا والطاعون»[١].

وقد يكون من المفيد أن أشـير إلى ملحوظة مهمة، إذا توافق كسـوف الشـمس الطبيعي مع وفاة إبراهيم ابن الرسـول ﷺ في السنة العاشرة للهجرة، يقودنا إلى خيار وحيد وهو أن وفاة إبراهيم حصلت بتاريخ ٢٧ يناير ٦٣٢م، ويوافق بالهجري آخر شهر شوال سنة ١٠هـ، وهو الذي وافق حدوث كسوف الشمس الوحيد الذي شـوهد في المدينة المنورة في تلك السنة، ويمكن للقارئ الرجوع لبرامج الكسـوف كبرنامج (Red Shift) لفحص المعلومة السابقة. وعلى هذا فإن التاريخين المشهورين اللذين تذكرهما كتب السيرة والحديـث أن وفاتـه كانـت فـي ١٠/ ربيـع الأول/ ١٠هــ، ١٨/ رجب/ ١٠هــ، غير صحيحين ولا يتوافقان مع كسـوف الشـمس إطلاقًا لأن الكسوف لا يحدث إلا في ولادة القمر.

وربما كان لي أن أشـير أيضًا، إلى مسألة كسوف الشمس في يوم العاشر من المحرم سنة ٦١هـ، بسبب مقتل الإمام الحسين بن علـي عليه السلام، جاء في سـنن البيهقي الكبرى: «لما قتل الحسـين بن علي رضي الله عنهما كسـفت الشـمس كسـفة بدت الكواكب نصـف النهار حتى ظننا أنها هي»[٢]، يقول جلال الدين السيوطي في كتابه تاريخ

(١) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٢٩.
(٢) السنن الكبرى ٣/ ٣٣٧.

الخلفاء: «ولما قتل الحسين مكثت الدنيا سبعة أيام والشمس على الحيطان كالملاحف المعصفرة، والكواكب يضرب بعضها بعضًا. وكان قتله يوم عاشوراء، وكسفت الشمس ذلك اليوم، واحمرّت آفاق السماء ستة أشهر بعد قتله، ثم لا زالت الحمرة ترى فيها بعد ذلك، ولم تكن ترى فيها قبله»[١].

سألت أخي الدكتور أنور آل محمد حول هذه المسألة، فأجابني أنه من غير الممكن أن يكون الكسوف هو الكسوف الطبيعي؛ لأن الكسوف الطبيعي لا يحدث إلا في ولادة القمر، واحتمل أخي أن يكون مذنبًا مرَّ بين الأرض والشمس وكان قريبًا من الأرض بحيث حجب قرص الشمس ونفث ذيل المذنب الذي يؤثر في الجهة المعاكسة للشمس كمية كبيرة من الغبار في الغلاف الجوي للأرض مما قد يؤدي إلى تغير خصائص الغلاف الجوي الضوئية، وقد يؤدي أيضًا إلى مطر التراب الأحمر الذي يشبه الدم. وهو ما يمكن أن يغير لون السماء من الأخضر إلى الأزرق ولون الأفق إلى الأحمر، بسبب تغير معامل التشتت في الغلاف الجوي الناتج عمّا أضافه ذلك المذنب إلى الأرض.

ولا يمكن استبعاد مثل هذه الحالة الحرجة والخطيرة جدًّا على الأرض، إذ يمكن أن يقترب المذنب إلى درجة يوشك فيها أن يدخل في جاذبية الأرض ليرتطم بها ولكنه يفلت من ذلك قبل

(١) تاريخ الخلفاء/ ١٦٠.

أن يصل إلى تلك النقطة. وقد رصد الفلكيون حدثًا مشابهًا في عام ١٩٩٤م، حيث ارتطم مذنب (شوماخر ليفي) بكوكب المشتري بعد أن تفتت بجاذبية المشتري الهائلة وأدى ذلك إلى حدوث انفجار هائل على سطح الكوكب بحيث لو سقط ذلك المذنب على الأرض لأدى إلى فناء البشرية. وتكونت على سطح الكوكب بقع سوداء أمكن رصدها من على سطح الأرض، ولو فرضنا صحة هذا الفرض فإنه يمكن تحديد ذلك المذنب إذا كان مما يمكن رصده بحيث يرسم مساره ويُعلم متى مرّ بالقرب من الأرض.

أنا أتفق مع أخي في ذلك، إن مثل هذه الشروحات لا تقلل من أهمية المعجزة كما يتصور البعض، ويجب عليّ أن أوضح أمرًا هامًا بشأن هذا الاستنتاج، فالمعجزات لها أسبابها أيضًا، والبحث في أسبابها لا يقلل من شأنها، وهذا السؤال تسهل الإجابة عنه. يقال إن القمر هو ابن الأرض وقد انفصل عنها نتيجة اصطدام نيزك بها، لكن السؤال الأكثر أهمية: لماذا في تلك اللحظة بالضبط اصطدم هذا النيزك؟ لماذا مرت الأرض بمراحل معقدة جدًّا حتى تكون سكنًا مريحًا للإنسان؟ ويمكن لهذه الأمثلة أن تساعدنا على فهم حقيقة واضحة، وهي أن هناك خطة ربانية -إذا صحّ استعمال الكلمة- ولا ضير في ذلك أن مذنبًا أو نيزكا تلقى أمرًا إلهيًّا في لحظة ما ليضرب الأرض، ويمكن للقارئ أن يبحث بسهولة في هذه النقطة سيلاحظ أن هناك أمرًا غيبيًا، وهذا الأمر لا يمكن أن

نجد له تفسيرًا ما لم ننسبه لله سبحانه وتعالى، والحصول على هذه المعرفة ليس فائق الصعوبة، فهناك الكثير من الأمثلة تساعدنا على فهم ذلك، فلماذا أمطرت السماء في تلك اللحظة التي دعا فيها نوح عليه السلام، وكيف علم نوح عليه السلام بهذا الطوفان العظيم وصنع سفينة لمواجهته، ولماذا أتت الريح لقوم عاد وأبادتهم جميعًا في تلك اللحظة التي كذبوا فيها دعوة نبيهم هود عليه السلام؟ صحيح أننا نعرف كيف تتكون الأمطار والرياح والزلازل والبراكين، لكن السؤال الكبير: لماذا اتفق للسماء أن تمطر في ذلك الوقت بهذه الكمية الكبيرة؟ ولماذا اتفق للريح أن تأتي بهذه القوة؟ فالأمل النهائي الذي نتمناه أن نرجع جميع ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، فماذا لو لم تمطر السماء بعد أن صنع نوح عليه السلام سفينته؟! لا شك، سيستغل الكفار ذلك ويقولون إن نوحًا ليس برسول من الله، إن بناء السفينة ومطر السماء بعد ذلك لهو دليل قوي على ارتباط نوح عليه السلام بالله، وهكذا نرى في الكثير من الأمثلة ما يساعدنا على استنتاج ذلك، فمعرفة أسباب المعجزة لا يفصلها عن سماويتها بل على العكس تمامًا، ومن الممكن أن أقدم مثالًا آخر، حادثة انشقاق القمر، لو استطعنا أن نفهمها علميًّا كاصطدام مذنب أو نيزك بالقمر وانفصاله ثم تماسكه من جديد بفعل الجاذبية، فهذا لا يقلل من شأن المعجزة، لأن السؤال المهم: لماذا اتفق للمذنب أو النيزك أن يضرب القمر في تلك اللحظة بالضبط التي طلب فيها المشركون من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يشق القمر؟ ليس من الممكن

أن نعزو هذه التفسيرات إلى ظروف فوضوية، وكيف نعزوها إلى ظروف فوضوية إذا ارتبطت بزمن معين، إنها مغالطة منطقية بحتة.

يشعر الكثير بتفسيرات كهذه بنوع من الدهشة، وبالخصوص عندما يواجهونها للمرة الأولى، وتبدو أمرًا سخيفًا، لكن الحقيقة هي خلاف ذلك، ففي دراسة حديثة في عام ٢٠١٣م، نُشرت ملخصة على موقع البي بي سي، بعنوان: (انفجار كوني ضرب الأرض في العصور الوسطى): قال علماء إن كوكب الأرض ربما يكون قد تأثر بأشد انفجار معروف في الكون - وهو انفجار لأشعة غاما - خلال القرن الثامن. عثر باحثون في عام ٢٠١٢م، على أدلة تشير إلى أن كوكبنا أصيب في انفجار اشعاعي وقع خلال العصور الوسطى، غير أن جدلًا ما زال مثارًا بشأن ماهية الحدث الكوني الذي ربما تسبب في حدوث الانفجار. وتفيد دراسة حديثة بأن ذلك ربما نتج عن اثنين من الثقوب السوداء أو اندماج نجوم نيترونية في مجرتنا. ومن شأن مثل هذا الانفجار أن يسفر عن انطلاق كميات هائلة من الطاقة. ونشرت الدراسة في دورية (الملاحظات الشهرية للجمعية الفلكية الملكية).

في العام الماضي عثر فريق من العلماء على بعض أشجار الأرز القديمة في اليابان تحتوي على مستويات غير عادية من إشعاعات الكربون المعروفة باسم كربون-١٤. وفي القارة القطبية الجنوبية، كان هناك ارتفاع حادّ في مستويات مادة بريليوم-١٠ في

الجليد. وتتكون هذه النظائر عندما يصطدم إشعاع مكثف بالذرات في طبقة الغلاف الجوي العليا، وهو ما يرجح أن ثمة انفجارًا للطاقة أصاب كوكبنا من الفضاء. واستطاع العلماء باستعمال حلقات الشجر وبيانات من عينات ثلجية تحديد أن ذلك وقع بين عامي ٧٧٤ و ٧٧٥ بعد الميلاد، غير أن سبب الواقعة ما زال لغزًا. ونشر فريق من علماء الفيزياء الأمريكيين أخيرًا بحثًا يرجح أن يكون انفجار شمسي ضخم على نحو استثنائي قد تسبب في توليد هذه الدفقة من الطاقة. غير أن آخرين في الدوائر العلمية يعترضون على هذا؛ لأنهم لا يعتقدون أن الطاقة التي تولدت تتفق مع مستويات الكربون-١٤ وبريليوم-١٠. وقدم فريق آخر من الباحثين الألمان تفسيرًا آخر يفيد بأن انفجارًا هائلًا حدث في مجرة درب التبانة[1].

الحالة التالية جديرة بالملاحظة، إذ نخرج بنتيجة مهمة، وهي إمكانية تغير في الغلاف الجوي للأرض بفعل عوامل تطرأ على الكون، ومن يدري، ربما تخرج لنا دراسات علمية في السنوات القادمة تعضد كلام أخي حول الموضوع.

وعودة إلى نقطة بحثنا، وبناءً على نفس النظرية السابقة فإن المنصور قد استعمل الدين كسلاح يسيطر به على الناس في كثير

(1) http://www.bbc.co.uk/arabic/scienceandtech/2013130121/01/_cosmic_bang_earth.shtml.

من المواطن، وهذا الشيء موجود من القدم، وقد استفاد مايكافلي عندما كتب كتابه (الأمير) من الأحداث التاريخية، ووضح لنا نقطة مهمة وهي أن الدين ضروري للحكومة لا لأجل الفضيلة بل لتمكين الحكومة من السيطرة على الناس، وبشكل أكثر وضوحًا، فنحن نستطيع أن نفهم ذلك من خلال تتبع الأحداث التاريخية ودراستها، عندما ولد للمنصور ولدٌ سمّاه محمدًا ولقبه بالمهدي، والرابطة معروفة جيدًا، وهي حديث الرسول ﷺ، الذي يرويه نعيم بن حماد في فتنه: «الْمَهْدِيُّ يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي»[1].

ونحن نستطيع بهذا الشكل أن نتفهم لماذا فعل المنصور ذلك؟ إنها السياسة بالفعل، وينقل عن المنصور أنه كان يقول في مجالسه الخاصة: والله لا مهدي آل البيت مهدي، ولا ولدي -أيضًا- مهدي؛ لكن نحن نقاوم هذا بهذا! وللأسف الشديد فإن موضوع المهدي استخدم عبر مئات السنين بطرق مقيتة جدًّا، قبل عدة أشهر ظهر أحد الشعراء في القطيف يروج لفكرة خروج المهدي، وبأنه من الممهدين لخروجه، وراح ينشر دعوته في المجتمع، وحصلت على قبول جيد في وسط بعض الشباب على الرغم من الجهود المبذولة في مقاومتها من قبل بعض رجال الدين.

ونحن بالطبع على يقين تام كمسلمين بخروج المهدي

(١) الفتن/ ٢٢٧.

المنتظر، وهناك أحاديث مستفيضة حول خروج المهدي موجودة في كتب الحديث، لكن الذي ننكره هو استغلال الموضوع وتأويل الأحاديث لأهداف شخصية، والاغراق في علامات خروجه، فموعد خروجه لا يعلمه إلا الله، ويجب أن يعرف القارئ أن فكرة وجود رجل يحقق العدالة على وجه الأرض هي فكرة عالمية آمنت بها الديانات السماوية وغير السماوية، وقد أوضح الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسِل أن العالم في انتظار مصلح يوحِّد العالم تحت علم واحد وشعار واحد.

هناك مشروبٌ، أيها القرّاء، ككوب القهوة، لكن المواد التي يتكون منها ليست السكر والماء، بل الشعوذة والخداع واستغلال ظواهر معينة واستخدام العلم أيضًا، والنتيجة هي الكرامات بل يتعدى الأمر إلى أكثر من ذلك.

من الممكن عرض العديد من القصص التي تبين كيف كان الناس يعتقدون في الأصنام بأنها ترزقهم وتراهم وتعاقبهم وتقيهم المصائب والنوائب، ولا فرق في ذلك بين الحضارة المصرية أو اليونانية أو الهندية أو غير ذلك، فعلى سبيل المثال، قصة زليخا مع يوسف عليه السلام، عندما أرادت من النبي يوسف عليه السلام أن يفعل بها الرذيلة، فاستعصم عليه السلام فالتفتت إلى صنم في غرفتها كانت تعبده فغطته بقطعة قماش كي لا يراها وهي تمارس الرذيلة! نفس المبدأ الذي مارسته زليخا مع صنمها يمارسه اليونانيون تجاه زيوس،

والبابليون تجاه مردوك، يقول الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين: «إن زليخا لما همت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها، فقال يوسف: مالكِ، أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيي من مراقبة الملك الجبار»[١]، بهذا الشكل كان يتعامل المصريون مع أصنامهم، وبناءً على ذلك نخرج بملحوظة جيدة لا تخفى على القارئ أن أهل مصر كانوا يعبدون الأصنام وبجهود النبي يوسف عليه السلام خرجوا من عبادة الأصنام إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، إلا أنهم بعد وفاة النبي يوسف عليه السلام رجعوا إلى أصنامهم لعبادتها.

تذكر مجلة المقتبس حول التراث اليوناني، سنقوم بذكر هذا المقطع الجميل: «كان اليونان يرجون من آلهتهم أعمالًا كبيرة تلك الواجبات والأعياد والاحتفالات، فكانت المعبودات تحمي عبدتها وتسبغ عليهم برود العافية والغنى والنصر وتقيهم المصائب والنوائب التي يتوقعون نزولها ترسل علامة من لدنها يفسرها الناس. وهذا ما كان يدعى بالفأل. قال هير ودنس: كان إذا اقتضى لإحدى المدن أن تمتحن ببعض الخطوب يتقدم لها على ذلك علامة في العادة. ولقد تفاءل أهل شيو (صاقز) تفاؤلًا دلّهم على ما ينالهم من الهزيمة فلم يرجع من مئة فتى بعثوا بهم إلى دلفيس يترنمون وينشدون سوى فتيين وهلك سائرهم بالوباء. وعلى ذاك العهد أنفض سقف مدرسة المدينة على أطفال كانوا يتعلمون القراءة،

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٣٨٥.

فلـم ينجُ منهم سـوى طفل واحـد وكان عددهم مئة وعشـرين. هذه هـي الإمـارات التي قدم الأرباب إرسـالها على أبنـاء يونان تنذرهم وتبشـرهم. ولقد كان اليونانيون يرون الأحلام والطيور التي ترفرف في السـماء وأحشـاء الحيوانات التي يتقربون بهـا لأربابهم بل وكل مـا يقـع نظرهـم عليه مـن الزلزال والكسـوف إلى عطسـة يعطسـها المـرء – يرون كل هذه الأمور الطبيعية إمارات إلهية فيها سـعادتهم وشقاؤهم، ففي حملة صقلية بينما كان نيسياس القائد الأثيني يركب جيشـه المنهزم في السـفن أوقفه خسـوف القمر، فظـن أن الأرباب بعثـت بهذه العجيبـة تنذر الأثينيين ألا يتموا ما بدؤوا به من الأعمال الحربية فاضطر نيسياس إلى الانتظار سبعة وعشرين يومًا وهو يقدم القرابين تسـكينًا لغضب الأرباب. فسدّ الأعداء في هذه الفترة ميناء المدينة وحطموا أسـطولها وبدّدوا شـمل جيشـها. ولم يَرَ الأثينيون لمـا بلغهم النبأ سـوى أمر واحد نجوا من أجله نيسـياس، وذلك أنه كان عليـه أن يعـرف أن اختفاء القمر بالنظـر إلى جيش منهزم علامة حسـنة. وفي غضـون العـودة المعروفة بعودة العشـرة آلاف خطب القائد كسـينوفون في جنـده، فلما انتهى إلى هذه العبـارة: لنا الأمل الوطيد أن نرجع والمجد أليفنا بمعونة الأرباب، عطس أحد الأجناد على الأثر، فأخذ الجيش يهتف ويضرع إلى الرب على أن بعث لهم الفـأل فهتف كسـينوفون: إلا فلننذر بتقديم ضحايـا لزيوس إذ بعث إلينا ما نتفاءل به بيننا نحن نتفاوض في سلامتنا»[1].

(١) المقتبس ١٩/ ٢٠.

يذكـر لنا التاريـخ أن (كولومبـوس-Columbus)[1] اسـتعمل الخداع للوصول إلى هدفه، عندما وصل إلى الجزر الجامكية في عام ١٥٠٤م، تذمّر منه سكان المنطقة بسـبب الطعام، فاستعمل معرفته بالخسـوف الـذي سـيحصل لإرهـاب الهنـود، فأخبرهـم أن الآلهة غضبت عليهم وأن القمر سيختفي بسبب عدم إكرامهم الضيف، لقد نجح كولومبوس في خدعته للهنود وحصل على مراده.

ظهـرت هذه الخدعة عند كولومبوس؛ لأنـه عرف طريقة تفكير النـاس، وهـذا الأمر يتطلـب براعة وحـذرًا بطبيعة الحـال، إذ لو عاش كولومبـوس فـي زماننـا سيسـتعمل أسـلوبًا أكثـر خداعًـا وبراعـة مما استعمله.

تتضـح ضـرورة تأليـف حكايـات لتمريرها للأجيـال حول الكـون كنـوع مـن أنـواع الفضـول المعرفـي، فقـد ذهبـت معظم الحضـارات إلى أن الكون ظهر نتيجة ... بين إلهين، ونتيجة لذلك تعددت الآلهة، وهذا الشيء نشاهده بوضوح في معظم الحضارات اليونانية والبابلية والرومانية والمصرية، فقد أسندوا كل إله لظاهرة كونيـة، كإلـه الرعد والبـرق وإله الحـب والجنس والجمـال وإله البحار وإله الزواج...، وأن نظام الكون بالنسـبة لهم أشبه ما يكون بنظام الدولة الهرمي يرأسـه الحاكم ومن تحتـه الأمراء ثم الوزارء وهكذا دواليك.

---

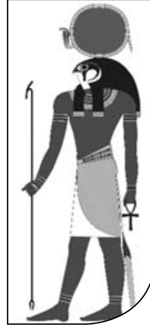
(١) رحالة إيطالي ولد عام ١٤٥١م، وتوفي عام ١٥٠٦م، مكتشف قارة أمريكا.

كان زيوس في الحضارة اليونانية كبير الآلهة، ورع (Ra) في الحضارة المصرية، ومردوك (Marduk) في الحضارة البابلية، من الواضح جدًّا أن هناك علاقة بين نظام الكون ونظام الدولة السياسي وأن الإنسان لم يستطع أن يتحرر من ذلك، فالإله يجلس على قمة الهرم الكوني التي تمثل غرفة التحكم،

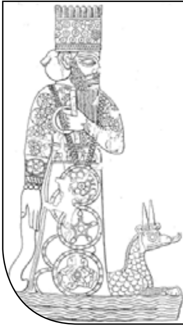


كولومبوس يستغل ظاهرة الخسوف

ظهرت هذه التقسيمات في العقل البشري كنتيجة طبيعية لما يشاهده الإنسان من مجريات الحياة اليومية، فما يفعله الإنسان ليس بأكثر من أوهام تقع في محيط مخيّلته البشرية.



رع



مردوك

المشكلة التي وقع فيها البشر قديمًا هو تقديم إجابات لكل شيء وإسناد الغموض للآلهة أو الشياطين كمحاولة لإشباع

الفضـول البشـري، وعلى الرغـم من ذلك كانت هنـاك محاولات لتقديـم مفاهيـم ذات دقـة متزايـدة تعتمد على أبحـاث وتجارب، فتاريخ العلم سلسـلة طويلة من الصراعات الفكرية التي ربما راح الكثيـر من ضحاياهـا، وكمثال على ذلك يقـول الطبيب (أبقراط- Hippocrates)[١]: «يظـن النـاس أن الصرع شـيء مـن عند الآلهة، وهـذا فقط لعجزهم عن فهمه، ولكنهم إذا درجوا على وصف كل ما لا يفهمونه بأنه من عند الآلهة فلن تكون هناك نهاية للأشياء التي من عند الآلهة»[٢].

تساءل أبقراط: هل مرض الصرع حقًّا هو بسبب الآلهة، كان عليـه أن يتبـع منهجًا علميًّا حتى لـو خذله هذا المنهـج فيما يعتقد النـاس به، ليس فقط ذلك، حتى لـو كان لا يتفق مع رغبته، وهكذا نجـح أبقراط في تفسـير سـبب الصـرع، ورغم أن الطـب كان في مرحلة طفولته والأمراض تفتك بالبشـر آنـذاك فهي محاولة رائعة على أثرها تحسـن الطب واكتشـفت أسـباب الكثير من الأمراض وأصبحنا قادرين على مواجهتها بدلًا من الاستسلام لها.

إن النقطة الجوهرية في تفسير أبقراط للصرع أنه لا علاقة له

(١) طبيب يوناني، ويلقب بأبي الطب ولد عام ٤٦٠ قبل الميلاد، وتوفي عام ٣٧٧ قبل الميلاد، أخرج الطب من ظلماته وهيمنة السحر والأساطير التي لا ثمرة منها إلى منهج يقوم على العلم والتجربة، فالأمراض لها علل طبيعية لا علاقة لها بالآلهة أو الشياطين.

(٢) عالم تسكنه الشياطين/ ٣٧.

بالآلهة أو الجن، ومن الغريب أننا نعيش في هذا القرن ونتعامل مع الصـرع –وبالخصوص فـي مجتمعاتنا العربية التي سـيطرت عليه ثقافـة الجن– أنه بسـبب الجـن، إن العلاقة بين الصـرع والجن لا تتوافق مع الأبحاث العلمية؛ لذا فهي ضعيفة جدًّا بل معدومة، إنني أتعاطـف مع هؤلاء المرضى بطريقة التعامل معهم لإخراج الجن، فيتعرضون للضرب المبرح كي تخرج الجن والأرواح الشريرة من أجسـادهم، ويذهب الأمر إلى أسوأ من ذلك فيمارس معهم أبشع أنـواع الجرائم الأخلاقية والتعذيب، ومما يؤسـف عليه أن هؤلاء موجـودون في مجتمعنا والنـاس تقصدهم ليلًا ونهارًا وخاصة من النساء، كل هذه الأشياء الإجرامية تفعل من أجل إخراج الجن من المريض، وهذه النتائج ليست مفاجئة حقًّا، فالجهل يفعل أكثر من ذلك بكثير.

إن فكـرة تلبس الجـن والاتصال بهم هي فكرة غير صحيحة إطلاقًـا، ذلك أن عالم الجن غير ملموس بالنسـبة لنا نحن البشـر، وكأنـه غير موجود فـي حياتنا على الإطلاق، هـذا العالم لا يحيط بأحوالـه إلا اللـه سـبحانه وتعالـى، وهنـاك معجـزات اختص بها الأنبيـاء في تواصلهم مع الجن كالنبي سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحتى هذه اللحظة لم يسـتطع العلم اكتشاف طريقة أو جهاز معين نستطيع أن نتواصل بواسطته مع هذه المخلوقات غير المرئية.

تخمينـي الشـخصي أن الجن كائنات معقـدة جدًّا تعيش في

أبعـاد زمانيـة ومكانية غير التي نعيش فيها نحن البشـر وهي الثلاثة الأبعـاد المكانية والبعد الزماني، وهي في درجة ليس من الصعوبة تخيّلهـا وحسـب، بل من الاسـتحالة فعـل ذلك حتى علـى كتّاب الخيـال العلمـي، وما يحـدث في مثل هـذه الشـروحات أو أفلام الخيال العلمي التي تتناول موضوع الجن أو الأرواح الشريرة، هي ضيـق خناق لهـذا العالم وخيـالات لا أكثر من ذلـك، والواقع هو خلاف ذلك، ولسـنا هنـا في صدد أن نناقش هـذه الأبعاد المكانية والزمانيـة وتلك القدرة الخارقة التـي يملتكها الجن نتيجة وجوده في هذه الأبعاد غير المرئية بالنسـبة لنا نحن البشـر، نحن في حالة جهـل فظيـع في ذلك العالم ومـا يحدث فيه، وهـذا أمر حكيم في عدم شـعورنا بوجود هـذه المخلوقات وغيرها مـن المخلوقات، لهـذا مـن غير المعقول أن نسـتغل جهلنا بذلـك العالم ونعيش في حالـة من الخوف من المخلوقات غيـر المرئية لأنها عالـم مجهول بالنسبة لنا نحن البشر.

الشيء المؤسـف أن قصص الجن والأرواح الشريرة رائجة بشكل كبير حتى هذه اللحظة، والذي يزعج أكثر من ذلك كله بكثير أن هـذه القصص تتداول ليس في مجالس العامة فقط، بل تشـاهد الكثيـر من المجالس يحضرهـا أصحاب شـهادات عليا وأعرفهم شـخصيًّا يتكلمون حول قصص وروايات التلبس بالجن والبيوت التي تسـكنها الجن وزواج البشـر بالجن وكأننا نعيش في أسـاطير

زواج الآلهة في الحضارة اليونانية، يتكلمون باعتقاد قوي لذلك.

والشـي الـذي يجلـب الضجر، أن هنـاك من يقـول إنه رأى الجـن ويتكلـم معهـم وبالطبع قـد أجرى معهـم بعـض اللقاءات حول سوق الأسهم في إحدى المقاهي المنتشرة في القطيف وهم يجلسـون على الطاولة لشرب الشاي بعد الغداء، الناس بالطبع في جميع الأزمنة تمر بهلاوس بصرية نتيجة الثقافة السائدة التي تصل إلـى مرحلة السـيطرة على الدمـاغ من خلال قوة الإيحـاء، فقديمًا مثـلًا كانـت قصـص (الجنيـة) التي تسـكن فـي العين منتشـرة في قرى القطيف، و(الجني) الذي يسـكن في النخيل ويسـمى بـ(أبي دعيدع) منتشـرة أيضًا، والسـبب يعود إلى الثقافة السـائدة في تلك اللحظـة حول العيـون، فالقديح مثلًا يوجد بهـا الكثير من العيون، فكانـت مثـل هـذه القصص سـائدة، وكتّـاب الروايات والشـعراء يسـاعدون للترويج لمثل ذلك، أما اليوم فقد دفنت العيون ودفنت معها أساطيرها ولم يعد الكتّاب أو الشعراء يذكرونها.

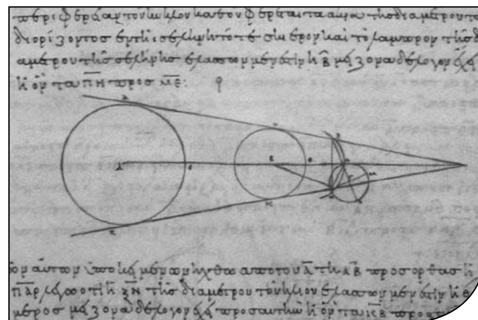
إن هذه القصص التي نسمعها قديمًا وحديثًا حول الجن هي قصـص غير صحيحة، نبعت من ثقافة سـائدة فـي منطقتنا، وهناك البعض اسـتغل هذه الثقافة وعمل جاهدًا علـى عدم موتها، مقابل آلاف من الريالات تدفع له لإخراج الجني من الإنسان.

فـي السـنوات الآخيـرة ظهـر أحد الأشـخاص علـى قناة شـهرزاد يدعي أنه من الروحانيين الذين يتعاملون بالجن، الكثير

من بيوت القطيف إن لم يكن معظمها قد شاهدت هذا الشخص، معظم المتصلين كانوا يعانون من أمراض نفسية، وكان يقنعهم بأنها من أعمال السحر أو الجن وما شابه ذلك، وفي هذه الأيام للأسف الشديد انتشرت هذه المحطات وأصبحت سلعة للاسترزاق.

نحن لا ننكر هذا العالم، فمن الكفر أن ننكر هذا العالم وقد ذكره الله في كتابه، لكن ما ننكره هو استغلال هذا العالم المجهول الذي أصبح سلعة جيدة تفوق أرباحه أرباح أولئك الذين يتداولون في سوق العقار أو الذهب.

وعودة إلى محور بحثنا، وكمثال جيِّدٍ آخر، عاش الفيلسوف اليوناني أرسطارخوس (Aristarchus) قبل الميلاد بثلاث مئة سنة، درس خسوف القمر وكسوف الشمس وكان على يقين تام أن الآلهة لا علاقة لها بأمر الخسوف، لكن الذي له علاقة بالأمر هو ظل الأرض عندما يخيم على القمر، وجد نفسه أمام علاقات كونية جديدة وخرج بحقيقة جريئة جدًّا أهم من ذلك مخالفًا بها

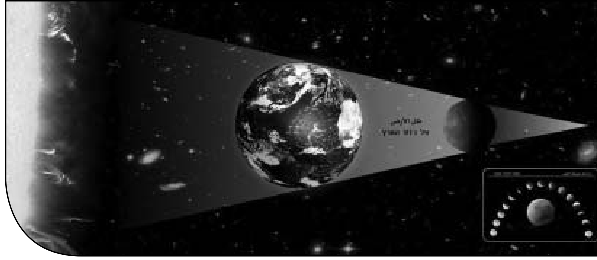


الكثير من الفلاسفة وهي المركزية الأرضية التي اعتقد بها أرسطو والكثير من الفلاسفة بأن الأرض مركز الكون، وهذا غير صحيح،

بل هي كوكب صغير يدور حول الشمس.

إن فكرة المركزية الأرضية نشأت من جهل الإنسان بحجم هـذا الكـون الواسـع فـي فتـرة كان فيها علـم الفلك فـي مرحلة طفولتـه، يقول المثل: (ما وراء عبّادان قرية)[1]، اعتمد هذا المثل علـى نتيجة ضيقة ذلـك أن البحر كان وراء عبّادان وتوهموا أنه لا توجد قرية بعد هذا البحر.

ربما يشـفق الإنسان على نفسه كثيرًا في وقوعه في مثل هذه الأوهـام، فرعون مثلًا تخيّل أنه حكم العالـم بحكمه لدولة مصر، في وقـت لـم يكن يعلـم أن هنـاك ما هـو أجمـل مـن مصـر بكثيـر، لـم تكـن فـي تلـك



الفتـرة اكتشـفت القارات السـبع، ربمـا كان العالـم لا يتعدى قارة آسـيا وأجزاءً من قارة أوروبا، إن الأشـياء عندما تكتشـف في حياة الإنسـان يشـعر بمدى تلـك الحماقة التـي يفعلها قبل ذلـك، ماذا سـيفعل فرعون لو بعث وشـاهد جمـال جزيرة بوكت فـي تايلاند أو جزيرة هاواي في أمريكا، وماذا عن غروب الشـمس في جزيرة سانتوريني اليونانية؟ سيعلم حينها ما هو جمال مصر!.

(١) راجع هذا المثل في كتاب مجمع الأمثال للميداني.

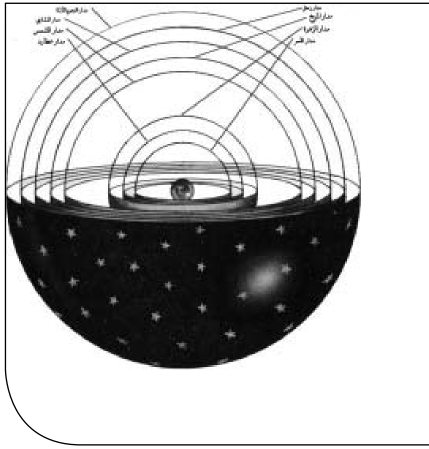
يتوهـم الضفـدع أن العالم بأكمله هو هـذا البئر الذي يعيش فيه، ذات مرة دخلت عليه سـمكة فسألها: من أين أتيتِ؟ قالت له: مـن البحر! قال لها: البحـر بحجم البئر! وضعته في فمها ليشـاهد البحر! عرف الضفدع آنذاك حجم إمبراطوريته! بمثل هذه الطريقة يتعامل الإنسان مع الكون.

تخيّلـوا أيها القرّاء وأنتم تنظرون إلى السـماء في ليلة صافية إلـى تلـك النجـوم، مـا عليـك فقـط إلا أن تذهب علـى بعد بضع عشرات الكيلومترات من القطيف في إجازتك الأسبوعية وتدخل الصحراء في ليلة محاق[١] بسيارتك وتنام على ظهرك، المهم أن لا تكون عاشـقًا؛ لأنك لن ترى شـيئًا! موقف يجعلك تشعر بالخجل أن تقول إن الأرض مركز الكون، وأن كل شيء خلق في الكون من أجل الإنسان، ما الذي تتوقعوه في وجود المليارات المليارات من النجوم والكواكب، حقًّا هناك عوالم لا نعلم عنها شيئًا، وقد تكون حضارتهـم متطورة أكثر مما نتخيّل، بل حتى كتَّاب الخيال العلمي يصعب عليهم تخيّل ذلك.

هـذه الفرضيـات قـد لا تـروق لنا ولا تتناسـب مـع غرورنا الـذي يخبرنـا بـأن النجـوم والكواكـب بأكملها تتحـرك من أجل الإنسـان، المنجمـون يحدِّقـون في النجـوم فتخبرهـم أن الخليفة المعتصـم سـيهزم في الحـرب، أو أن زيدًا من الناس سيخسـر في

(١) لحظة ولادة القمر.

سـوق الأسهم، أو سيولد له مولود أو يموت، أليست فكرة سخيفة وغبية في الوقت نفسـه، نجوم يفوق حجمها حجم الأرض بآلاف المـرات تعطي أهمية لمثل هذه الأمور التافهة، لماذا نضلل عقولنا بمثل ذلك في إثبات واقعية هذه العلوم، ربما لأنها تغلّف بكلمات أنيقة ولغة فلسـفية ضبابية معقدة تبهر الجمهور، ونظل ندافع عنها لا لكونهـا صحيحة بل لرغبتنا أن تكون كذلك.



نموذج بطليموس الذي يصوّر الأرض أنها مركز الكون

أرسـطو، أفلاطـون، أوغسـطين، الكثيـر من الفلاسـفة من مختلف الحضارات، اعتقدوا بالمركزيـة الأرضية، بطليموس[1] وضع لنـا نموذجًا يصـور فيه هذه الآراء وظلَّ هذا النموذج لخمسـة عشـر قرنًا حتى أتـى كبورنيوكـس[2] وأزاح الأرض مـن المركز، لم

(١) فلكي مصري يوناني عاش في القرن الثاني الميلادي، اعتقد بأن الأرض ثابتة، وأن الشمس وبقية الكواكب تدور حولها في مسارات دائرية، كان نموذجًا مقنعًا، وقد بينا سابقًا أن حركة الشمس حول الأرض هو الوضع الذي يشاهده الإنسان، ظل النموذج إلى أكثر من ١٥٠٠ سنة، حتى أتى كوبرنيوكس وأزاح الأرض من المركز ووضع الشمس بدلها.

(٢) أعيد وأكرر أن هناك علماء مسلمين وغير مسلمين قبل كوبرنيوكس قالوا بذلك كابن الشاطر الدمشقي وغيره من علماء المسلمين، كذلك الفيلسوف

يكن اعتقادهم نابعًا من أسباب علمية، كانت أسبابًا تأملية وروحية لا تتصل بالعلم مطلقًا، فقد غاب عن ذهن هؤلاء الفلاسفة أن الأرض ليست سوى غبرة كونية تدور حول نجم ينتمي إلى مجرتنا اللبنية التي تحوي المليارات المليارات من النجوم، وما يزيد الموقف صدمة وغرابة إذا علمنا أن هذه المجرة ليست سوى واحدة من ضمن المليارات المليارات من المجرات، فالأرض بحسب المقاييس الكونية لا تشكل في الكون شيئًا فهي ليست بأكثر من غبرة كونية معلقة في شعاع الشمس[١]، ولو اختفت من الكون سيستمر الكون ولن يشعر باختفائها، فالأرض في الكون تشكل أقل من نقطة ماء في سبعة أبحر، فكم نصيبك أيها الإنسان المسكين من هذه النقطة!.

ورغم ألمعية الكثير من العلماء فقد وقعوا في أخطاء جوهرية، ومن الخطأ أن تظل أفكارهم تهيمن علينا ولا نستطيع تجاوزها، أرسطو مثلًا له العديد من الأخطاء، وهذه النظريات التي وقع فيها لأنها لم تبنَ على الصعيد التجريبي، بل النظري كما أوضحت سابقًا، ولتقريب الصورة أكثر فقد قلت: إن أرسطو اعتقد أن الأجسام الثقيلة أسرع في سقوطها إلى الأرض من الأجسام الخفيفة وظلَّ هذا الاعتقاد سائدًا لألفي سنة كحقيقة غير قابلة

اليوناني أرسطاخوس إلا أن نظرياتهم قد ماتت، ولسنا في صدد أن نناقش أسباب ذلك، فالموضوع يستحق أن يناقش بإسهاب كبير وليس في حاشية سفلية من هذا الكتاب.

(١) الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاث مئة ألف مرة.

للنقـاش، لـم يـرق لجاليلو ذلك فأثبـت لنا بالتجربة أن الجسـمين يصـلان للأرض في وقـت واحد في حـال انعدام مقاومـة الهواء، ولا غرابـة إذا أثبـت لنـا جاليلو أن الرصاصة والريشـة فـي حالتي سـقوطهما إلـى الأرض يصلان في نفـس الوقت في حـال انعدام مقاومة الهواء، لقد صدق جاليلو وأخطأ أرسطو.

لقد بنيت أفكار جاليلو على الصعيد التجريبي، فقام بدحرجة كرات مختلفة الوزن على سطح مائل، كمحاولة منه لقياس الزمن، وبينت التجربة أن سـرعة كل جسم تتزايد بمعدل واحد، مهما كان وزنه، وهناك رواية مشكوك في صحتها أنه رمى أثقالًا من برج بيزا المائل فوصلت إلى الأرض في نفس الوقت تقريبًا، وخلاصة الأمر أن جاليلو أثبت خطأ أرسـطو، وهنـاك مجموعة كبيرة من الأخطاء التي وقع فيها أرسطو، لقد تزوج مرتين لكنه لم يكلف نفسه العناء بعدِّ أسنان إحداهما ليتأكد من مقولته حول أسنان المرأة والرجل، فقد اعتقد أن عدد أسنان المرأة أقلّ من الرجل.

ولتبسـيط أكثر حول تجربة جاليلو، سـنقوم بإلقاء جسم من ارتفـاع ٥٥م مثلًا، وهو ارتفاع بـرج بيزا المائـل تقريبًا، وللتقريب سـنقول: إن الجاذبية تساوي ($g=10\ m/s^2$)، ستكون سرعة الجسم عشـرة أمتـار فـي الثانية بعد مـرور ثانية، وعشـرين مترًا فـي الثانية بعـد مرور ثانيتين، وثلاثيـن مترًا في الثانية بعد مـرور ثلاث ثوانٍ، وهكذا سـيتزايد بمقدار ثابت بغض النظر عن وزن الجسم، كذلك

سنحصل على نتيجة مشابهة في حال السطح المائل الأملس علمًا أن التسارع في السطح المائل الأملس يعتمد على جيب الزاوية، وهو بالطبع يختلف عن التسارع في السقوط الحر، المهم أن الكرة ستتزايد بتسارع ثابت بغض النظر عن وزنها، فلو قمنا بدحرجة كرات مختلفة الوزن في سطح مائل أملس سوف تصل في نفس الوقت.

ولتوضيح أكثر، نستطيع حساب تسارع الجسم الذي يعرّف بأنه مقدار تغير السرعة بالنسبة للزمن من خلال قانون نيوتن الثاني:

$$\Sigma F=ma$$

الحرف اليوناني (Σ) وينطق (سيجما) ومعناه مجموع، (m) كتلة الجسم، (a) تسارع الجسم، بمعنى عندما تؤثر مجموعة من القوى على جسم فإنه سيكسب تسارعًا مقداره (a)، حيث إن مجموع القوى يساوي الكتلة مضروبة في التسارع.

ففي حالة السقوط الحر للأجسام تأخذ المعادلة الشكل التالي:

$$\Sigma F=ma$$

$$mg=ma$$

$$a=g$$

أما في حالة السطح المائل الأملس الذي يميل بزاوية

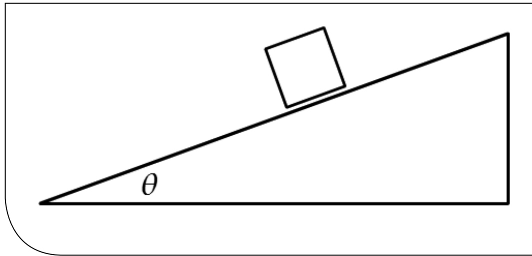
مقدارها (θ) وتنطق (فيتا)، تأخذ المعادلة الشكل التالي:

$$\Sigma F=ma$$

$$mg \sin\theta=ma$$

$$a=g \sin\theta$$

الصعوبة التي تواجهنا في عدم تصديق وصول الأجسام الثقيلة والأجسام الخفيفة في نفس الوقت، وسأختار الرصاصة والريشة، لأننا دائمًا نعيش في احتكاك الهواء، فلو كنا نعيش في الفراغ لصدقنا ببساطة أن الرصاصة والريشة تسقطان في نفس الوقت.



فالمهمة الحقيقية للعلم هي البحث عن الحقيقة وتجاوز مرحلة الرهبة التي نشعر بها تجاه الأساطين، وهذا ما يجعل العلم يتطور شيئًا فشيئًا، والعلماء الذين لعبوا دورًا كبيرًا في التاريخ البشري كانت لهم أخطاء فظيعة كأرسطو وأفلاطون وبطليموس وكيبلر وداروين وأينشتاين، ولا غرابة إذا اعترف بعضهم باقتراف هذه الأخطاء كالثابت الكوني الذي وضعه أينشتاين وقال فيه إنه أكبر خطأ ارتكبه في حياته بعد أن بيّن له هبل أن الكون يتمدد، فالعلماء بشر يصيبون ويخطئون، وهذه ظاهرة

طبيعية.

نستطيع أن نستنتج من الكلام الذي قلناه إن العلم يتجاوز جميع الأشخاص، وهيمنة آراء العلماء يجب علينا أن نتجاوزها، وإذا لم نطبق هذا القول فيجب علينا أن نخضع لهيمنة هذه الآراء ولا يجوز لنا مناقشتها.

إن أكثر ما يزعج غير العلميين عندما يقدم العلم تفسيرًا معينا لظاهرة كان يعتقد فيها الناس أنها تقع في محيط إله الفجوات، تلك الأشياء التي لم نستطع أن نفهم لها تفسيرًا بعد، أو تحدث تحت سيطرة الشياطين أو ما شابه ذلك.

إنني أعتقد شخصيًا وبقناعة تامة أن هذا الكلام هو سبب رئيس في الانتكاسات الفكرية التي تحصل في المجتمعات البشرية، فهدف العلم هو تحرير العقل من قيوده المكبل بها التي نشأ عليها والتي تقبّلها دون فحصها، وللأسف الشديد هناك قوة مضادة تعمل كفيروس عنيف ينتشر بسرعة في المجتمعات البشرية تحاول أن تصطدم بقوة العلم وتحاول أن ترجع العالم إلى الوراء، فالتحدي الرئيس للعلم هو مكافحة هذا الفيروس وكبح جماحه من الانتشار وإزالته من عقول الناس.

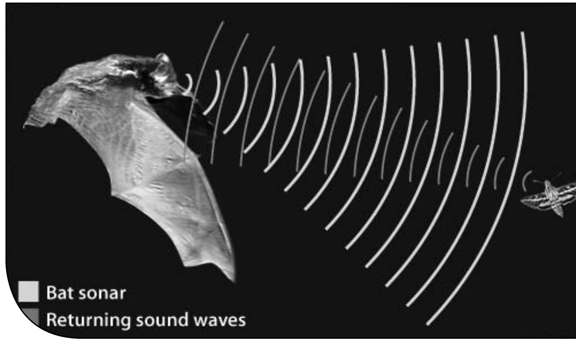
هناك نظرتان نستطيع أن ننظر بهما إلى الكون من حولنا، النظرة الأولى تتمثل في الثقافة الموروثة، أما النظرة الثانية تقوم على

أساس الأدلة العلمية، سأقوم بضرب مثالين توضيحيين حول ذلك.

المثال الأول، الخفاش كان يعتقد فيه أنه يمتلك قوة خارقة؛ لأن الناس عجزت عن تقديم تفسير علمي لرؤية الخفاش في الليل، وهذا هو الواقع بالضبط تجاه أيٍّ ظاهرة يغيب عنها التفسير العلمي، إلا أن العلم يعطينا مفاهيم جمالية لا يسعنا إلا أن نتقبلها، وافقت رغبتنا أم لم توافق، وهو أن الخفاش لا يملك قوة خارقة بل يقوم بإصدار أمواج فوق صوتية.

والموجات فوق الصوتية هي الموجات التي ترددها أكثر من ٢٠ ألف هيرتز، وهذه الموجات لا يستطيع أن يسمعها الإنسان، ولها استعمالات كثيرة في مجال الطب، كمعرفة جنس الجنين، إضافة إلى استعمالها لقياس المسافات، طبقًا للقانون المعروف أن المسافة تساوي السرعة مضروبة في الزمن:

$$d=vt$$



حيث الحرف (d) يمثل المسافة، الحرف (v) يمثل السرعة وبالتحديد سرعة الصوت، الحرف (t) يمثل الزمن. وسنحتاج لقسمة الزمن على العدد اثنين

وذلك بسبب الرحلة التي يستغرقها الصوت في الذهاب والعودة

$$d=\frac{vt}{2}$$

المثال الثاني، تخيّلوا معي أيها القرّاء، ذلك الإنسان القديم وهو يشاهد سبعة ألوان جميلة جدًّا مرتبة بترتيب واحد تظهر في السماء تبدأ من اللون الأحمر وتنتهي باللون البنفسجي وتقع بينهما خمسة ألوان مرتبة على التوالي: البرتقالي، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلي، لم يستسلم الإنسان لهذا الغموض الذي يحيط بهذا اللغز، فحاول وضع نظرياته لفك هذا اللغز، ونتيجة لذلك ظهرت لنا حلولٌ كثيرة، ما يهمنا هي تلك النظرية التي وضعها الكتاب المقدس من أن قوس قزح ظهر بعد طوفان نوح عليه السلام وهو توقيع عهد الله مع الإنسان كي لا يحدث طوفانٌ آخر، لم يكن هذا الحل الذي يذكره الكتاب المقدس سوى كلامٍ نظريٍّ ولا يقدم لنا شرحًا مقبولًا لهذه الظاهرة.

جاء في سفر التكوين الإصحاح التاسع: «وَقَالَ اللهُ: هذِهِ عَلاَمَةُ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَنَا وَاضِعُهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ كُلِّ ذَوَاتِ الأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الَّتِي مَعَكُمْ إِلَى أَجْيَالِ الدَّهْرِ. وَضَعْتُ قَوْسِي فِي السَّحَابِ فَتَكُونُ عَلاَمَةَ مِيثَاق بَيْنِي وَبَيْنَ الأَرْضِ. فَيَكُونُ مَتَى أَنْشُرْ سَحَابًا عَلَى الأَرْضِ، وَتَظْهَرِ الْقَوْسُ فِي السَّحَابِ، أَنِّي أَذْكُرُ مِيثَاقِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ فِي كُلِّ جَسَدٍ. فَلاَ تَكُونُ أَيْضًا الْمِيَاهُ طُوفَانًا لِتُهْلِكَ كُلَّ ذِي جَسَدٍ. فَمَتَى كَانَتِ الْقَوْسُ فِي



السَّحَابِ، أُبْصِرُهَا لأَذْكُرَ مِيثَاقًا أَبَدِيًّا بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ فِي كُلِّ جَسَدٍ عَلَى الأَرْضِ»[١].

في عام ١٦٦٦م، استطاع نيوتن أن يقدم لنا تفسيرًا مقبولًا لظاهرة قوس قزح، سنذكر ما كتبه نيوتن في إحدى تجاربه، كما جاء في كتاب تطور الفيزياء لألبرت أينشتاين، «حيث كنت في ذلك الوقت مكرسًا نفسي لصقل العدسات البصرية غير الكروية، حصلت على منشور زجاجي مثلث لإجراء تجارب حول ظاهرة الألوان الشهيرة، فبعد أن تم تعتيم الغرفة وإجراء فتحة صغيرة في مصراع النافذة يسمح بمرور كمية ملائمة من ضوء الشمس، قمت بوضع المنشور أمام الفتحة بحيث ينكسر الضوء على الجدار المقابل، كنت فرحًا أتأمل الألوان الزاهية والشديدة الناتجة عن ذلك»[٢].

ومن هذه التجربة بيَّن نيوتن أن اللون الأبيض ليس بلون مستقل بذاته بل هو مزيج من سبعة ألوان، إننا اليوم نعرف جيِّدًا أن ضوء الشمس الأبيض مزيج من سبعة ألوان، وهذا ما بيَّنه لنا نيوتن وكنتيجة منطقية حتمية أن هذه الألوان السبعة نستطيع الحصول

(١) سفر التكوين ٩/ ١٢-١٦.
(٢) تطور الفيزياء/ ٧٦.

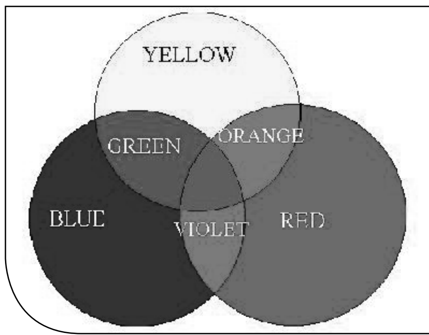
علـى اللـون الأبيض منهـا بعد مزجهـا، وهناك تجربـة جميلة جدًّا تعـرف بقـرص نيوتـن، فبعـد تدوير قـرص دائري يحـوي الألوان السـبعة سـنحصل على اللون الأبيض من هـذا التدوير، وقد كتب نيوتن حول مزج الألون هذه الكلمات:

«تلـك الألوان لا تولد مـن جديد، ولكنها تصبـح مرئية بعد انفصـال بعضها عن بعض، إذ لو مزجت جميعًا من جديد فسـوف تشـكل اللون الأبيض كما فعلت قبل انفصالها، وللأسباب عينها، فإن التحولات الناتجة عن جميع الألوان المختلفة ليست حقيقية؛ لأن الأشـعة المختلفـة إذا ما فرزت من جديد تظهـر نفس الألوان التي كانت لها قبل ائتلافها، وهكذا عندما يتم خلط مسحوق أزرق مع مسحوق أصفر بشكل دقيق يظهر للعين المجردة وكأننا حصلنا على مسـحوق أخضر اللون، مع أن ألوان الجسـيمات المكوِّنة لم تتبدل في الواقع ولكن جرى مزجها فقط، وإذا نظرنا إليها بواسـطة مجهـر جيِّـد نـرى اللونيـن الأزرق والأصفـر مخلوطيـن بشـكل اتفاقي»[١].

ولمزيـد من التحديد والوضوح فإن قوس قزح يتكون نتيجة انكسـار ضوء الشمس أثناء مروره بقطرة المطر، يتكون لنا من هذا الانكسـار سـبعة ألوان مرتبة حسـب الأطوال الموجيـة، فالألوان ذات الأطوال الموجيـة الأطول تذهب نحو نهاية الطيف الأحمر،

(١) تطور الفيزياء/ ٧٨.

أما الأقصر فتذهب نحو نهاية الطيف البنفسجي، فالأحمر هو الأطول والبنفسجي هو الأقصر طولًا موجيًّا، وحيث إن التردد يتناسب عكسيًّا مع الطول الموجي فإن الأحمر هو الأقصر ترددًا والبنفسجي هو الأطول ترددًا، ولكي تكون الصورة أكثر وضوحًا فإننا لا نستطيع تقسيم الضوء ذي الطول الموجي الواحد، بينما اللون الأبيض يمكن تقسيمه إلى ألوان الطيف.



اللون الأحمر يأخذ طولًا موجيًّا ٧٠٠ نانومتر، أما البنفسجي فيأخذ طولًا موجيًّا ٤٠٠ نانومتر، ووحدة النانومتر وحدة صغيرة جدًّا فهي تساوي جزء من مليار جزء من المتر، بمعنى أننا لو قسمنا المتر إلى مليار قسم سيكون طول القسم الواحد نانومتر، وكما أشرنا سابقًا إلى أن التردد يتناسب تناسبًا عكسيًّا مع الطول الموجي، وبقسمة سرعة الضوء على الطول الموجي نحصل على تردد كل طيف، ونحصل على الطاقة بضرب التردد بثابت بلانك، من خلال المعادلة التالية:

$$E=h\upsilon=h\,\frac{c}{\lambda}$$

حيث (E) تمثل الطاقة، (h) تمثل ثابت بلانك وقيمته (6.6×10^{-34} J.S)، والحرف اليوناني (υ) وينطق (نيو) ويمثل التردد، (c)



تمثل سرعة الضوء وتساوي ($3\times10^{8}\ m/s$)، والحرف اليوناني (λ) وينطق (لندا) ويمثل الطول الموجي.

ونخرج في نهاية الكلام بحقيقة واضحة وهي أن قوس قزح ظاهرة طبيعية تحدث نتيجة تحلل ضوء الشمس الأبيض إلى سبعة ألوان، عند مروره بقطرة المطر أو بالمنشور.

ومن هذا المنطلق تساعدنا هذه الأمثلة في فهم التفسير العلمي بدلًا من الاعتماد على التفسيرات الدينية، ربما قديمًا كانت هذه المسائل من اختصاص الدين، لكن العلم بشكل متزايد واجه هذا التحدي الكبير وأجاب بشكل واضح عن كثير من المسائل التي كانت من اختصاص الدين، كسبب الخسوف والكسوف وسبب الزلازل والبراكين، ونتيجة لذلك سبب العلم صدمة كبيرة بالنسبة للمتدينين.

كان لا بُدَّ من وجود مخرجٍ للقفز فوق هذه المشكلة، كانت الحجة التي يتمسك بها المتدينون أن العلم يزودنا بأسباب الوجود، أما الدين فيشرح لنا معاني تلك الأسباب، ومهما كان أمر ذلك، فعندما ننظر عن كثب لبعض النصوص الدينية بصيغة حرفية، يتحتم علينا أن نؤمن أن الأرض ثابتة وأنها تقف على ظهر حوت أو قرن ثور، ويبدو لي أن هناك مخرجًا وحيدًا من هذه الصعوبة

وهـي التأويـل، فالتأويل هو الحـل الوحيد لمشـكلة التعارضات، وهو أسـهل بالطبع من رفض النص الديني، وهي حجة في محلها لكنها لن تكون مقنعة كثيرًا.

اتخـذ العلمـاء موقفًـا سـلبيًّا تجـاه الكتـاب المقـدس، قال أينشـتاين حـول الكتـاب المقـدس: «مـن خـلال قراءتـي للكتب العلميـة العامة توصلـت إلى قناعة بأن أغلـب القصص الموجودة فـي الإنجيل لا يمكن أن تكون حقيقية، وكانـت النتيجة هي حرية التفكير»[١].

ويحـق لنـا أن ننظر أيضًـا إلـى تراثنا الديني، وجـد العلميون أنفسـهم مضطرين لرفـض الكثير مـن الأحاديث بينمـا المتدينون وجـدوا لأنفسـهم مخرجًـا بتأويلها حسـبما يتوافق مـع النظريات العلمية الحديثة، روايات عديدة نكتفي بذكر أربع روايات فقط:

الرواية الأولى: جاء في كتاب تحف العقول عن آل الرسـول للحرّاني أن الحسن بن علي سئل عن قوس قزح، فقال: وأما قوس قزح، فلا تقل قزح، فإن قزح شيطان، ولكنها قوس الله، وأمان من الغرق.

سألت أخي الدكتور أنور آل محمد حول هذه العلاقة، فقال لـي: يمكن إدراك هذه الكلمة من خلال نظرة الشـعوب إلى ظهور

(١) أينشتاين والقضايا الفلسفية لفيزياء القرن العشرين/ ١٥.

القـوس حيث سـمعتُ من بعـض الهنـود وغيرهم أنهـم يعتبرون ظهـور القـوس دلالة على قلة المطر نسـبيًا؛ لأنهـم متعودون على مطـر كثير قد يـؤدي إلى الغـرق. بينما يعتبره أهـل منطقتنا وبعض المناطق الجافة نسبيًا مثل المكسيك أنه بشارة على كثرة المطر.

الروايـة الثانية: في أصـول الكافي عَنْ أَبَانِ بْنِ تَغْلِبَ عَنْ أَبِي عَبْـدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ سَـأَلْتُهُ عَنِ الْأَرْضِ، عَلَى أَيِّ شَـيْءٍ هِيَ؟ قَالَ: هِـيَ عَلَـى حُـوتٍ، قُلْتُ:فَالْحُوتُ عَلَى أَيِّ شَـيْءٍ هُوَ؟ قَـالَ: عَلَى الْمَـاءِ، قُلْتُ: فَالْمَاءُ عَلَى أَيِّ شَـيْءٍ هُوَ؟ قَـالَ: عَلَى صَخْرَةٍ، قُلْتُ: فَعَلَـى أَيِّ شَـيْءٍ الصَّخْرَةُ؟ قَالَ: عَلَى قَرْنِ ثَـوْرٍ أَمْلَسَ، قُلْتُ: فَعَلَى أَيِّ شَـيْءٍ الثَّـوْرُ؟ قَالَ: عَلَى الثَّـرَى، قُلْتُ: فَعَلَى أَيِّ شَـيْءٍ الثَّرَى؟ فَقَالَ: هَيْهَاتَ عِنْدَ ذَلِكَ ضَلَّ عِلْمُ الْعُلَمَاءِ.

الرواية الثالثة: تتعلق بسـبب المدّ والجزر، في علل الشـرائع يـروي الصـدوق عن علي بن موسـى الرضا عن أبيه عـن آبائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه سئل عن المدّ والجزر، ما هما؟ فقال: ملك موكل بالبحار يقال له رومان، فإذا وضع قدمه في البحر فاض وإذا أخرجها غاص.

الرواية الرابعة: حول سبب الزلازل، في علل الشرائع أيضًا، عـن أبـي عبـد اللـه عليه السلام قـال: إن الله تعالـى خلـق الأرض فأمر الحوت فحملتها، فقالت: حملتها بقوتي فبعث الله حوتًا قدر شبر فدخلت في منخرها، فاضطربت أربعين صباحًا فإذا أراد الله تعالى

أن يزلزل أرضًا نزلت تلك الحوتة الصغيرة فزلزلت الأرض فرقًا.

المهـم هنا، كما هو شـأن العلم دائمًا هـو فحص النظريات، من أجل تحديد الرواية الصحيحة من الرواية الخطأ.

أتذكر ذات مرة كنت جالسًا مع أخي الدكتور أنور آل محمد فـي منزله بالآجام، وهو أحد الأعضاء الرئيسـين في جمعية الفلك بالقطيف، سـألته عن الروايات الثلاث السابقة، أجابني: إذا سلمنا بصحة هذه الروايات التي لا يمكن رفضها أو اسـتبعادها بناء على المعنى الظاهري بحسـب المفاهيـم المألوفة عندنا، فإننا يمكن أن نقول: إن تلك الروايات لا يمكن حملها فقط على المعنى الظاهري ولكنها قد تشير إلى معنى مجازي تقريبي. فمثلًا الماء لا يمكن أن نقصر معناه على الماء المادة السـائلة، ولكن وكما أشـارت بعض الروايـات إلـى أن الماء هـو المكون الأسـاس للأشـياء، وبالتالي يمكـن أن يحمـل على المادة الأولية التـي لا تتجزأ والتي لم يصل إلـى تحديدها الإنسـان. وكذلك باقـي الكلمات الـواردة في تلك الروايـات. إذ لو أراد الإمام أن يجيب السـائل بشـيء لم يكتشـف ولا يحتمله عقله فإنه يقربه له بالمفاهيم التي يفهمها. وهكذا الثور والقرن والحوت والصخرة هي مفاهيم لمعانٍ أعمق مما يستوعب السائل ولذلك يتم تقريبها بما يفهم السائل.

والمنهج العلمي في مثل هذه الأمور عدم التسرع في الحكم علـى مثل هـذه الروايات؛ لأنها قـد تحتمل معنى لـم نصل لفهمه

بعد. وأقتبس ها هنا كلمة للشيخ الرئيس ابن سينا يتحدث فيها عن بعض هذه الأمور فيقول: «ما فهمناه أخذنا به، وما لم نفهمه تركناه في سنبله»؛ لأن العاقل لا يتعجل الحكم على ما لا يدرك، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تعادوا ما تجهلون فإن أكثر العلم فيما لا تعرفون»[1]، وكما قال الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون: (قليل من العلم يؤدي إلى الإلحاد، وكثير منه يؤدي إلى الإيمان).

أتذكر أيضًا في حواري معه قبل سنتين الذي نشرته في كتابي (في خطى الناجحين)، سألته هذه المسألة: هناك أناس يمتنعون عن الزواج أو السفر في أيام معينة بتواريخ معينة بصفتها غير محبَّذة، فهل هذا صحيح، وهل هناك بالفعل علاقة بين الأيام وسعادة الإنسان أو نحسه؟ كان جوابه، يمكن القول: إن الكون المتوازن لا بُدّ أن تتأثر جميع ذراته بالذرات الأخرى التي منها الإنسان والكواكب والنجوم وغيرها. ولكن طبيعة تلك العلاقات بين جميع ذرات الكون أو محصلة تلك العلاقات على البشر هي من التعقيد بحيث لا يحيط بها إلا من يحيط بجميع ذرات الكون ويعلم طبيعة تلك العلاقات منفردة ومجتمعة، وهو الله. لذلك لا يمكن التعويل إلا على ما ورد عن طريق الوحي أو ما هو في حكمه.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم/ ٥٥.

قضيــة أخرى غاية في الأهمية أثيرت لقرون عديدة في تراثنا الإسلامي ونتج عنها ما يؤسف عليه صراعات وصلت إلى التكفير والقتـل، أنا لا أتكلـم هنا عن قضايا فلسـفية كمسـألة خلق القرآن التي أثيرت في زمن المأمون العباسي وسجن بسببها الكثير، وكان من ضمن من سـجن الإمام أحمد بن حنبل وضرب بالسـياط، ولا أتكلـم هنا عـن خلافات فقهية كما هو الشـأن العام غالبًا كمسـألة لبس الحجاب والموسـيقى أو ركوب سيارة مظللة، هنا أتكلم عن مسائل علمية كمسألة ثبوت الأرض، فالعديد من علماء المسلمين قالوا بثبوت الأرض على أساس بعض الآيات القرآنية والأحاديث الشـريفة التـي لـم تفهم بشـكل جيِّد، وكتبـوا في ذلـك العديد من الكتـب، لقد انزعـج الكثير مـن العلمـاء نتيجة لذلك، لأننـا اليوم نفهـم جيِّدًا أن الأرض غير ثابتـة وأن الليل والنهار ينتج من دوران الأرض حول نفسـها، وبالطبع الكثير مـن الأمور أيضًا حصل فيها خـلافٌ حادٌّ، ولا أدري إذا كان في هذا الوقت من يقول بذلك، إن الاحتمـال الأكبـر أن نظرية الثبوت سـقطت ولـم يعـد لها قبولٌ في الوسط الديني.

لكـن السـؤال المهم الـذي لا يمكـن تجاهله، هـل العقائد الموجودة في جميع الديانات تخضع لمنهج الاختبار؟ من هنا يبدأ الصراع بين العلميين والدينيين، يسـاعدنا اعتراف الكنيسة بخطئها علـى تفـوق العلم فـي نهايـة المطاف، وعلـى الرغم مـن اعتراف

الكنيسة بهذا الخطأ الذي ارتكبته تجاه جاليلو بعد ثلاثة قرون فهذا بحدٍّ ذاته يعدُّ شجاعة وتقدمًا إيجابيًّا.

يقول هوكنج في كتابه موجز في تاريخ الزمان: «طوال السبعينات، كنت أدرس الثقوب السوداء بشكل رئيس، إلا أن اهتمامي بالأمور المتعلقة بمنشأ الكون ومصيره، عاد فتنبه من جديد سنة ١٩٨١م، عندما كنت أحضر مؤتمرًا عن علم الكونيات، نظّمه اليسوعيون في الفاتيكان. كانت الكنيسة الكاثوليكية قد ارتكبت خطأً فادحًا حيال جاليلو، عندما حاولت سنّ قانون يُثبت نظرية علمية، تُعلن أن الشمس تدور حول الأرض. والآن، وبعد انقضاء قرون عدة، قررت دعوة عدد من الخبراء، لتسترشد برأيهم في علم الكونيات. في نهاية المؤتمر، منح المشاركون مقابلة مع البابا. قال لنا إنه لا بأس من دراسة تطور الكون بعد الانفجار العظيم، ولكن يجب أن لا نتحرى عن الانفجار العظيم نفسه؛ لأن ذلك كان لحظة خلق العالم، وبالتالي من عمل الله. وكنت سعيدًا عندها لأنه لم يكن يعرف موضوع المحاضرة التي ألقيتها للتوّ في المؤتمر-احتمال كون الزمكان متناهيًا ولكنه بلا تخوم، أي إنه لم يكن له بداية أو لحظة معينة للخليقة. ولم أكن أرغب المشاركة في مصير جاليلو الذي كان ينتابني شعور معه بهوية واحدة، وذلك إلى حدٍّ ما، بسبب مصادفة ولادتي بعد ٣٠٠ سنة تمامًا من وفاته»[1].

(١) موجز في تاريخ الزمان/ ١٤٠.

هل يستطيع البشر أن يطبقوا هذا النجاح على أنفسهم؟ يبدو لي من المستحيل أو الصعوبة على أي إنسان فعل ذلك، ذلك أن سلطة الدين أقوى من سلطة العلم، فإذا تعارض الدين مع العلم في مسألة من صلب عقائد الإنسان، فالإنسان يرمي النظرية العلمية جانبًا، لكن إذا توافقت النظرية مع عقائد الإنسان يجد لها قبولًا.

إن نظرية التطور هي من نوع النظريات التي أحدثت جدلًا كبيرًا خلال القرن المنصرم وما زالت حتى هذه اللحظة، فيذكر واينبرغ هذا الجدل الحادّ في كتابه حلم النظرية النهائية أنه قدم إلى تكساس (Texas) ودعي إلى مجلس شيوخ تكساس لإبداء رأيه في إصدار قانون يجرّم تعليم نظرية التطور؛ لأنها تتعارض مع نظرية الخلق، لم يكن جوابه مقبولًا، لكنه يقر بأنه ربح المعركة؛ لأن كتب المدارس الثانوية في تكساس ملزمة لا مخولة بتعليم نظرية التطور.

أنا شخصيًّا لا أعتقد أن نظرية التطور تتعارض مع وجود الله، وهذا التعارض الذي يتصوره الكثير هو تصور غير منطقي، فالله سبحانه وتعالى خلق قوانين الطبيعة وأطلق العنان لهذه القوانين حتى كونت الكون، فالقوانين هي إرادة الله سبحانه وتعالى، التي سمحت بظهور كائنات مثلي ومثلكم، أيها القرّاء، ومما لا شك فيه أن هناك مصممًا ذكيًّا يقف خلف التطور.

إن داروين (Darwin) نفسه لم يناقش أصل الحياة في كتابه

أصـل الأنواع بـل ناقش تطـور الكائنات الحية وهـذه نقطة جديرة بالاهتمام، كل ما أراد داروين معرفته أن يفك لغز التنوع في الكائنات الحية، كما فعل نيوتن عندما فك لغز النظام الشمسي، وعلى الرغم أن هنـاك منتقديـن لنظرية داروين منهم من تميز بأسـلوب علمي وبعضهـم لـم يتميز بذلك كقولهم إن الهدف الأسـاس من النظرية هي تخليد الطبقة الاجتماعية الثرية الأرستقراطية التي ينحدر منها داروين، ويجب على الإنسان أن يعيش حالة من التوازن في تناوله لأية نظرية علمية، فسواء وجد داروين أو لم يوجد سيعيش الأغنياء ويموت الفقراء جوعًا، سيكون البقاء للأقوى في هذه الحياة.

توصـل داروين من خـلال الرحلة التـي قام بها على سـفينة البيجـل (Beagle) لمـدة خمـس سـنوات (١٨٣١م-١٨٣٦م)، وجمعه لعينات الحيوانات من مناطق مختلفة، أن الكائنات المتنوعة علـى وجه هـذه الأرض لم تخلق على حدة، بل ظهرت من سـلف مشـترك، يقـول داروين في كتابـه أصل الأنواع: (وبنـاءً على الرأي السـائد بأن كل نوع قد خلق مسـتقلًا، فلماذا يحـدث أن هذا الجزء مـن التركيب، الـذي يختلف عن نفس الجزء فـي نوع آخر مخلوق مسـتقلًا تابعًـا لنفـس الطبقـة، يصبح أكثـر تمايزًا من هـذه الأجزاء التي تشـبه بعضها بشـكل حميم في الأنواع العديدة المختلفة؟ وأنا لا أرى أنـه مـن الممكـن أن نتوقع في أحـوال كثيـرة أن نجدهم ما زالـوا مسـتمرين في التمايز في هـذه الأجزاء مـن تراكيبهم التي قد

تمايـزت فـي خلال مدةحديثة نسـبيًا، التي قد اختلفـت عن بعضها بهـذا الشـكل. أو لتوضيح الحالة بشـكل آخر: النقـاط التي تتماثل فيهـا جميع الأنواع التابعة لإحـدى الطبقات، التي تختلف فيها عن الطبقـات ذات القربى ببعضهـا، يطلق عليها صفـات عرقية، وهذه الصفات من الممكن أن تعزى إلى الوراثة من سلف أبوي مشترك؛ وذلك لأنه من النادر أن يكون ما حدث أن الانتقاء الطبيعي سـوف يكـون قـد قـام بتعديل أنـواع عديدة مختلفـة متباعدة عـن بعضها، ومعدة تقريبًا من أجل سلوكيات متباعدة الاختلاف، بنفس الطريقة تمامًـا، وبمـا أن هذه الصفـات التي يطلق عليها أنهـا صفات عرقية قـد تمت وراثتهـا من وقت سـابق للفترة التي تفرعـت فيها الأنواع المختلفة لأول مرة من سـلفها الأبوي المشـترك، وبالتالي فإنها لم تتمايز أو يحدث بينها اختلاف إلى أي درجة، أو إلى درجة بسـيطة فقط، فإنه ليس من المحتمل أنها سوف تتمايز في الوقت الحاضر. وعلـى الجانـب الآخر، فـإن النقاط التـي تختلف فيهـا الأنواع عن الأنواع الأخرى التابعة لنفس الطبقة تسـمى صفات نوعية، وبما أن هـذه الصفات النوعية قد تمايزت وحدث فيهـا اختلاف منذ الفترة التي تفرعت فيها الأنواع من سلف أبوي مشترك، فإنه من المحتمل أنها سوف تبقى في كثير من الأحوال قابلة للتمايز»[1].

(١) أصل الأنواع/ ٢٥٨. الكتاب أحدث ضجة كبرى في الأوساط الدينية في الدول الأوروبية، ونظرية التطور ما زال الجدل قائمًا فيها حتى هذه اللحظة، وبشكل عام فقد حصلت على قبول جيد في الأوساط العلمية.

لقـد ختـم داروين كتابـه أصل الأنواع، نشـأة الأنـواع الحية عـن طريق الانتخاب الطبيعـي أو الاحتفاظ بالأعراق المفضلة في أثنـاء الكفـاح من أجل الحياة، بهـذه العبارة الأنيقـة: «هناك عظمة فـي هذه النظـرة للحياة؛ فبكل قواها المتعددة قـد نُفخت في أنواع قليلـة أو نوع واحد؛ وأنه بينما كان هذا الكوكب يدور طبقا لقانون الجاذبية من أشـكال بسـيطة إلى أشـكال جميلة ورائعة كانت ولا تزال تتطور»[1].

ونظريـة التطور نظرية قديمة جـدًّا، جذروها تعود إلى ألفين وخمـس مئـة سـنة، وداروين ليـس أول مـن وضع فكرة السـلف المشـترك أو أصل الحيـاة تجـاوزًا، طاليس (Thales) الفيلسـوف اليوناني الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد قال بهذه الفكرة حيث افترض أن الحياة نشـأت من الماء، أيضًا تلميذه الفيلسـوف اليوناني أناكسـمندر (Anaximander) افترض أن الحياة نشأت من الطين على شـكل سـمكة ذات جلد شـائك، والكثير من الفلاسفة مـن مختلف الحضارات قالوا بهذه الفكرة وهي أن الكائنات تتغير مع مرور الزمن.

بطبيعـة الحـال ليـس كل نظرية هـي نظرية صحيحـة، هناك نظريـات يوجـد بها أخطـاء شـنيعة جدًّا، وقـد وضحنا هـذا الأمر

(1) The Origin of Specie: (by Means of Natural Selection، or the Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life).

سابقًا، لكن لا يجب علينا أن نعمل تناغمًا مع الدين فقد وقع البشر جرّاء ذلك في أخطاء عديدة، والبعض قد غيّر من اعتقاده المسبق، نظرية ثبوت الأرض كانت مقبولة فترة ما في الأوساط الإسلامية لكن الوضع يختلف حاليًّا.

سبق أن ناقشنا هذه الأمور، والإيمان بها يتحتم على فئة معينة من البشر أن يؤمنوا أن الكون عمره لا يتجاوز عشرة آلاف سنة، وهذا ما يخبرنا به الكتاب المقدس، لكن كيف يمكن ذلك ودراسة المستحثات تبيِّن خلاف ذلك؟!

حدد سفر التكوين عمر العالم على أساس أعمار الرسل والأنبياء منذ آدم وحتى ميلاد السيد المسيح عليه السلام، ووفقًا لهذا التحديد نخرج بنتيجة تلفت النظر ومضحكة كثيرًا، وهي أن عمر العالم لا يتجاوز الستة آلاف أو السبعة آلاف سنة، والإيمان بهذا الكلام أجده صعبًا جدًّا وخاصة ونحن في هذا القرن، إنها فكرة سخيفة جدًّا؛ لأن دراسة المستحثات تبيِّن لنا خلاف ذلك، ورغم أننا نفتقر إلى تحديد دقيق لظهور الجنس البشري على الأرض، لكننا مقتنعون تمامًا بأن الفترة أطول مما يذكرها الكتاب المقدس بكثير، زد على ذلك أن عمر الأرض يُقاس بمليارات السنوات، وهذه مشكلة كبيرة أوقعت الإنجيل في إحراج كبير ونظرة يصحبها السخرية والتفكه من رجال العلم، وكي نقترب أكثر لتوضيح هذه الصورة ففي قصة شهيرة يذكرها واينبرغ في كتابه حلم النظرية

النهائية حول عالم الأحياء البريطاني توماس هكسلي المدافع القوي لنظرية داروين، وقف توماس هكسلي في عام ١٨٦٨م، في مناسبة جمعت الكثير من العلماء في شرق إنجلترا، كان عنوان محاضرته حول قطعة الطبشور، أخذ يشرح هكسلي امتداد الطبقة الطبشورية تحت الأرض، ويوضح بأن الطبشور المعروف في لغتنا بكربونات الكالسيوم ($CaCO_3$) مؤلف من مستحثات قوقعية لا حصر لعددها كما يفيدنا الفحص المجهري، وشيئًا فشيئًا وعبر ملايين السنين ضغطت لتتشكل الطبشاير، وبصرف النظر عن قول هكسلي فهو يريد اقناع الحاضرين بأن العالم أقدم جدًّا من ستة آلاف سنة كما يذكرها الكتاب المقدس، فهناك تطور للكائنات الحية من ملايين السنين.

وهكذا يتضح أن المسألة التي يذكرها الكتاب المقدس حول عمر العالم سخيفة جدًّا، فالصورة العلمية التي يطرحها العلم أن الأرض انفصلت من الشمس، كان كوكب الأرض كوكبًا مميتًا تتدفق فيه الحمم البركانية وينفث الغازات السامة، ومن الصعب أن نتخيّل كيف كان ذلك الدمار العنيف الذي يحاصر الأرض، والأغرب من ذلك أن هذا الكوكب العنيف تطور من ظروف مدمّرة إلى كوكب جميل سمح بظهور الإنسان عليه، ولدت الأرض في هذه الظروف المدمرة قبل أربعة مليارات ونصف، وابتدأ ظهور الكائنات تدريجيًّا من الكائنات الأبسط إلى الكائنات المعقدة.

إن رفض أيّ نظرية لا يقوم على منهج غير علمي، وللأسف

الشديد فالكثير من النظريات نوقشت بأساليب بعيدة كل البعد عن المنهج العلمي، الداروينية مثلًا قد أسيء استخدامها في الترويج للإلحاد، وارتكاب المجازر كالإبادة العنصرية من مبدأ البقاء للأقوى أو الأصلح، وكما أسلفنا أن الأغنياء سيعيشون ويموت الفقراء جوعًا، وسيصعد هتلر إلى السلطة وسترتكب مجازر ستايلين، بوجود داروين أو بعدمه، والمذابح الأموية والمجازر العباسية هي أقوى الأدلة على ذلك.

الحقيقة تبقى حقيقة حتى لو لم يؤمن بها البشر جميعًا، فقانون الجاذبية اكتشفه نيوتن أو لم يكتشفه سيبقى قانونًا حقيقيًّا، مقطع جميل يذكره هوكنج في كتابه الكون في قشرة جوز: «هذا ويلقي بعض الناس بمسؤولية القنبلة الذرية على أينشتاين؛ لأنه اكتشف العلاقة بين الكتلة والطاقة [$E=mc^2$]، إلا أن هذا يشبه أن تلقي على نيوتن المسؤولية كسبب في اصطدام الطائرات؛ لأنه قد اكتشف الجاذبية»[١].

وكمثال جيِّد حول ذلك، نشبت معركة بين البابا جون (٢١) (Pope John XXI) وقوانين الطبيعة في عام ١٢٧٧م، إن الجواب التقليدي الذي أعلنه لمواجهتها بأنها هرطقة[٢]، لقد مات البابا بسبب قوة الجاذبية التي جذبت سقف بيته للأسفل فانهار عليه!

(١) الكون في قشرة جوز/ ٢٥. ومع ذلك فإنه يجب الاعتراف أن العلماء -بقصد أو من دون قصد- ساهموا مساهمة كبيرة في الدمار الذي يشهده كوكب الأرض، وقد تطرقت لهذه النقطة في الحلقة القادمة.

(٢) الهرطقة: الزندقة.

إن إحـدى الخصائـص الأساسـية التـي تتميـز بهـا القوانين الطبيعيـة أنها قوانين ثابتة لا يمكـن تغييرها أو تبديلها، وحيث إنها كذلك قـادت العلماء إلى طريقة اكتشـافها، فالكون بما يحويه من صغائـر الأشـياء التي تنطـوي تحت ميكانيكا الكم إلى الكواكب والنجوم تخضع لقوانين فيزيائية صيغت بدقة فائقـة، إنهـا ليسـت قوانيـن مزاجيـة كأسعار سـوق الذهب أو الأسهم أو المواد الغذائية، ترتفع مرة وتنخفض أخرى.



البابا جون ٢١ حارب قوانين الطبيعة فمات نتيجة انهيار سقف بيته بسبب قوة الجاذبية

وحيث إنها بهذه القوة لم يتقبل العلمـاء الماديون فكـرة المعجزات فرفضوهـا رفضًا باتًّـا دون أن يتقبلوا فـي أدمغتهـم احتماليـة وقـوع هـذه الأشـياء، والجواب يأتي من المتدينين أن هذه المعجزات حدثت حقًّـا، صحيـح أن الله وضـع قوانين الكـون وأعطى الكـون حرية التطـور وفقًـا لقوانين ذكية جدًّا، لكن السـؤال الأكثر أهمية ماذا لو أراد الله خرق قوانين الطبيعة؟

يهـرب البعض من هذه القيود بالاعتقاد أن الكون لا يخضع لقوانين معينة والأحداث فيه تحصل اعتباطيًا، وهذا الاعتقاد سـاد

فـي القرنين الســابع عشــر والثامن عشــر، يقــول هوكنج فــي كتابه الثقوب السوداء حول النظرية النهائية:

«هناك على الأقل ثلاث إمكانيات:

١ - هناك نظرية موحدة كاملة.

٢- ليســت هنــاك نظريــة نهائيــة، بــل سلســلة لا نهائيــة من النظريــات، بحيث يتم التنبؤ بفئــة معينة من الملاحظات من خلال النظرية الموافقة.

٣- ليســت هناك أي نظريــة، ولا يمكن وصف الملاحظات أو التنبــؤ بهــا فيمــا وراء حــدود معينــة، بــل تكــون تلك الملاحظات اعتباطية تمامًا.

لقد اســتخدمت وجهة النظر الثالثة ضــد العلماء في القرنين السابع عشر والثامن عشر: كيف يمكن لهم صياغة قوانين قد تحدّ من حرية الله في تغيير رأيه؟»[1].

يبــدو واضحًا حتى للناس العاديــين أن هناك قوانين محكمة جدًّا، ونحن كمســلمين نعتقد أن الله هو الذي خلق هذه القوانين، فالقوانيــن تعبر عن إرادة الله، يتوهّم البعــض أن هناك تعارضًا بين الدور الذي تؤديه القوانين ووجود الله سبحانه وتعالى، وهذا خطأ بالطبع، فالقوانين هي إرادة الله سبحانه وتعالى، إضافة إلى الروح

(١) الثقوب السوداء والأكوان الطفلة/ ٦١.

التـي ينفخهـا الله في هـذه القوانين، فلـو لا وجود هـذه الروح ما وجدت الحياة فيها.

قبل سـنتين سألت أخي الدكتور أنور آل محمد هذا السؤال، وكان مـن ضمن حوار أجريته معه، ونشـرته فـي كتابي (في خطى الناجحين).

- **حول المعجزات يقول الفيلسـوف البريطاني (كولين ماكجين–Colin McGinn) في حوار مـع (جوناثـان ميلـر– Jonathan Miller)، أذاعته (بي بي سـي فـور–BBC4) البريطانية، في سلسـلة عنوانها (الإلحـاد تاريخ مختصر لنقـض الإيمـان): «أنـا لا أؤمـن بالأشـياء الخارقـة للطبيعة، لا معجـزات، لا معتقدات غيبيـة، لا جـنَّ، لا إلهـام، وكل مـا إلـى ذلك ويتابـع ويقول: لا يوجـد أيّ دليل مؤكد على وقـوع مثـل تلـك المعجـزات فـي أي وقـت مضـى، إن اليقيـن بحدوثهـا يبنـى غالبًا على اعتقاد مسـبق بوجود الإلـه، بدلًا من أن تكون نفسـها مصـدرًا للإيمـان بوجـوده». بصفتك فيزيائيًّـا نظريًّـا متديِّنًا كيف تقـرأ هذا الكلام،**

وكيـف تنظر إلـى المعجزة كتوقـف أو تباطؤ الشمس للنبي يوشع عليه السلام مثلًا؟

أنـور آل محمد: الإنكار هو أهون الأمور، وهو أول ما واجه الأنبياء؛ لأن المنكر يشعر أنه لا يحتاج إلى دليل لإنكاره حتى مع قيام الحجة. وعمومًا هذا مرتبط بالمنهج كما أشرنا سابقًا. وأما بالنسبة للمعجـزات وإمكانية حدوثها بشـكل قد يخالـف القانون الكوني الطبيعي، فإن سـلمنا أن قيام القوانين بحاجة إلى سـبب ومسـبِّب، فإنـه متى رفع السـبب رفع أثـر القانون. ولذلك المسـتحيلات في المنطق تنقسـم إلى مسـتحيلات منطقية لا تتبدل، مثل استحالة أن يكـون حاصل جمع الواحد مع الواحد يسـاوي أربعة مثلًا. وهناك مسـتحيلات عملية مثل عدم إحراق النار مع توفر شروط الإحراق الطبيعية، وهذا النوع قائم على التلازم بين السبب والأثر، ولكن لا يوجد مانع منطقي من توقف ذلك التلازم.

وعـودة علـى نقطة بحثنـا، إن تاريخنا البشـري تاريخ طويل جدًّا، فهو خليط مـن المعتقدات المتنوعة والسـخيفة، المنجمون وسـخافاتهم يتكلمون بلغة ضبابية مبهمـة وغامضة مما يجعل من أيِّ حـدث يحـدث فـي الأرض ينطبـق علـى سـخافاتهم كقولهم سـتقع حربٌ بين دولتين، سـيموت أحد الشـخصيات السياسـية، سـتحدث أمـراض....، رباعيات مكـوّدة ومشـفّرة وغامضة ينطق بها المنجم الفرنسـي المسـيحي نوسـترادامو س تحتمل عشـرات

التأويـلات، الغول والعنقـاء وتلك العيون التـي اتخذتها الجنيات بيتًا لها، والحاسـة السادسة التي تجعل من يمتلكها يتنبأ بالأحداث المسـتقبلية، أكسـير الحيـاة ومـاء الحياة الـذي من يشـرب منه لا يمـوت، وهنـاك التطيّـر، فقـد كان العرب فـي الجاهليـة يتطيَّرون مـن صوت الغراب والبوم، وتلك الغابات المسـكونة بالعفاريت، والمدن الممتلئة بالتنانين والذهب، بحيرات تخرج منها حوريات، أطبـاق طائرة تنزل مـن الفضاء لتزور كوكـب الأرض فتخرج منها مخلوقـات فضائيـة، اختفاء الطائـرات في مثلث برمـودا، ووضع رأس الخفـاش تحت المنام يمنع عـن النوم، وحمل الهبهاب ينفع للجنس وللهيبة، وحجر آخر يمنع الرصاص، وثالث يوقف نزيف الدم، وضرس الذئب لطرد الجن، وأشـخاص لهم قدرة أن يتنقلوا فـي جميـع أصقـاع الأرض فـي لحظـة واحـدة، ويد تمسـح على المريـض فتزيل جميع أسـقامه، والحظ السـعيد والتعيـس ودائرة الأبـراج، والاعتقاد ببعض الأيـام أو الأرقام أنها تجلب التعاسـة، والقـوة الخارقـة للأهرامـات، وقراءة الكـف والفنجـان والطالع، والعرافـات الذين يسـتعملون الدخـان للتنبؤ بالمسـتقبل، تحضير الجن والاقتراب من الموت وجلسـات تحضير الأرواح، وتحليل شخصية الإنسان بمجرد النظر إلى الساعة التي يلبسها أو من النظر إلى وجهه أو ملابسـه وما شـابهها من خرافات، والأخطر من ذلك كلـه، عندما نتوغل أكثر فأكثـر نرى الهالات القدسـية التي زعمها البعض وصدقهم الناس في ذلك.

يقول أحد شعراء العرب حول التطير من الغراب، هذه الأبيات جاءت في كتاب المستطرف في كُلّ فنٍّ مُستظرف للأبشيهي:

إذا ما غرابُ البَيْن صاحَ فَقُلْ له
تَرَفَّقْ رماكُ اللهُ يا طيرُ بالبعدِ
لأنتَ على العشاقِ أقبحُ منظرٍ
وأبشعُ في الأبصارِ من رؤية اللحدِ
تصيحُ بَبينٍ ثم تعثر ماشيًا
وتبرزُ في ثوبٍ من الحزنِ مسوّدِ
متى صِحْتَ صَحَّ البينُ وانقطعَ الرجا
كأنكَ من يومِ الفراقِ على وَعْدِ

هناك عقائد غير مؤذية سواء اعتقد بها الإنسان أو لم يعتقد، وإن كانت تفتقر إلى عنصر النزاهة، إلا أنها ليست مقلقة كالاعتقاد أن الرقم ١٣ من الأرقام السيئة، لكن الأمر المخيف وما يزعج حقًّا هي تلك العقائد المؤذية التي تجعل الإنسان يعيش قلقًا في حياته ويخسر المال الكثير جرّاء ذلك كاعتقاده بتأثير النجوم والقمر والأحجار والطلاسم على حياته، والاعتقاد بالبيوت التي تسكنها الجن وتلبس الجن، وأنا أعرف الكثير وقعوا ضحية لمثل ذلك، وأظن أننا العرب محظوظون جدًّا لعشق الجن لنا، فما أكثر البيوت التي تسكنها الجن عندنا، ونظرًا لضعف الثقافة أصبح من السهل اقناع الضعفاء بالقوة الخارقة التي تفعلها جلسات تحضير الجن

وتحضير الأرواح مما جعل الناس ينساقون لذلك، وللأسف الشديد أصبحت تجارة مربحة جدًّا تدرّ المال الكثير على أصحابها، ولم أرصد في حياتي شخصًا واحدًا استطاع العلاج من مرض معين كالعقم مثلًا من خلال هؤلاء الذين يتعاملون بهذه السخافات، في المقابل أعرف الكثير ممن ذهب إلى المستشفيات وتلقى العلاج حصل على نتيجة جيدة.

فالإنسان العاقل هو الذي يتعامل مع الحياة ويستجيب لواقعيتها، فعندما نشعر بالألم نذهب للصيدلي ويعطينا ٤٠٠ مليجرام من البروفين مثلًا، وهذا أفضل بالطبع من أن نكتب في ورقة أحرفًا مقطعة ونشربها أو نحملها معنا لتزيل هذا الألم.

تحكي كتب التاريخ عن الخليفة العباسي محمد المعتصم (١٧٩-٢٢٧هـ) وهو الخليفة المثمّن، أنه تجهز لغزو الروم في سنة ثلاث وعشرين ومائتين فأخبره المنجمون أن ذلك الوقت طالع نحس وأنه سيهزم، لكنه خالف كلامهم فانتصر في المعركة، فقال الشاعر أبو تمام قصيدته المشهورة التي يبيِّن فيها أكاذيب المنجمين، وهذه بعض أبياتها ننقلها من ديوانه:

السيفُ أصدق إنباءً من الكُتُبِ
في حدِّه الحدّ بين الجدّ واللَّعِبِ
بيضُ الصَّفائحِ لاَ سودُ الصَّحائفِ في
مُتُونِهنَّ جلاءُ الشَّك والريَبِ

والعِلْـمُ فـي شُـهُبِ الأَرْمَـاحِ لاَمِعَـةً
بَيْـنَ الخَمِيسَـيْنِ لا في السَّـبْعَةِ الشُّـهُبِ
أَيْـنَ الروايَـة ُ بَـلْ أَيْـنَ النُّجُـومُ وَمَـا
صَاغُـوه مِـنْ زُخْـرُفٍ فيهـا ومـنْ كَـذِبِ
تخرُّصًـا وأحاديثًـا ملفَّقـةً
لَيْسَـتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُـدَّتْ ولا غَـرَبِ
عجائبًـا زعمـوا الأَيَّـامَ مُجْفلـةً
عَنْهُـنَّ فـي صَفَـرِ الأَصْفَـار أَوْ رَجَـبِ
وخَوَّفُـوا النـاسَ مِـنْ دَهْيَـاءَ مُظْلِمَـةٍ
إذا بـدا الكوكـبُ الغربـيُّ ذو الذَّنـبِ
وصيَّـروا الأبـرجَ العُلْيـا مُرتَّبـةً
مَـا كَانَ مُنْقَلِبًـا أَوْ غيْـرَ مُنْقَلِـبِ
يقضـون بالأمـر عنهـا وهـي غافلـةٌ
مـا دار فـي فلـك منهـا وفـي قُطُـبِ
لـو بيَّنـت قـطّ أمـرًا قبـل موقعـه
لـم تُخْـفِ مـا حـلَّ بالأوثـان والصلُـبِ

سـأوضح مـا يقصـده أبو تمـام من هـذه الكلمـة (الكوكب الغربي ذو الذنب)، ففي عام ٢٢٢هـ/ ٨٣٧م، حدثت ظاهرة غريبة كتب فيها أبو إسـحاق الكندي رسـالة بعنوان (رسـالة خاصة فيما رصد من الأثر العظيم الذي ظهر في سنة اثنين وعشرين ومائتين)،

يقول ابن الأثير في كامله في أحداث سنة ٢٢٢هـ/ ٨٣٧م: «وفيها ظهر على يسار القبلة كوكب فبقى يرى نحوًا من أربعين ليلة وله شبه الذنب وكان أول ما طلع نحو المغرب ثم رؤي بعد ذلك نحو المشرق وكان طويلًا جدًّا فهال الناس ذلك وعظم عليهم»[١].

وهكذا يتضح لنا أن الكوكب الغربي الذي ظهر سنة ٢٢٢هـ/ ٨٣٧م، هو مذنب هالي، وهناك سبب قوي يجعلنا نقول إن المقصود هنا هو مذنب هالي، فبعد ٧٦ عامًا تقريبًا يكون الناتج ٩١٢م، وهذا التاريخ يوافق بالهجري ٢٩٩هـ/ ٩١٢م، يقول ابن الجوزي في كتابه المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، في أحداث سنة ٢٩٩هـ: «ظهر ثلاث كواكب مذنبة. ظهر أحدهم ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان في برج الأسد، وظهر الثاني في ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة في المشرق، وظهر الثالث ليلة الأربعاء لعشر بقين من ذي القعدة في برج العقرب، وبقيت أيامًا ثم اضمحلت»[٢]،



صورة التقطت لمذنب هالي (١٩٨٦م)، ناسا

(١) الكامل في التاريخ ٦/ ٣٧.
(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٣/ ١٢٣.

أيضًا سجله المقريزي عام ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م، أي بعد ٧٦ سنة أيضًا، أنـه ظهر فـي القاهرة لمدة ٢٢ يومًا، ومهما كان الأمر، فنحن لسـنا فـي صدد أن نناقش هذه المسـألة، أظن أننا بحاجـة إلى ما هو أهمّ من ذلك، وسـنكون حتمًا أكثر سـعادة إذا تعاملنا مع هذه المسائل بمثـل هذه الطريقة، هـذا صحيح، فما يهمنا هو أن نبيّن أن المذنب الذي ظهر والذي تكلم عنه ابن الأثير في كامله لا علاقة له بفوز أو هزيمة الخليفة محمد المعتصم.

ومذنب هالي يزور الأرض ويبقى في ضيافتها لشرب الشاي كل فتـرة زمنية تتراوح بين ٧٦ إلى ٧٩ سـنة تقريبًا، والاختلاف في ذلـك يعود إلى مسـار المذنـب حيث قـد يمر في بعـض الدورات بالقـرب مـن الكواكـب فيتأثـر بجاذبيتها مما يـؤدي إلـى تغير فترة دورانه، اكتشـفه العالم البريطاني هالـي، ورصده في عام ١٦٨٢م، وكان على قناعة تامة أنه نفس المذنب الذي ظهر في عامي ١٥٣١م، ١٦٠٧م، واسـتنتج من خلال الدورات الثلاث بواسـطة الحسـاب أنـه يظهر كل ٧٦ عامًـا تقريبًا، وتوقع ظهوره في عام ١٧٥٨م، لكنه توفي قبلها في عام ١٧٤٢م، لقد توفي هالي لكن توقعاته كانت في محلها وقد سـمي المذنب باسمه تكريمًا له، والذنب الذي يظهر له عبـارة عن تبخـر الغازات والأتربـة المتجمدة التي تتكـون منه نواة المذنـب عندمـا يمـر بالقرب من الشـمس بتأثيـر الرياح الشمسـية ويكـون اتجـاه الذنـب عكس جهـة الشـمس. وهذا الجـدول يبين

ظهـور مذنب هالـي، ويلاحظ في الجدول أن أقـدم رصد للمذنب كان في عام ٢٤٠ قبل الميلاد من قبل الفلكيين الصينيين[1]:

١- ٢٤٠ قبل الميلاد-May
٢- ١٦٣ قبل الميلاد-May
٣- ٨٧ قبل الميلاد-August
٤- ١٢ قبل الميلاد-October
٥- ٦٦م-January
٦- ١٤١م-March
٧- ٢١٨م-April
٨- ٢٩٥م-April
٩- ٣٧٤م- February
١٠- ٤٥١ م-July
١١- ٥٣٠ م-November
١٢- ٦٠٧ م-March
١٣- ٦٨٤ م-November
١٤- ٧٦٠ م-June
١٥- ٨٣٧ م-February
١٦- ٩١٢ م-July
١٧- ٩٨٩ م-septembere

(1) Popular astronomy: a review of astronomy and allied sciences/192.

١٨- ١٠٦٦ م- March

١٩- ١١٤٥ م- April

٢٠- ١٢٢٢ م- Septembere

٢١- ١٣٠١ م- November

٢٢- ١٣٧٨ م- November

٢٣- ١٤٥٦ م- January

٢٤- ١٥٣١ م-August

٢٥- ١٦٠٧ م- October

٢٦- ١٦٨٢ م- Septembere

٢٧- ١٧٥٨ م- March

هـذا ولعـب مذنب هالـي دورًا كبيـرًا في ترويج الشـائعات المتعلقـة بـه، ففي عام ١٩١٠م، تفشـت شـائعة أن يـوم القيامة قد قرب، وأن المذنب سـيدمّر الأرض تدميرًا، فأصبح الناس ينفقون أموالهم للاسـتمتاع بالأيام القليلة من حياتهم مما سـبب مكاسب كبيـرة للتجـار، وتتكرر نفس المأسـاة في عـام ١٩٨٦م، فقد خيّم الخـوف على سـكان الأرض وتجدَّد لهم يوم القيامـة مرة أخرى، وقد انتشرت خرافات كثيرة حول المذنبات بأنها تجلب الأمراض والطاعون وهي نذير شؤم بالطبع، وهذا الكلام لا يجد له قبولًا في ساحة العلم، فالمذنبات ليست بأكثر من أجرام سماوية تدور حول الأرض، وقـد كتب هالي نفسـه كتابًا يحارب فيه هذه السـخافات

التي أثقلت بها عقول الناس حول المذنبات.

يقول برتراند رسل في كتابه أثر العلم في المجتمع: «وإذا انتقلنا بالكلام إلى ظاهرة علمية أخرى هي ظاهرة النجوم المذنبة، فقد تطلب القبول بها ضمن نطاق الميدان العلمي فترة أطول بكثير، ولم تُحسم المسألة حتى عهد نيوتن وصديقه هالي(Halley): فموت يوليوس قيصر (Julius Caesar) سبقه ظهور مذنب، كما تقول (كالبورنيا- Calpurnia) في شعر شكسبير (Shakespeare):

عندما يموت الشحاذون لا تَرى أيَّ نيازك
لكن السماء تشتعل قبل أن يموت الأمراء

أما بيد[١]، فيؤكد أن المذنبات تنذر بالثورات والأوبئة والحروب والعواصف، ويعتبر (جون نوكس-John Knox)[٢] المذنبات برهانًا على الغضب الإلهي، وفِكْرُ أتباعه أنها ليست إلا تحذيرًا للملك من التخلّص من أتباع البابا، ومن المحتمل أن شكسبير كان لديه أيضًا بعض الاعتقادات الخرافية فيما يتعلق بالمذنبات»[٣].

---

(١) راهب وداعية مسيحي، عاش في القرن الثامن الميلادي (٦٧٢م-٧٣٥م)، كتب أول تاريخ لانجلترا.

(٢) مصلح ديني إسكتلندي، عاش في القرن السادس عشر الميلادي (١٥١٤م - ١٥٧٢م)، حول الجموع الإسكتلندية من الكاثوليكية إلى البروتستانتية.

(٣) أثر العلم في المجتمع/ ٢٣.

إن كل جيـل في هذا العالـم يعيش في حماقاته وفي مسـاحة مـن الجهل، وهـذا وضع طبيعي، لكن الشـيء الخطير هو أن نبقى علـى جهلنا ونمرر هـذا الجهل لأطفالنـا، ونظلّ ندافع عن أشـياء ليـس لأنهـا صحيحـة بـل لرغبتنـا أن تكـون صحيحـة، فالأطفال يصدقـون كل ما يقولـه الكبار لهـم ويعتقدون بصحة مـا يفعلونه، وبالطبع فغياب الدليل لا يشكل عائقًا بالنسبة للطفل، وهكذا يكبر الأطفال على ذلك وتصبح تلك الأشياء حقائق بالنسبة لهم.

فـإذا كان أجدادنـا لـم يقدمـوا تفسـيرات مرضيـة تتفـق مع عصرنـا فلماذا نقع في المشـكلة ذاتها، فالعلم ليس مضطرًا إلى أن يتوافق مع رغباتنا التي ورثناها من آبائنا.

وخلاصـة الأمر، أيها القـرّاء، إذا كان الجهل من فهم ظواهر الطبيعـة جعـل النـاس تتطيرَّ مـن صوت الغـراب وتعبد الشـمس والقمـر والأشـجار والحيوانات وتعتقـد في التنجيـم وتتحرز من الشـياطين وتطرق باب العرافات وتقرأ الكـف والفنجان وتذهب الأمور إلى أسوأ من ذلك، فلماذا نجعل الجهل يخيِّم على عقولنا، أما آن الأوان أن نتحرر من هيمنة هذه الروايات الزائفة؟.

وبصريح العبارة أقول: إن الهدف من هذا الكتاب هو القضاء علـى الفيـروس التطـوري السـريع فيـروس العلوم الزائفـة وتلك الروايـات التي تخدع السـذج من الناس، وللأسـف الشـديد فهذه الروايات انتشـرت بكثرة واسـتعمل أصحابها التقدم التكنولوجي

في ترويجها، وهناك أمثلة كثيرة حول ذلك.

وفي الحقيقة، وبعد عدة مشاهدات وقراءة الكثير من الرسائل التي تصل إلى بريدي يوميًّا، إضافة إلى ما أسمعه من الناس، وجدت أن كل عصر له خرافاته، فالخرافة كالحرباء تتلوَّن بتلوُّن الشيء الذي تقف عليه، واكتشافها من قبل العدو يتطلب أيضًا تطور في الرؤية البصرية، وبوضوح أكثر، الخرافة تتطور بتطور العصر؛ لهذا من الصعب اكتشافها، وحتى لو اكتشفت من قبل القليل، فالقليل بطبيعة الحال لا يستطيعون أن يواجهوا الكثير، وهذا ما يزعج أكثر، إن هؤلاء الخصوم لا يستطيعون أن يتكلموا أمام جمهور الناس وإذا تكلموا تكلموا بلغة ضبابية ومبهمة بحيث يضمنون عدم مهاجمتهم، وهذا الشيء بالطبع يعتبر إيجابيًّا لثقافة المجتمعات البشرية ويعطيها قوة أكبر، إذ إن العلماء يتخوفون من مواجهتها.

اعتقد الناس قديمًا من آلاف السنين بتأثير النجوم والكواكب على حياة الإنسان على كوكب الأرض، وهذا الاعتقاد ساد في معظم الحضارات إن لم يكن في جميعها، البابلية واليونانية والمصرية والصينية والهندية، وتاريخ التنجيم يمتد لأربعة آلاف سنة أو أكثر، والسبب الرئيس لانتشار التنجيم؛ لأن الجنس البشري فضولي ويحب تعرُّف أحداث المستقبل على الأقل لتكون عنده رؤية واضحة على أساسها يستطيع التعامل مع تلك الأحداث.

وفي التاريخ أمثلة عديدة تعضد ذلك، فعندما نتصفح تاريخ

الحكام نجد ارتباط التنجيم بحياتهم أكثر من أي فئة أخرى، فرعون نتيجة رؤية رآها أخبره المنجّمون بأن ولدًا سيولد من بني إسرائيل سيكون زوال ملكه على يديه، أخذ يقتل بلا شفقة ولا رحمة، بدأت تظهر تناقصات كثيرة في بني إسرائيل، بعد ذلك أمر فرعون بأن يقتل الأولاد عامًا ويتركون عامًا لمعالجة المشكلة، ويقال إن هارون أخا موسى ولد في السنة التي لا يقتل فيها فرعون، وعلى نفس التردد يقول الدميري في كتابه الحيوان: «إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه، جاءه المنجمون أصحاب العلم، فقالوا له: إنه يولد في ليلة كذا وكذا غلام يفسد ملكك، فأمر بقتل من ولد في تلك الليلة، فلما ولد دانيال ألقته أمه في أجمة أسد ولبوة، فبات الأسد ولبوته يلحسانه، فنجاه الله تعالى بذلك حتى بلغ ما بلغ، وكان من أمره ما قدره العزيز العليم»[١].

يذكر الدكتور كامل حمود في كتابه تاريخ العلوم عند العرب الدافع إلى التنجيم: «سيادة الاعتقاد بأن حركة الأجرام السماوية هي السبب في جميع أحداث عالم ما تحت القمر، وفي هذا التوجه يمكن القول بأن تصرفات الإنسان تقوم أساسًا على تأثير النجوم، حتى إن قراءة النجوم باتت ضرورة ملحة لاستطلاع الغيب الذي هو بمعنى معرفة بما يكون مصير الإنسان، وهذه المعرفة مثلت نقطة جذب لكل الناس. فحركت فيهم الدوافع النفسية، وأثارت

---

(١) حياة الحيوان/ ٧.

فيهـم كل الحوافـز لنهـل هـذا العلم من مصـادره. فنبغ عـدد كبير مـن المنجمين واحتلـوا مكانة مميزة في الدولـة والتفَّ الناس من حولهم واتخذهم الخلفاء العباسـيون في بلاطهم يستشيرونهم في معظم الأمور الاجتماعية والسياسية والشخصية، فالمنصور جعل فـي بلاطـه المنجم (نوبخت) فارسـي الأصـل، وولده أبا سـهل. واصطحـب المنصور الثاني إلى الحج، وبنى مدينة بغداد في وقت اختـاره الأول. وكذلـك فعـل المعزّ عندمـا أمر قائده جوهـر ببناء القاهرة، فطلب منه أن يجمع المنجمين»[1].

ومن الواضح أن المنصور سـاهم مساهمة كبيرة في الترويج إلى التنجيم، فقد نقل من الحضارة الهندية وغيرها الكتب المتعلقة بالتنجيـم، ومن أبرز هـذه الكتب كتاب (المجسـطي-Almagest) لبطليمـوس، كذلك عندمـا قرر المنصور بناء مدينة بغداد اسـتعان بالمنجمين، لهذا السبب وغيره من الأسباب أصبح للتنجيم شعبية كبيرة وكثرت كتب التنجيم في عهد الدولة العباسية، وبرز منجمون شهيرون كأبي معشر الفلكي.

وفيما يتعلق بعصر أوروبا وبالتحديد في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، يقول صاحب كتاب قصة الحضارة: (ولـم تدرس النجوم من أجل هداية السـفن أو تحديد المواسـم الدينية فحسب وإنما درسـت مـن أجل التنبـؤ بما يقـع على الأرض مـن أحداث

(١) تاريخ العلوم عند العرب/ ١٠١.

ومـا يخبأ للأشـخاص من مصيـر. ويبـدو أن التأثير النافـذ للمناخ والفصول وعلاقة المـد والجزر بالقمر والتوقيت القمري للطمث عند المرأة واعتماد الزراعة على أحوال السماء وكيفياتها، إنما تبرر مزاعم التنجيم بأن سـماء اليوم تكشـف عن أحداث الغد. وكانت أمثـال هـذه التنبؤات تنشـر بانتظـام (كما هـو الحـال الآن) وتبلغ جمهورًا كبيرًا متعطشًـا لها. ولـم يكن الأمراء يجسرون على القيام بحملـة أو واقعـة أو رحلة أو تشـييد بنـاء إلا إذا حصلوا على تأكيد من المنجمين بأن النجوم في أوضاع ملائمة لهذه الأغراض. ولقد حرص هنـري الخامس ملك إنجلترا علـى الاحتفاظ بإصطرلاب ليرسـم خريطة السماء، ولما جاء زوجته المخاض قرأ بنفسه طالع الطفـل وكان بلاط متياس كورفينوس الـذي يضم صفوة المثقفين يرحب بالمنجمين ترحيبه بعلماء الإنسانيات.

واعتقد النـاس أن الملائكة تهدي النجوم، وأن الهواء يزخر بالأرواح الخفية، بعضها من الجنة وبعضها من الجحيم. وسكنت العفاريـت كل مـكان وبخاصة في مخدع الإنسـان، وينسـب إليها بعض الرجال ما يسـلب منهم بالليل، كما نسـب إليها بعض النساء مـا يصيبهن من حمـل في غير أوانه، وأجمع علمـاء الدين على أن أمثـال تلك الخطيـات الخبيثات لهن وجود حقيقي ويسـتطيع كل امرئ ساذج في كل منعطف وكل لحظة أن يخرج من عالم الحس إلى مملكة من الكائنات والقوى المسـحورة. ولكل شـيء طبيعي

صفـات خارقـة. وكانت كتب السـحر مـن أروج الكتـب في ذلك العصـر. ولقد عُذب أسـقف كاهورز وجلد وألقـى به في المحرقة (١٣١٧م) بعد أن اعترف بأنه أحرق تمثالاً من الشـمع للبابا يوحنا الثانـي والعشـرين آملاً أن يلقـى الأصل، مصير الشـمع، كما وعد بذلك فن السحر. واعتقد الناس أن فطير القربان بتقديس القسيس ينزف دم المسيح إذا خدش.

وخبـت شـهرة الكيماويين، ولكنهم اسـتمروا فـي أبحاثهم الأمينة وخدعهم البراقة على السواء وفي الوقت الذي أنكرتهم فيه المراسـيم الملكية والبابوية فقد أقنعـوا بعض الملوك بأن الكيمياء قـد تفعـم الكنـوز متـى نضبـت، وكان السـذج يبتلعـون «الذهب المـذاب» الـذي أكد لهم أنه يشـفي كل شـيء إلا الغفلة (ولا يزال المرضى والأطباء يتعاطون الذهب في علاج داء المفاصل).

ونافـس علـم الطب فـي كل خطـوة مـن خطواتـه، التنجيم وعلـوم الديـن والدجل. ونسـب جميع الأطبـاء تقريبًا تشـخيص مـرض من الأمـراض إلى البرج الذي ولد أو مـرض فيه المريض، وهكـذا كتـب الجـراح العظيـم جـي ده شـولياك (١٣٦٣م): «إذا جـرح امـرؤ في عنقـه والقمر فـي برج الثـور، فالإصابـة خطيرة»، ومن أقدم الوثائق المطبوعة، تقويم نشـر فـي منيز (١٤٦٢م) يبين أحسـن الأوقات مـن ناحيـة طوالع النجـوم لفصد الدم. ونسـبت الأوبئـة بين جمهـرة الناس إلى اجتماع سـيئ الطالـع بين النجوم.

وأرجع ملايين المسيحيين، الشفاء إلى العقيدة وربما كان ذلك لخيبة أملهم في الطب. وذهب آلاف إلى ملوك فرنسا وإنجلترا يستشفون من الدرن الخنزيري بلمسة ملكية، ويبدوا أن هذه العادة قد بدأت بلويس التاسع الذي أدت قداسته إلى الاعتقاد بقدرته على عمل المعجزات. وظن الناس أن قوته، قد انتقلت منه إلى خلفائه، كما انتقلت عن طريق إيزابلا أميرة فالوا. وهي أم إدوارد الثالث، إلى ملوك إنجلترا. وحج آلاف أكثر إلى أضرحة تشفي المرض؛ وحولوا بعض القديسين إلى أطباء متخصصين، وهكذا اكتظت كنيسة القديس فينوس بالمصابين بداء الرقص الزنجي، إذ ساد الاعتقاد بأن هذا القديس متخصص في علاج هذا المرض وأصبح قبر بييرده لكسمبورج، وهو كاردينال مات في الثانية عشرة من عمره بسبب غلوائه في الزهد، مزارًا محببًا، ونسب شفاء ألف وتسعمائة وأربعة وستين شخصًا إلى قدرة عظامه السحرية، وذلك في خلال خمسة عشر شهراً من وفاته. وراجت صناعة الدجالين، ولكن القانون بدأ يقاومهم. ففي عام ١٣٨٢م، حكم على روجر كليرك، الذي ادعى علاج المرضى بالرقي، أن يسير في شوارع لندن راكبًا وقد علقت المباول حول عنقه.

واعتقد معظم الأوربيين في السحر، أو بعبارة أخرى، في قوة بعض الأشخاص على التحكم في الأرواح الشريرة والحصول على معاونتها- لقد كانت القرون المظلمة متنورة نسبيًا في هذه الناحية.

ولقد أنكر القديسان بونيفاس واجوبارد الاعتقاد في السحر باعتباره ذنبًا وعملًا يوجب السخرية، وجعله شارلمان جريمة يعاقب مقترفها بالإعدام وكان يشنق كل شخص يتهم بصناعة السحر، وحرم البابا جريجوري السابع هلديبراند، على محكمة التفتيش، أن تحاكم السحرة على أنهم السبب في العواصف والطواعين ولكن تأكيد الوعاظ لحقيقة جهنم ومكائد إبليس أذكى الاعتقاد الشعبي في وجود الشيطان وشره في كل مكان أو وجود أحد أعوانه، وكم من عقل مريض أو نفس يائسة اعتصمت بفكرة استحضار أمثال هذه الشياطين لمعاونتها. واتهم بالسحر أنواع شتى من الناس، يدخل فيهم البابا بونيفاس الثامن. ولقد شنق الرجل الارستقراطي انجراند ده ماريني بتهمة السحر عام ١٣١٥، وأمر البابا جون الثاني والعشرون عام ١٣١٧ بقتل عدد من الأشخاص غير المعروفين، لأنهم دبروا اغتياله مستعينين بالشياطين. وأنكر جون مرارًا الالتجاء إلى الشياطين وأمر باضطهاد من يقترفه، وفرض العقوبات عليه، ولكن الناس فسروا مراسيمه بأنها تؤيد اعتقادهم في وجود القوى الشيطانية وإمكان الانتفاع بها. وتضاعف الاتهام بالسحر بعد عام ١٣٢٠، وشنق كثير من المتهمين أو ألقي بهم في المحرقة. وساد في فرنسا الرأي القائل بأن شارل السادس قد أصيب بالجنون بوسائل سحرية، واستخدم ساحران لإعادة العقل إليه، فلما أخفقا جز رأساهما (١٣٩٧). وفي عام ١٣٩٧ أصدرت كلية الدين بجامعة باريس، ثمانية وعشرين مقالة تحرم السحر، وإن اعترفت

بقدرته بين حين وآخر. وعد قاضي القضاة جرسون أن من الهرطقة أن يناقش المرء وجود الشياطين أو نشاطها.

أما الكهانة فهي ممارسة السحر بوساطة أشخاص نسبوا إلى عبادة إبليس باعتباره كبير الشياطين الذين يعملون على استخدامها في اجتماعات ليلية أو سبتية. ويذهب الاعتقاد الشعبي إلى أن السحرة، وأغلبيتهم من النساء يزودون بقوى خارقة في مقابل عبادتهم لإبليس. وانتدابهم على هذا الوجه يجعلهم يسيطرون على النواميس الطبيعية، ويجلبون النحس أو الموت لمن يريدون. وأيد علماء أمثال اراومس وتوماس مور وجود الكهانة في الواقع، وشك فيها بعض القسس في كلونيا، وأيدت وجودها جامعة كلونيا. وزعم معظم رجال الكنيسة- ويوافقهم في ذلك بعض المؤرخين من غير رجال الدين إلى حد ما- أن الاجتماعات السرية بالليل إنما هي تعلات لعلاقات جنسية مختلطة ولتحريض الشباب على الفسق، واعترف بعض السحرة اعترافًا مزعومًا لشخص أو لآخر بالأعمال الشريرة التي أسندت إليهم، وذلك إما بوساطة وهم مخبول، وإما للتخلص من التعذيب، ولعل هؤلاء السحرة الشعبيين قد قاموا بما يشبه التحذير النهائي لمسيحية مثقلة، وبنزعة ترفيهية من ناحية ومتمردة من ناحية أخرى لعبادة إبليس باعتباره العدو القوي لإله يحكم على كثير من المباهج بالكبت ويلقي بكثير من الأرواح في الجحيم، وقد تذكر هذه

الشـعائر الخفيـة وتؤكد من جديد العقائد فـي الأعياد الوثنية لآلهة الأرض والحقـل والغابـة الخاصـة بالتناسـل والإخصـاب أمثـل باخوس وبريابوس وسيريس دفلورا.

واجتمعـت جهود الأوسـاط المدنيـة والدينية علـى قمع ما رأوه أكبـر فسـاد وكفـر. وانتدب عدد مـن البابوات- فـي الأعوام ١٣٧٤ و١٤٠٩ و١٣٤٧ و١٤٥١ وبخاصـة البابا إنوسـنت الثامن عـام ١٤٨٤- عملاء فـي محكمـة التفتيش للتصرف مع السـحرة باعتبارهم هراطقة منبوذين، تصيب جرائمهم ووسـائلهم الثمرات والأرحـام بـالأذى، وقد تحـول مزاعمهـم جماعات بأسـرها إلى الشـيطنة واعتمد البابوات اعتمادًا حرفيًا على آية في سفر الخروج (الإصحـاح ٢٢: الآية ١٨) «لن تترك سـاحرة تعيـش». ومع ذلك فإن المجالس الكنسـية قبل سـنة ١٤٤٦ كانت تكتفـي بالعقوبات المعتدلـة إلا إذا كان المذنـب السـابق العفو عنه قد عاد إلى سـابق إجرامـه. ولقـد أحرقت محكمـة التفتيـش عـام ١٤٤٦، عددا من السـحرة فـي هيلدلبـرج، وأحرقـت عـام ١٤٦٠ اثني عشـر رجلًا وامـرأة في أراس، وأطلق عليهم الفـودوا كما أطلق على الهراطقة (waldenses) وقام السـحرة في فرنسـا برحلـة عبر الأطلنطي حتى أطلقـت كلمـة فودوويـزم (voodooism) علـى سـحر الزنـوج في المسـتعمرات الفرنسـية في أمريكا. وفزع جاكوب سبرنجر قاضي محكمـة التفتيـش الدومينيكـي فزعًـا شـديدًا من انتشـار السـحر

فأصدر عام ١٤٨٧ دليلا رسميا لمطاردة السحرة عنوانه: «مطرقة السحرة». وقدم مكسميليان الأول وكان إذ ذاك ملك الرومان لهذا الدليل برسالة تقريظ قال فيها أعظم أثر هائل ضد الخرافة أنتجه العالم. وقال سبرنجر إن هؤلاء النسوة الشريرات بتقليب خميرة شيطانية في قدر أو بوسائل أخرى، يستطعن إحضار أسراب من الجراد والديدان لتلتهم محصولًا كاملًا، وهن يستطعن أن يصبن الرجال بالعقم ويجعلن النساء عقيمات، ويغضن لبن المرضع أو يجهضن الحامل، ويستطعن بنظرة واحدة فقط أن يجلبن الحب أو الكراهية، المرض أو الوفاة. ويخطف بعضهن الأطفال ويشوينهم ويأكلونهم. ويستطعن رؤية الأشياء عن بعد ويتنبأن بالجو، وفي إمكانهن أن يحولن أنفسهن أو غيرهن إلى حيوانات، وأبدى سبرنجر دهشته لماذا يفوق الساحرات عدد السحرة من الرجال، وختم بحثه بقوله إن ذلك لأن النساء أخف رؤوسا وأكثر شهوة من الرجال، وأضاف أنهن، إلى هذا كله، وسائل محبوبة دائمة لإبليس. ولقد أحرق ثمانية وأربعين منهن في مدى خمس سنوات. ومنذ عهده، زاد هجوم رجال الدين على صناعة السحر حتى بلغ أوجه في القرن السادس عشر، في كنف الكاثوليك والبروتستانت على السواء، وبهذا الضرب من العنف الهائل تفوقت الأزمنة الحديثة، على العصور الوسطى. وفاخر أحد موظفي محكمة التفتيش عام ١٥٥٤، بأن محكمة التفتيش، قد أحرقت ثلاثين ألفا من السحرة على الأقل، وإذا تركوا بلا عقاب فقد ينزلن الخراب بالعالم كله.

ولقد ألفت كتب كثيرة في هذا العصر لمحاربة الخرافات وتحتوي كلها على خرافات. ووجه أجوستينو ترينفو إلى البابا كلمنت الخامس، رسالة ينصحه أن يحرم السحر الخفي ولكن ترينفو رأى أن الطبيب لا يغتفر له أن يجري فصادًا في مراحل معينة من أوجه القمر. ووجه البابا جون الثاني والعشرون ضربات قاسية للكيمياء (١٣١٧) والسحر (١٣٣٧)، ونعى ما ظنه انتشارًا متزايدًا لتقديم القرابين إلى الشياطين، وأخذ العهود على إبليس وصناعة التماثيل والخواتم والأمزجة للأغراض السحرية، وأصدر قرارًا تلقائيًا بالحرمان ضد جميع الذين يمارسون هذه القوانين، ولكنه أضمر اعتقادًا في قدرتها وكان نيقولا أرزم هو الخصم العنيد للتنجيم في ذلك العصر، وقد توفي وهو أسقف ليزيوه عام ١٣٨٢. وسخر من المنجمين، الذين لا يستطيعون تحديد جنس الطفل قبل ولادته وإن زعموا أنهم يستطيعون التنبؤ بمصيره على الأرض بعد ولادته، وقال أرزم إن مثل هذه الطوالع حكايات يسردها الزوجات العجائز وكتب مرددًا عنوان شيشرون وجهده قبل ذلك بأربعة عشر قرنًا عن: «قراءة الغيب» في الرد على مزاعم العرافين ومفسري الأحلام وأمثالهم. ولقد سلم وسط شكه في العلوم الخفية بصفة عامة، بأن الأحداث يمكن أن تفسر بأنها من عمل الشياطين أو الملائكة. وقبل فكرة «عين الحسود». وظن أن المجرم يعتم المرآة بنظره فيها. وأن نظرة الوشق قد تخترق الحائط. واعترف بالمعجزات التي في الكتاب المقدس، ولكنه رفض التفسيرات

الخارقة إذا كانت العوامل الطبيعية تكفي للتفسير، وقال نيقولا: إن كثيرين من الناس يصدقون السحر لأنهم يفتقرون إلى معرفة العلل والتطورات الطبيعية. وهم يقبلون بالسماع ما لم يروه، ولذلك قد تصبح أسطورة -مثل ساحر يتسلق حبلًا ألقي به في الهواء- عقيدة شائعة (وهذه هي أول رواية تذكر فيها أسطورة تسلق الحبل) واحتج أرزم تبعًا لذلك بأن انتشار عقيدة ما ليس دليلًا على صدقها بل إذا شاهد كثير من الناس حادثة تناقض تجربتنا العادية للطبيعة فيجب أن تتردد في تصديقهم. يضاف إلى ذلك أن الحواس من السهل خداعها فإن ألوان الأجسام وأشكالها وأصواتها تختلف تبعًا لمسافة أعضاء الحواس وأضوائها وحالاتها، والجسم وهو ساكن قد يبدو متحركًا، والتحرك قد يبدو ساكنًا، وتبدو قطعة النقود الموضوعة في قاع قنينة مملوءة بالماء، أبعد منها في قنينة فارغة. ويجب أن تفسر الأحاسيس بالفعل، وهذا أيضًا عرضة للخطأ. ويقول أرزم، إن خدع الحواس والفعل تفسر كثيرًا من الأعاجيب التي تنسب إلى القوى الخارقة أو السحرية.

وعلى الرغم من هذا التقدم الجريء نحو الروح العلمي، فإن الخرافات القديمة بقيت أو عدلت أشكالها فحسب. ولم تكن مقصورة على الدهماء فقد دفع إدوارد الثالث ملك إنجلترا مبلغًا باهظًا من المال للحصول على قارورة، كان على يقين من أنها من مخلفات القديس بطرس وعرضت على شارل الخامس ملك

فرنسا في سانت شابل، قارورة، قيل إنها تحوي بعض دم المسيح وسأل حكماءه وعلماء الدين عنده عن صحتها، فردوا متحفظين بالإيجاب، وفي هذا الجو جاهدت التربية والعلم والطب والفلسفة لتنمو»[١].

كتب بطليموس كتابه تيترابيبلوس (Tetrabiblos) المعروف بكتاب المقالات الأربع، بيّن بطليموس في مقدمة كتابه أن هناك علاقة بين الكواكب وحياة الإنسان على الأرض، وكانت حجته الضعيفة هو تأثير الكواكب والشمس والقمر على الأنهار والمد والجزر والنباتات مما يعطيها احتمالية للتأثير على حياة الإنسان الاختيارية، لقد بالغ المنجمون من الخصائص الفيزيائية للكواكب والنجوم وحمّلوها ما لا تحتمل، وهذه الملحوظة تنطبق على كثير من العلوم الزائفة كمسألة الأحجار الكريمة الياقوت أو الزمرد حملت ما لا تحتمل أيضًا، بهذا الشكل غير المعقول تطورت هذه العلوم من بذور حقيقية إلى علوم زائفة، وهذا النقص تلحظه في كثير ممن يتناول صحة هذه العلوم، تراه ينطلق من خصائص الأحجار الكيميائية والفيزيائية كالياقوت مثلًا ثم



(١) قصة الحضارة ٢٣/ ١١٦.

يقفـز قفزة إلى قدرتها على الشـفاء وجلب السـعادة والرزق الوفير وتسـهيل الأمور وإنجاب الأولاد وما شـابه ذلك، وهذه العلاقات غيـر متماسـكة البنيان وبذلـك يكون مصيرها السـقوط والفشـل، لكـن للأسـف الشـديد تذهـب الأمور إلى أسـوأ من ذلـك وتكون المسـألة أدهى بكثير، فهؤلاء يسـتعملون طرقًا ذكيـة يدمجون فيها أكاذيبهـم فـي منظومة العلم، وهناك الكثير من الأكاذيب المنتشـرة حاليًـا يدخلونهـا فـي منظومة العلـم. لقد بيّـن الشـيخ الرئيس ابن سـينا بطلان علم التنجيم في رسـالة كتبها بعنوان رسـالة في إبطال أحكام النجوم، أن المنجمين مفلسـون فكريًّا لا يوجد عندهم دليل وقـد اعتمدوا أقوالهم الموروثة من دون أدلـة على إثباتها، والكثير من العلماء المسـلمين وغير المسـلمين دحضوا التنجيم والسـبب الرئيـس لأنه يفتقر إلـى الدليل كالفارابـي والبيروني وابـن الهيثم، ومن زمن أوغسطين(Augustine) إلى هوكنج وواينبرغ مرورًا بابن سينا والفارابي، كل هؤلاء تعاملوا مع التنجيم على أنه علم زائف.

ونسـوق مـن غيـر المسـلمين الفيلسـوف اليهودي موسـى بـن ميمـون، وقـد عـاش فـي القـرن الثاني عشـر الميـلادي (١١٣٥م-١٢٠٤م)، يقـول: «من المحظور الاشـتغال بالتنجيم، واستخدام التعاويذ، أو الهمس بالشعوذة...فكل هذه الممارسات لا تزيـد عـن كونهـا أكاذيب وخدعا اسـتخدمتها الشـعوب الوثنية القديمـة لخـدع الجماهيـر وتضليلها...أمـا الأذكيـاء الحكمـاء

فيعرفون ما هو أفضل»[١].

المنجمون العرب أخذوا هذه العلوم من الحضارات الأخرى الهندية والفارسية، إلا أن التأثير الأكبر كان من الحضارة اليونانية، يقول الدكتور كامل حمود في كتابه تاريخ العلوم عند العرب: «إلا أن التأثير الأكبر كان للأصول اليونانية التي ترجمت إلى اللغة العربية، ولعل التأثير الأهم في هذا الشأن كان لـ(كتاب المجسطي) لبطليموس، الذي ترجم أكثر من مرّة وعلى يد أكثر من مترجم»[٢].

التنجيم ليس علمًا منطقيًّا على الاطلاق بل يقوم على فرضيات وإمكانات دون وجود دليل على ذلك، وهو بالطبع يختلف اختلافًا عن علم الفلك الذي يستند على أدلة منطقية، فإذا كنا لا نستطيع أن نبرهن عن علاقة النجوم بحياتنا على الأرض كالزواج والسفر، فما الذي جعل هذا الاعتقاد يتفشى بشكل كبير، وما الذي يجبرنا على التمسك به؟ قدم لنا أوغسطين[٣] برهانًا مقنعًا على خرافة التنجيم وهي مسألة التوأم، فعلى الأغلب أن أقدارهم تختلف في هذه الحياة، فإذا كان التنجيم صحيحًا فهذا الشيء من المفترض ألا يكون كذلك.

تطورت خرافة التنجيم حتى وصلت إلينا كما نراها بشكلها

(١) عالم تسكنه الشياطين/ ٢٦٠.

(٢) تاريخ العلوم عند العرب/ ١٠٣.

(٣) فيلسوف روماني عاش في القرن الخامس الميلادي (٣٥٤م-٤٣٠م)، يعتبر من أشهر الشخصيات المؤثرة في الديانة المسيحية الغربية.

الحالي، انتشرت الظاهرة في الأسواق الشعبية وانتشرت المحطات الفضائية وأصبحت حرفة تدرُّ على أصحابها المال الكثير، ولو فتشت في المكتبات والأسواق الشعبية والصحف والمجلات سترى ما يصدم العقل من حيث روجان الكتب وأسعارها المرتفعة وتلك الملايين التي تكسبها المحطات الفضائية، وللأسف الشديد فإن الناس تزداد بكثرة على أبواب هؤلاء الذين يخدعونهم، لكن العقلاء على يقين تام أنه لا مكان للتنجيم في عقولهم، فهو ليس بأكثر من علم زائف تطور من آلاف السنين حتى وصل لشكله الحالي.

منذ أقل من ثلاث مئة سنة ولد (وليم ميلر–William Miller) في أمريكا وبالتحديد في عام ١٧٨٢م، وهو مؤسس حركة الأدفنتيست السبتيين (Adventist)، ومعناه: المجيئيون الذين يعتقدون بالمجيء الثاني للمسيح. درس سفر دانيال النبي وبالتحديد الإصحاح الثامن والتاسع، «فقال لي: إلى ألفين وثلاث مئة صباح ومساء، فيتبرأ القدس»[١]، «سبعون أسبوعًا قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا، ولكفارة الإثم، وليؤتى بالبر الأبدي، ولختم الرؤيا والنبوة، ولمسح قدوس القدوسين * فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعًا، يعود ويبنى سوق وخليج في ضيق الأزمنة *

(١) دانيال٨:١٤.

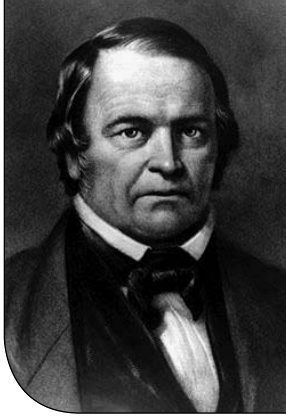
وبعد اثنين وستين أسبوعًا يقطع المسيح وليس له، وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس، وانتهاؤه بغمارة، وإلى النهاية حرب وخرب قضي بها * ويثبت عهدًا مع كثيرين في أسبوع واحد، وفي وسط الأسبوع يبطل الذبيحة والتقدمة، وعلى جناح الأرجاس مخرب حتى يتم ويصب المقضي على المخرب»[1].

واستنتج من ذلك أن المسيح سيعود في عام ١٨٤٣م، من خلال حسابه بالأرقام التي وردت في السفر، وأخذ ينشر عقيدته في الولايات المتحدة الأمريكية بمجيء المسيح، أتى الموعد دون شيء يذكر، وكمحاولة للهرب من الفشل وإنقاذ الموقف جُدد الموعد بحساب جديد في ٢٢ أكتوبر من عام ١٨٤٤م، وباع الناس المعتنقين لهذه الفكرة مملتكاتهم ولبسوا الثياب البيضاء وخرجوا إلى الجبال يستقبلون المسيح، ولم يحصل شيء يذكر، ووصف ذلك اليوم بيوم الإحباط العظيم، ونتيجة لذلك انفصل الكثير من أتباع هذه الدعوة، والقليل هم الذين بقوا معه، وبنفس الطريقة لا بُدّ من إنقاذ الموقف.

والرابطة الأولى التي أنشأها وليم بين السفر والتاريخ، أنه حسب اليوم مقابل السنة، أي أن الأسبوع يساوي سبع سنين، وبناء أورشليم ٤٥٧ ق.م، والمسافة بينها وبين الأحداث المذكورة في السفر ٤٩٠ سنة، وعندما نطرح العدد من ٢٣٠٠ سنة يكون الناتج

(١) دانيال ٨:٢٤-٢٧.

١٨١٠ سنة، سنقوم بزيادة ٣٣ سنة، وهو التاريخ المزعوم لصلب المسيح، الناتج النهائي ١٨٤٣، وهي سنة قدوم المسيح، لا أدري ما هو الوصف المناسب لهذه الرابطة السخيفة وما كان على شاكلتها، وهذا بالطبع نتيجة الجهل والفهم الخاطئ، وبالفعل بدأ وليم بنشر هذه البدعة عام ١٨٣١م، واستمر يروج لهذه السخافات بمساعدة الذين اعتنقوا دعوته حتى أتى التاريخ دون شيء يذكر.



وليم ميلر

بالطبع هناك أمثلة كثيرة على نفس التردد من السيناريو السابق، في مقطع على اليوتيوب قام أحد الروحانيين يسمى بأبي علي الشيباني بحساب سنة خروج المهدي من خلال علم الحساب واستنتج أن الإمام المهدي سيخرج في عام ٢٠١٥م، لقد كتب هذه الجملة (متى ظهور الإمام المهدي) وهذه العبارة تساوي بحساب الجمّل (٤٤١+١١١١+١١٣+٩١)=(١٧٥٥)، إن الوسيلة الوحيدة المقنعة بعض الشيء للوصول إلى الرقم (٢٠١٥) أن يضيف الرقم (٢٦٠)، وهذا الرقم هو السنة الهجرية لغيبة الإمام الصغرى، والغريب في الأمر بعد أن أضاف الرقم بالسنة الهجرية استخرج الناتج بالميلادي، وهذه بحد ذاتها مغالطة منطقية بحتة[1].

(1) http://www.youtube.com/watch?v=rZH4PPmhKUA.

وحساب الجمل يأخذ الشكل التالي، حيث كل حرفٍ في اللغة العربية يقابل رقمًا:

أ=١، ب=٢، جـ=٣، د=٤، هـ=٥، و=٦، ز=٧، حـ=٨، ط=٩، ي=١٠، ك=٢٠، ل=٣٠، م=٤٠، ن=٥٠، س=٦٠، ع=٧٠، ف=٨٠، ص=٩٠، ق=١٠٠، ر=٢٠٠، ش=٣٠٠، ت=٤٠٠، ث=٥٠٠، خ=٦٠٠، ذ=٧٠٠، ض=٨٠٠، ظ=٩٠٠، غ=١٠٠٠.

وقبل وليم خرج لنا المنجم الفرنسي اليهودي المسيحي نوستراداموس (Nostradamus) وهو أشهر منجم عرفته الأرض، يستشيره الملوك والملكات في فرنسا، عاش في القرن السادس عشر الميلادي، كتب رباعيات مبهمة جدًّا تقع في ألف بيت من الشعر تقريبًا، تنبأ فيها بالأحداث من زمانه وحتى نهاية العالم، يقول المدافعون عنه إنه تنبأ بالثورة الفرنسية والحرب العالمية الأولى والثانية وصعود هتلر للسلطة وسقوط الشاه وأحداث ١١ سبتمبر والكثير من هذه الأكاذيب، هناك سبب قوي جدًّا يجعلنا نرفض نبؤات نوستراداموس، ببساطة لا توجد رباعية واحدة تنبأت بحدث في الماضي ثم تحقق، جميع ما قيل عنه أنه تحقق هو بعد وقوع الحدث! خرج لنا هذا المنجم بنبؤاته الغامضة، ورباعيته المبهمة والمشفرة والمكوّدة التي لا يفهم منها شيء، وتحتمل عشرات التأويلات، ورغم الغموض الذي يحيط بها فقد أتت هذه الرباعية رقم ٧٢ من القسم العاشر أو القرن العاشر كما سماه، لأنه يحتوي على مئة مقطوعة شعرية رباعية، باستثناء الفصل السابع منه الذي

احتوى على ٤٢ رباعية لسبب مجهول، ويذكر فيها هذا التاريخ ١٩٩٩م:

اللغة الفرنسية:

L'an mil neuf cens nonante neuf sept mois،
Du ciel viendra vn grand Roy d'effrayeur:
Resusciter le grand Roy d'Angolmois،
Auant apres Mars regner par bon-heur. (1)

اللغة الإنجليزية:

The year 1999، seventh month،
From the sky will come a great King of Terror:
To bring back to life the great King of the Mongols،
Before and after Mars to reign by good luck.(2)

اللغة العربية:

في عام ١٩٩٩، في الشهر السابع
من السماء سوف يأتي ملك الرعب العظيم
إنه سيعيد إلى الحياة ملك المغول العظيم
قبل وبعد المريخ ليحكم بحظ طيب

---

(1) The Compleat Works Of Nostradamus/321.
(2) The Compleat Works Of Nostradamus/321.

فسـرت هذه النبؤة بخروج المهدي المنتظـر، ومما يبعث على الضحك أنها فسـرت بظهور أحمد الحسني، وكل جماعة تفسرها بما يتـلاءم مع رغباتها، ومن حسـن الحظ أن أحداث ١١ سـبتمبر وقعت فقـام البعـض بتأويلها على أحداث ١١ سـبتمبر، فلـم وثائقي بثته قناة العربية حول نوستراداموس، بعنوان (تنبؤات نوستراداموس وأسطورة كتاب القرون وما حدث عبر ٤٠٠ عام)[1]، التي شـرحها فيكتور بينز، الذي يدافع بقوة عن مقدرة نوستراداموس على التنبؤ بالمستقبل:

في عام ١٩٩٩، في الشهر السابع

سيأتي ملك الإرهاب من السماء

بمـا أن رباعيات نوسـتراداموس كتبت باللغة الفرنسـية هذا يعطيها مسـاحة أكبر للتلاعب بها عنـد ترجمتها للغة أخرى كاللغة العربيـة، اسـتبدلت بكلمة الرعب الإرهاب، وأنـا على يقين تام لو أن إنسـانًا عاش بعد ألف سـنة يسـتطيع أيضًا أن يجد لجميع بذور رباعيات نوستراداموس بيئة زراعية مناسبة.

يقـول فيكتـور مدافعًا بـكلام ضعيف جـدًّا وغير متماسـك البنيـان: نحن الآن نسـتعمل التقويـم الغريغوري، بالتالي فالشـهر السـابع هـو يوليـو، لكـن حيـن كان نوسـتراداموس حيًّـا كانـوا يسـتعملون التقويم اليوليوسـي، لذلك الشهر السـابع هو سبتمبر،

(1) http://www.youtube.com/watch?v=VBDHIE3zapM.

كل هـذه العلاقات كي يكتمل الفلم ويخرج بشـكل جيّد، هذا هو حـال جميع نبـؤات نوسـتراداموس العلاقة غامضة جـدًّا وضعيفة وغير متماسكة البنيان.

هنالـك بالطبـع الكثير من الروايـات الزائفة في تحقق بعض نبوءات نوسـتراداموس، مما جعل الناس يعتقدون فيها وقد نسـي النـاس بالطبع تلـك التي لـم تتحقـق وروّجوا لما تحقـق، وهذا لا يعني بالطبع أن هناك نبوءات تحققت، فالذي يقال عنه أنه تحقق ما هو إلا تطبيق لحدسهم، فدائرة رباعياته غامضة مما يعطي محيطها القـدرة علـى احتضان جميع أحـداث الحياة، لهذا نخـرج بحقيقة واضحة أن تنبؤات نوستراداموس لا قيمة لها إلا بالتأويلات.

إن هذا أشـبه بالكتاب المقدس الذي قيل عنه حتى الشيطان يسـتطيع أن يقتبس منه بمـا يتلاءم مع هدفه، كل جيل يجد تبريرًا لأفعاله من الكتاب المقدس من أمور بسـيطة إلى أمور أشـد ماتكون خطـرًا كالعلاقات المحرمـة والقتـل، وهـذا موجود في معظـم الديانـات ولكـن بدرجـات متفاوتة، وهذا أحد الأسـباب الرئيسة لانقسـام الديانات إلى فـرق كل فرقة تعتقد أنها على صـواب، ويعود ذلك



صورة تخيلية نوستراداموس، جون بولنجر

إلى التناقضات في شرح النص.

وكي نقترب من الصورة أكثر، سأقوم بضرب مثال لإحدى نبوءاته التي تحققت، ورقمها٣٥ من القسم الأول أو القرن الأول كما سماه، تقول هذه النبوءة:

اللغة الفرنسية:

Le lyon ieune le vieux surmontera،

En champ bellique par singulier duelle:

Dans cage d'or les yeux luy creuera،

Deux classes vne، puis mourir، mort cruelle. (1)

اللغة الإنجليزية:

The young lion will overcome the older one,

in a field of combat in single fight:

He will pierce his eyes in their golden cage;

two wounds in one، then he dies a cruel death. (2)

اللغة العربية:

سيتغلب الأسد الشاب على الأكبر منه سنًا

(1) The Compleat Works Of Nostradamus/21.

(2) The Compleat Works Of Nostradamus/21.

في ميدان القتال وفي معركة واحدة
سيفقأ عينيه وهما في قفصهما الذهبي
جرحان في مكان واحد ثم يموت ميتة قاسية

إن من يقرأ هذا الكلام يلاحظ الغموض الذي يحيط به، لهذا فالذين يدافعون عن خرافات نوسترادامو س يقولون إن هذا تحقق بموت هنري الثاني ملك فرنسا! وأنا لا أعتقد أنه من الممكن الاستدلال ببرهان عقلي على مثل هذه الخرافات، ولتفصيل أكثر يستطيع القارئ الرجوع إلى كتاب دراسة في تنبؤات نوسترداموس للدكتور شرف الدين الأعرجي، والكتاب متوفر على شبكة الانترنت.

من الممكن تقديم العديد من الأمثلة التي ذكرها في رباعياته مع ذكر أقوال المدافعين إنها تحققت بالفعل، بفعل إنشاء علاقات سخيفة جدًّا، لكن المسألة تحتاج إلى دراسة أكثر، ويمكن للقارئ الرجوع إلى مواقع الإنترنت سيشاهد مئات المواقع وربما الآلاف التي تتحدث حول نبوءاته بين مؤيد ومعارض، كما يمكن القارئ الحصول على كتابه في كثير من مواقع الإنترنت.

حول التنجيم يذكر كتاب قصة الحضارة: «وكان الكثيرون يؤمنون بأن الأمراض تنجم عن العين الشريرة أو غيرها من أعمال السحر، وأن في الإمكان شفاءها بالجرعات السحرية-وهذا أيضًا لا

يبعد كثيرًا عن عاداتنا في هذه الأيام. وكان أكثر العلاج يعطى حسب موقع الكواكب، ومن هنا دراسة طلبة الطب للتنجيم. وقد اقترب التنجيم من العلم؛ لأنه افترض حكم القانون في الكون؛ ولأنه اعتمد إلى حدٍّ كبير على التجربة. صحيح أن الاعتقاد بأن حركات النجوم ومواقعها هي التي تقرر الأحداث البشرية لم يكن شاملًا كما كان من قبل، ومع ذلك فقد كان في باريس ٣٠,٠٠٠ منجم في القرن السادس عشر، كلهم على استعداد لكشف الطالع لقاء قطعة من النقود. وراجت التقاويم الحاوية لتنبؤات المنجمين رواجًا كبيرًا. وقد قلدها رابليه ساخرًا في «التنبؤات البنتاجرويلية» للسيد ألكوفريباس. ووافقه في هذه النقطة اللوثر والسوربون، فنددا بالتنجيم في جميع صوره. واستنكرت الكنيسة رسميًّا تنبؤات المنجمين؛ لأنها تتضمن معنى الحتمية وخضوع الكنيسة للنجوم؛ ومع ذلك فإن البابا بولس الثالث، وهو من أعظم مفكري ذلك العصر، كان على حد قول سفير في القصر البابوي، «يأبى أن يدعو لأيِّ اجتماع هام لمجمع الكرادلة، وأن يخرج في أيِّ رحلة، دون تخير للأيام الملائمة ورصد لحركات الأبراج». وكان فرانسوا الأول، وكاترين دمديتشي، وشارل التاسع، ويوليوس الثاني، وليو العاشر، وأدريان السادس- كانوا كلهم يستشيرون المنجمين. وقد غير ملانكتون تاريخ مولد لوثر ليهيئ له طالعاً أسعد، وتوسل إليه ألا يسافر والقمر هلالًا بعد.

وما زال أحد منجمي هذه الفترة مشهورًا، فالمنجم

نوسترادامو س كان بالفرنسية ميشيل دنوتردام. وقد زعم أنه طبيب وفلكي، وارتضته كاترين دمديتشي منجمًا شبه رسمي، وبنت له مرصدًا في ليزال، وفي عام ١٥٦٤م، تنبأ لشارل التاسع بأنه سيعمر إلى التسعين، ولكنه مات بعد عشر سنوات في الرابعة والعشرين. وقد ترك هذا المنجم عند موته (١٥٦٦م) كتاب تنبؤات صاغها بحكمة بحيث تحتمل معنيين. وبحيث يمكن أن تصدق بعض سطور الكتاب على أيِّ حدث تقريبًا في التاريخ اللاحق»[١].

في زماننا وقبل بضع سنوات قامت جمعية الفلك بالقطيف بإنشاء قسم في منتداها للمنجمين، وقد وضع هؤلاء المنجمون من دول مختلفة من الوطن العربي نبوءاتهم التي ستحدث خلال السنة القادمة، وبعد فحصها كان مصيرها السقوط والفشل، ويمكن للقارئ الرجوع إلى منتدى جمعية الفلك بالقطيف لمعرفة تفاصيل أكثر.

وخلاصة الأمر أن هؤلاء المنجمين يخترعون أوهامًا من مخيّلتهم ويطبقون حدسهم في النظر إلى المستقبل من خلال ظنونهم واحتمالاتهم، وعندما نجمع نبوءاتهم ونفحصها جيِّدًا يكون مصيرها السقوط والفشل.

هناك سبب بسيط جدًّا يمكننا من خلاله أن نرفض التنجيم

(١) قصة الحضارة ٢٧/ ١١٨.

ونعتبره علمًا زائفًا، ببساطة أن التنجيم انطلق من قاعدة أن الأرض مركز الكون، فتكون جميع الاستنتاجات المبنية على هذه القاعدة خاطئة، وهذه الحقيقة جديرة بالملاحظة، فهناك قاعدة تقول: ما بني على باطل فهو باطل.

مسألة علم الغيب مرفوضة سواءٌ بالتنجيم أو بقراءة الكف أو الطالع أو الدخان والفنجان أو بعلم الحروف، فالإنسان يملك إرادة حرة وهو مسؤول عن أعماله الاختيارية، فالغيب ليس قراءة فنجان ولا هو النظر في النجوم وليس علمًا يتاح للمرء أن يفك ألغازه كما فك نيوتن لغز النظام الشمسي وقوس قزح، إننا كائنات ذكية نختلف عن الكواكب ولنا إرادة حرة فنحن الذين نصنع أقدار أنفسنا، ويمكن للمرء أن يتساءل: لماذا المتنبئون إذا صدقت نبوءاتهم يُنظر لهم بنظرة فريدة من نوعها؟ ذلك لأنهم امتلكوا شيئًا فوق قدرات البشر، ولا يوجد على مرّ التاريخ إنسان تنبأ بحوادث وجزم بحدوثها إلا من كان على ارتباط بالله كالرسول -ص- وقد أَلَّفتُ في ذلك كتابًا قبل ثلاث سنوات عن الحقائق الغيبية الحتمية التي نطق بها الرسول ﷺ، والسبب بسيط جدًّا ذلك أن الله واسع القدرة ولا يحده الزمان والمكان فهو يعلم ما سيحصل مستقبلًا.

لهذا نرى أن المتنبئين أذكياء جدًّا كما أوضحت سابقًا، فهم يتكلمون بلغة ضبابية مما يحتمل أنّ أيّ حدث يحصل ينطبق على

نبوءاتهم، وهذه نقطة ضعفهم! وهؤلاء المتنبئون لا قيمة لكلامهم فالعلم قد ضيق عليهم الخناق كثيرًا، ورغم ذلك ما زال بعضهم يدعي بمعرفة المستقبل وهناك من يصدقهم، وقد بيّنّا فشل الكثير من المتنبئين، كالذين تنبؤوا بخروج المهدي ويوم القيامة، وفي الحقيقة هم كثيرون من الصعوبة إحصاؤهم، ففي كل يوم نسمع بهذه النبوءات، وإذا أتى التاريخ ولم يحصل شيءٌ يبررون فشلهم بكلمات أنيقة جدًّا.

لقد ناقش هوكنج بذكاء عالٍ مسألة علم الغيب وقال حول ذلك بأنه أمر صعب فحسب!! وهو من حيث يدري أو لا يدري يتمثل بهذه الآية ﴿**قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾[1]: «إننا عندما نجد النظرية الموحدة الكاملة سنكون قادرين على التنبؤ بما سيفعله الناس. لكن الدماغ البشري خاضع لمبدأ الارتياب أيضًا، ولذلك سيكون هناك عنصر من العشوائية التي ينطوي عليها ميكانيكا الكم في التصرفات البشرية. إلا أن الطاقة المتداولة في الدماغ منخفضة جدًّا، وهذا ما يجعل أثر الارتياب الكمومي فيه صغيرًا، وبالتالي، يكون السبب الحقيقي وراء عدم تمكننا من التنبؤ بالتصرفات الإنسانية هو أنه أمر صعب فحسب! إننا نعرف الآن القوانين الفيزيائية الأساسية التي تحكم فعالية الدماغ، وهذه القوانين بسيطة نسبيًّا.

(١) النمل: ٦٥.

لكـن هناك صعوبة كبيرة في حـل المعادلات عندما تتضمن المسـألة أكثـر مـن بضعـة جسـيمات. حتـى فـي نظريـة نيوتن في الجاذبيـة، وهـي النظرية الأبسـط، لا يمكننا حـل المعادلات بدقة إن كان ثمـة ثلاث جسـيمات أو أكثر. فمن أجل ثلاث جسـيمات أو أكثـر، علينا اللجـوء إلى التقريب، وتتزايـد الصعوبة اطراديًا مع تزايـد عدد الجسـيمات. مـن ناحية الدماغ البشـري، فهـو يحتوي مئـة مليـون مليـار مليار جسـيم، وهـو عدد كبيـر جـدًا يجعل حل المعادلات والتنبؤ بكيفية تصرف الدماغ مستحيلًا من قِبلِنا، وذلك بافتـراض معرفة حالته الابتدائية والمعلومـات العصبية التي تصل إليـه. في الواقع، نحن لا نسـتطيع معرفة الحالـة الابتدائية للدماغ؛ لأن فعـل ذلك يسـتلزم تفكيكـه. وحتى لـو كنا مسـتعدين لذلك، فـإن عدد الجسـيمات الواجب تسـجيلها هائل جـدًّا. كذلك، فإن الدمـاغ حسـاس جدًّا للحالـة الابتدائية، وإحداث تغيير بسـيط في تلـك الحالة يؤدي إلى اختلاف هائل جدًّا في التصرفات اللاحقة. لذلـك، وعلـى الرغـم من أننـا نعرف المعـادلات الأساسـية التي تحكم الدماغ، فإننا لسـنا قادرين على استعمالها للتنبؤ بالتصرفات البشرية...ولا يجوز لنا بناء تصرفاتنا على أساس فكرة أن كل شيء مرسوم سلفًا؛ لأننا لا نعرف ما هو الشيء المرسوم. بدلًا من ذلك، علينا اعتماد النظرية العملية، وهي أن لنا إرادة حرة وأننا مسؤولون عن تصرفاتنا. ليسـت هذه النظرية جيِّدة للتنبؤ بتصرفات الإنسان، لكن نتبناها بسـبب عدم وجـود إمكانية لحل المعـادلات الناجمة

عن القوانين الأساسية»[١].

أصبح واضحًا لدى القارئ أن التنجيم قديمٌ جدًّا، وهو ليس بعلـم بل خرافة تطورت واعتقد فيه الناس بعد ذلك أنه من العلوم، فالعلـوم تبدأ بمقدمات بسـيطة وتنتهي بنتائج معقـدة، ولها قواعد وأسـس وعلاقات رياضية ومنطقية يسـهل فهمهـا، أما التنجيم فلا تتوفـر فيه سـمة العلـوم، فيقوم علـى التخمين والظـن والاحتمال ومـا شـابه ذلك، وأنا أعتقد أنه مـن الغباء أن نركن إلـى علوم ظنية واحتمالية مقابل علوم منطقية.

لقـد لعب القمر دورًا كبيرًا في ثقافة الشـعوب قديمًا واقترن بالمرأة بدرجة كبيرة، كتأثيره على الدورة الشهرية وعدد الولادات ووقت الجماع، وربما يعود السبب إلى التشابه في بعض خصائص القمـر مـع المرأة، مثـلًا الدورة الشـهرية للمرأة ٢٨ يومًا تتسـاوى مـع دورة القمـر تقريبًـا، فالقمر يدور حول الأرض في مسـار قطع ناقـص أقـرب مـا يكون إلـى الدائرة، وبذلـك لا يكـون هناك فرق كبيـر فـي الجاذبيـة على النسـاء، وللتوضيـح، أقرب المسـافة بين القمـر والأرض تبلغ ٣٥٦ ألف كيلومترًا، بينما تبلغ أقصى مسـافة ٤٠٦ ألف كيلومتر، أما متوسط المسافة فيبلغ ٣٨٤ ألف كيلومترًا، ونتيجـة لاختلاف المسـافة فإن الجاذبية بين الجسـمين تتغير طبقًا لقانـون نيوتـن للجذب العـام الذي ينص علـى أن القوة تتناسـب

(١) الثقوب السوداء والأكوان الطفلة ومواضيع أخرى/ ١١٢.

تناسبًا عكسيًّا مع مربع المسافة، وتأثير الجاذبية هو بسيط جدًّا على الإنسان ونستطيع أن نهملها؛ لأن بعوضة تقف على جسم الإنسان تؤثر بجاذبية أكثر من تأثير القمر عليه طبقًا لقانون نيوتن للجذب العام.

اعتقدت الحضارات بتأثير الأبراج على حياة الإنسان على الأرض، والأبراج هي المسيرة التي تتحرك فيها الشمس، وقد ولدت الأبراج مع علم الفلك قبل آلاف السنين، في تلك الفترة الناس لم تعرف في الكون إلا هذا الكون الصغير، حتى قبل مئة سنة كان الناس يعتقدون أن مجرتنا هي الوحيدة في الكون، كانت معلومات القدامى حول الكواكب والنجوم سطحية جدًّا، فقد تخيّلوا أن الأرض مركز الكون وأن الشمس تدور حولها كذلك النجوم تخيّم على الأرض وعبدت كآلهة لها القدرة على النفع والضر، لقد بنيت اعتقادات القدامى على أسس غير صحيحة وهذا ما يجعل من استنتاجاتهم خاطئة، فالنتيجة تتبع أخس المقدمتين على حدِّ تعبير المناطقة.

والأبراج التي يعتمد عليها المنجمون هي: (الحمل-Arie، الثور-Taurus، الجوزاء- Gemini، السرطان-Cancer، الأسد-Leo، العذراء (السنبلة)- Virgo، الميزان-Libra، العقرب-Scorpio، القوس- Sagittarius، الجدي-Capricorn، الدلو-Aquarius، الحوت- Pisces)، مجموعة في هذين البيتين من الشعر:

حَملَ الثورُ جَـوْزَة السرطَانِ ورعَـى الليثُ سُنبل الـمِيزَانِ
وَرمــى عقربٌ بقوسٍ جديا وَمــن الـدَّلْـو مشرب الحيتان

وحول دخول الشمس برج الحمل (٢١ مارس-٢٠أبريل)، يقول الشاعر العباسي أبو نواس، في القرن الثاني الهجري، يصف قدوم الربيع، بدخول الشمس هذا البرج، وهذه الأبيات وردت في ديوانه:

أَما تَرى الشَمسَ حَلَّتِ الحَمَلا وَقــامَ وزنُ الـزَمـانِ واعْـتَـدَلا
وَغَـنَّـتِ الطَيرُ بَعدَ عُجمَتِها وَاستَوفَتِ الخَمرُ حَولَها كَمَلا
وَاكتَسَتِ الأَرضُ مِن زَخارِفِها وَشــيَ نـبـاتٍ تَـخـالُـهُ حُلَلا
فَاشرَب عَلى جدَّةِ الزَمانِ فَقَد أَصـبَـحَ وَجـهُ الـزَمـانِ مُقتَبِلا

إننـا اليوم نعرف أن النجوم كرات غازيـة تحدث فيها عملية الاندماج النووي لتولد هذه الطاقة الهائلة، وأقرب النجوم إلينا هي الشـمس وتبعد عنا ثمان دقائـق ضوئيـة، وأقـرب نجـم بعـد الشـمس يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، وهنـاك نجـوم تبعـد عنا بمئـات السـنين وآلاف السـنين وملايين السـنين الضوئيـة، والغريـب فـي



• نقش خشبي القرن السادس عشر

الأمـر أن ضوء النجـم يصلنا وهو قـد تحرك من مكانـه من مليون سـنة ومليار سـنة وأكثر من ذلك! ما الذي يجعلنا نتمسك بالجهل أكثر من تمسكنا بالمعرفة، ربما لأن الجهل يسبب لنا السعادة أكثر مـن المعرفة، لكن هذا السـبب لا يقول به العقـلاء، وكما أوضحنا سابقًا، يكفي أن تذهب في ليلة صافية -أيها القارئ- إلى الصحراء ستشـاهد الملايين الملايين من النجوم، هـل تعلم أن هذه النجوم تنتمـي إلى مجرتنـا اللبنية وهي مـن ضمن الملاييـن الملايين من المجرات، أليسـت فكرة غيـر عقلانية أن نربـط أقدارنا بمجموعة من النجوم وننسى تلك المليارات.



إن النجـوم تغير في موقعها رغم أننـا نشـعر بثبوتهـا، وهـذه النقطـة تضـع علـم التنجيـم فـي حـرج شـديد، إن النجـوم ليسـت ثابتة فهـي تنتقل بمئات الكيلومترات فـي الثانية الواحدة، مما يعني أنها سـتقطع المليـارات مـن الكيلومترات في السـنة الواحـدة، ونظرًا لصغر المسـافة مقارنة ببعد النجم فإننا نشـعر أن النجوم ثابتة لكن الحقيقـة هي خلاف ذلـك، ولتوضيح أكثر فعندمـا نحلق بالطائرة

علـى ارتفـاع بضعـة آلاف مـن الأقـدام نـرى الطرقات وتبـدو لنا السيارات ثابتة رغم حركتها.

وفي الحقيقة وكما أشـرنا سابقًا أن المنجمين لا يتنبؤون بل إنهم يدعون أنهم يتنبؤون، وبالطبع سيكون بمخيّلتهم، ولا شك أن من يسعى لهؤلاء الكذابين هم الناس المحرومون من هذه الحياة، فالمحـروم هو الذي يطلب تفسـيرًا للحياة من خارج الحياة، وهذا ليـس إلا دليـلًا على ضعفه، فالـذي يهرب من الواقع هو الإنسـان الفاشل.

في كل يوم يولد في العالم مئات الآلاف من الأطفال، فكيف يمكننا أن نصدق ونحن نسـتعمل أجهـزة الآيفون الذكية أن هؤلاء الأطفال يتميزون بصفات معينة لأنهم ولدوا في برج القوس.

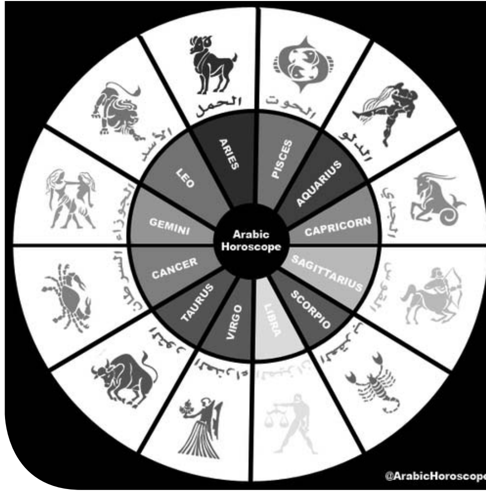
فضائيات سـخيفة مفلسـة فكريًّا تتصل عليهـا وتطلب منك اسـمك واسـم أمـك! يقوم الدجال بحسـاب الاسـمين بحسـاب الجمّل ثم يطرح من الناتج اثني عشر ويستنتج بعد ذلك اسم البرج الذي ولدت فيه، أليسـت فكرة غبية أيضًا، اسـم الشـخص واسـم والدته يحددان برجه ومسـيرة حياته، وكيف نعالج مشـكلة التوأم! ومـا انتشـار هـذه المحطـات الفضائيـة إلا أنها حصلت علـى بيئة مناسبة لبث سمومها، قمت بكتابة كلمة الأبراج في محرك البحث جوجل وحصلت على أكثر من ثلاث عشـرة مليون صفحة، مواقع سخيفة جدًّا، تصنف لك طبائع البشر على حسب أبراجهم.

ليس هناك أسس علمية إطلاقًا من خلالها يمكننا من خلال الأبراج معرفة طبائع الإنسان وما يخبئه القدر له، فالأبراج ليست سوى خرافة وضعت من آلاف السنين، وتطورت حتى وصلت إلينا بشكلها الحالي، الشيء المضحك أن الأبراج تغيرت في وقتنا الحالي، فقبل فترة زمنية قصيرة أضيف البرج رقم ١٣ وأطلق عليه اسم (الحواء–Ophiuchus)! وهذا التغيير بلا شك يضع هذه الأبراج في سلة المهملات.

إنني لا أجد سببًا منطقيًّا علميًّا واحدًا يجعلنا نتمسك بمثل ذلك، إلا أن يكون السبب هو العزاء، ومع ذلك فليس بسبب مقبول، فعندما نهرب من الواقع لمنطقة الأحلام فهذا ليس إلا دليلًا على ضعفنا، فعلينا أن نعمل على مقاومة إغراء الأماني والأحلام، فالواقعية المرة أفضل من الخرافة التي تجلب لنا الراحة والطمأنينة، فعلينا أن نعرف جيِّدًا موقعنا في الكون، فنحن لا نشكل فيه إلا السراب، ولدنا من نطفة قذرة ونهايتنا جيفة عفنة، ونحن مخلوقات ضعيفة جدًّا، والأرض بأكملها التي نعيش فوقها ما هي إلا غبرة كونية ونقطة زرقاء في كون يتسع بمليارات من السنوات الضوئية، إنها لمغالطة منطقية بحتة أن نستعمل التكنولوجيا ونؤمن بالتقدم الذي أحرزه العلم في الوقت الذي نطرق فيه باب العرافات ونتصل بالفضائيات لمعرفة أبراجنا ونذهب للتفتيش عن تلك الأحجار التي تمتلك قوة خارقة.

وعلى احتمال ضعيف جدًّا أن تكون هناك علاقة في الكون

المتوازن، فهي من الصعوبة على إنسان أن يحيط بهذا التعقيد الذي من الصعب تخيّله فنحن نعيش في كون يحوي المليارات المليارات من المجرات وكل مجرة تحوي المليارات المليارات من النجوم، عندما تصل المسألة إلى ثلاثة أجسام



دائرة الأبراج التي يستخدمها المنجمون

يصبح حلها معقدًا وذلك بالاعتماد على أحد الجسمين، وعليك أن تتخيّل مقدار تلك الاستحالة التي ستواجهنا في مشكلتنا، والإنسان العاقل هو الذي لا يتمسك بالاحتمال الأقل في مقابل الاحتمال الأكثر، فلماذا يتعيّن علينا الاعتقاد بتأثير القمر والنجوم على حياتنا الاختيارية على أسس أدلة ظنية وممكنة، وتفتقر إلى وجود أدلة مقنعة على ذلك؟! فجميع الحقائق العلمية تدلنا بوضوح أن التنجيم ليس بأكثر من خرافة لا تجد لها مكانة في أدمغة العقلاء.

يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه عزم على المسير إلى الخوارج، فبادر إليه منجمٌ فقال له: إن سرت في

هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك، من طريق علم النجوم، فقال عليه السلام: «أَتَزْعَمُ أَنَّكَ تَهْدِي إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي مَنْ سَارَ فِيهَا صُرِفَ عَنْهُ السُّوءُ؟ وَتُخَوِّفُ مِنَ السَّاعَةِ الَّتي مَنْ سَارَ فِيهَا حَاقَ بِهِ الضُّرُّ؟ فَمَنْ صَدَّقَكَ بِهذَا فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ، وَاسْتَغْنَى عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِاللهِ فِي نَيْلِ الْمَحْبُوبِ وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ، وَتَبْتَغِي في قَوْلِكَ لِلْعَامِلِ بِأَمْرِكَ أَنْ يُولِيَكَ الْحَمْدَ دُونَ رَبِّهِ، لِأَنَّكَ -بِزَعْمِكَ- أَنْتَ هَدَيْتَهُ إِلَى السَّاعَةِ الَّتِي نَالَ فِيهَا النَّفْعَ، وَأَمِنَ الضُّرَّ!! ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال: أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَتَعَلُّمَ النُّجُوم، إِلاَّ مَا يُهْتَدَى بِهِ في بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ، فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الْكَهَانَةِ، والْمُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ! وَالْكَافِرُ في النَّارِ! سِيرُوا عَلَى اسْمِ اللهِ»[1].

وقبل أن أنتقل للفقرة التالية، أحببت أن أعلق على مسألة تعلم النجوم من أجل هداية الطريق، فبهذا المعنى يكون مقبولًا، فالنجوم استعملت قديمًا لتحديد المواقع في البر أو البحر، وهذه حقيقة لا يمكن أن نتجاهلها، وهي أن القدماء استعملوا معرفتهم بالنجوم للاهتداء ومعرفة الطريق، وكان هذا دافعًا قويًّا لتعلم الناس قراءة النجوم، يقول ابن قتيبة المتوفى عام ٨٨٩م/ ٢٧٦هـ، في كتابه (الأنواء في مواسم العرب): «صحبني رجل من الأعراب في فلاة ليلًا فأقبلت أسأله عن محالّ قوم من العرب ومياههم، وجعل يدلّني على كل محلّة بنجم، وعلى كل ضياع[منازل] بنجم، فربما أشار إلى النجم

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٧٩.

وسمّاه، وربما قال لي: تراه، وربما قال لي: ولِّ وجهك نجم كذا، أي اجعل مسيرك بين نجم كذا حتى تأتيهم. فرأيت النجوم تقودهم إلى مواضع حاجاتهم، كما تقود مهايعُ الطريق سالكَ العمارات»[١].

بهذا الشكل تبدو دراسة النجوم مثمرة في القدم، أما اليوم فلا أحد يتعلم قراءة النجوم من أجل تحديد مواقع المناطق أو المنازل، في هذا الوقت يملك الناس في سياراتهم أجهزة ترشدهم إلى الطريق وتحدد لهم المواقع بدقة فائقة، يوجد أيضًا أجهزة الآيفون الذكية التي يحملها الإنسان في جيبه ويتصفح خرائط الأرض بأكملها من خلالها، وبناء على ذلك يكون تعلم النجوم في هذا الوقت لتحديد المواقع لا ثمرة منه.

يذكر هوكنج في كتابه (الثقوب السوداء): «فالكاهن الشهير الذي عاش في دلفي في بلاد الإغريق القديمة كان معروفًا بمراهناته الغامضة وحركاته المبهمة. فعندما سأله الإسبارطيون ماذا سيحصل عندما يهاجم الفرس بلاد الإغريق، ردّ الكاهن: إما أن تتدمر إسبارطة أو يُقتل ملكها. اعتقد أن الكاهن قد أدرك أنه إذا لم تحصل أي من هاتين النهايتين، سيكون الإسبارطيون شاكرين لأبولو (Apollo)[٢]، وهو أمر ينسيهم حقيقة أن كاهنًا كان مخطئًا.

(١) الأنواء في مواسم العرب/ ٧.
(٢) إله إغريقي، إله الشمس، إله الوباء والشفاء حيث يلجأ له الناس من أجل شفائهم، ويتقلد مناصب أخرى أيضًا كإله الرماية والموسيقى.

وفي الواقع، قُتل الملك مدافعًا عن الموقع الحصين عند ثرموبيليا في حدث حمى إسبارطة وقاد إلى الهزيمة النهائية للفرس»[١].

أين يجد الإنسـان موقعه الجميل على هذا الكوكب، بالطبع لـن يكون من خلال تعطيل عقله وتصديق كل شـيء، إن شـعورنا يختلف اليوم عن شعور أجدادنا الذين باعوا عقولهم بثمن بخس، وللأسـف الشـديد عندما نتصفـح تراثنا العربـي نـراه تراثًا امتـلأ بالكثيـر مما لا يقبله العقل، وسأتوسـع في هذا العنوان لاحقًـا، وكتفسـير لذلك نسـوق مـا قاله الدميـري فـي كتابـه (حيـاة الحيـوان): «قال بعض المفسرين: لما كان الخفاش هـو الـذي خلقه عيسـى بـن مريـم عليه الصـلاة والسـلام بـإذن اللـه تعالى كان مباينًا لصنعة الخالق. ولهذا سائر الطيور تقهره وتبغضه فما كان منها يأكل اللحم


تمثال أبولو

أكلـه ومـا لا يـأكل اللحم قتلـه، فلذلـك لا يطيـر إلا ليـلًا، ويتابع الدميـري في كتابـه ويذكر من خـواص الخفاش: إذا وضع رأسـه في حشـو مخدة، فمن وضع رأسـه عليها لم ينم! وإن طبخ رأسـه فـي إناء نحاس أو حديد بدهن زئبـق، ويغمز فيه مرارًا حتى يتهرى

(١) الثقوب السوداء والأكوان الطفلة/ ١١٧.

ويصفى ذلك الدهن عنه، ويدهن به صاحب النقرس، والفالج القديم والارتعاش، والتورم في الجسد والربو، فإنه ينفعه ذلك ويبرئه وهو عجيب مجرب، وإن ذبح الخفاش في بيت أحد وأخذ قلبه، وأحرق فيه لم يدخله حيات ولا عقارب... وإن صب من مرق الخفاش وقعد فيه صاحب الفالج انحل ما به. ومن نتف إبطه وطلاه بدمه مع لبن أجزاء متساوية لم ينبت فيه شعر، وإذا طلي به عانات الصبيان قبل البلوغ منع من نبات الشعر فيها»[1].

هذا ما يذكره الدميري، فلنقرأ ما كتبه ابن البيطار في كتابه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية): «وإذا ذبح وطلي بدمه عانات الصبيان قبل البلوغ منع من نبات الشعر عليها، وإذا طبخ الخفاش في دهن سمسم ودهن به فوق عرق النسا نفعه لا سيما إذا فعل ذلك مرارًا على التوالي... وإذا طبخ وشرب مرقه أسهل البطن ونفع من وجع الورك ورماده يحدّ البصر... وإن مسح بدماغه أسفل القدم هيج الباه، وإن طبخ الخفاش بالماء حتى يتهرى ومسح به الإحليل أدرّ البول، وإن صب من ماء الخفاش في أبزن وقعد فيه صاحب الفالج انحل ما به ودماغه، وإن أحرق وسحق واكتحل به للبياض في العين أبرأه»[2].

في الحقيقة لا أدري كيف أعلق على هذا الكلام وما شابهه

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ١/ ٢٧٠.

(٢) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية/ ١٤٧.

من الكلام الذي امتلأ تراثنا العربي به وتناقلته الكتب كحقيقة مثبتة للأسف الشديد، فهذه الأفكار الساذجة التي تساهم في إرجاع العالم إلى الوراء، يجب علينا أن نكبر عنها، وهؤلاء الذين يروجون لهذه الانتكاسات الفكرية، يجب علينا ألا نصغي لكلامهم، فالطب الحديث أوجد لنا أدوية مجربة ذات مفعول واقعي.

وأنا لا أنكر بالطبع تلك المعرفة الشعبية التي استعملت قديمًا سواءٌ أكانت في الطب أم في غيره، فإننا لا نستطيع أن نحكم عليها دائمًا بالخطأ بمجرد أنها لا تتوافق مع رغباتنا، فهنالك ما هو جيِّد منها، وقد أفاد منه القدامى وربما حتى هذه اللحظة ما زلنا نفيد منها، لكن الخطأ أن نؤمن بصحة تلك المعرفة الشعبية تمامًا.

ومن الصعوبة بالطبع أن نختبر جميع تلك المعرفة؛ لأن ذلك سيكلفنا عمرنا بأكمله دون أن نصل إلى نتيجة مرضية، ويبدو لي أنه من المستحيل فعل ذلك، فها نحن نتكلم حول الخفاش والأمر يذهب إلى أبعد من ذلك في آلاف الحيوانات المتبقية والتنجيم والأحجار الكريمة وتحضير الجن، فهل من المعقول أن نصرف سنين حياتنا بأكملها في اختبار هذه العلوم، أليس من الصواب أن نذهب إلى ما هو أنفع من ذلك؟

إن كتاب التحدي الكبير الذي بين يديك -أيها القارئ- يقدم لك نظرة أفضل لهذا الكون الذي نعيش فيه، يأخذك في رحلة ممتعة ليسبر بك أغوار الماضي السحيق حيث لم تكن الأرض

سوى ذلك العالم البسيط الذي لم يتعدَ تلك المنطقة التي يسكن فيها الإنسان، أماكنها المجهولة حظيت بأساطير متنوعة تعيش الآلهة والشياطين فوق الجبال وتحت البحار، هنالك في كل غابة عفريت وحورية في كل بحر، كانت الأرض مركز الكون، الذي نتج عن فقيس بيضةٍ كونيةٍ أو ... بين إلهين أبٍ وأمٍ أو منتجات عقل بشري.

ومن الزمن السحيق إلى الزمن الذي تواصلنا فيه مع بعضنا بسرعة الضوء، حللنا ألغاز الخارطة الجينية، وصلنا إلى مراحل متقدمة في الاتصالات والطيران والطب، اخترعنا أجهزة حاسوبية تقوم بألف تريليون عملية حسابية في الثانية الواحدة، اكتشفنا كل بقعة في الأرض، كل شيء اكتشفناه، نتصفح خرائط العالم والهاتف في يدنا، نركب الطائرات لنطوي بها الأرض ونحلّق على ارتفاع عشرات الآلآف من الأقدام، تلك المنطقة التي كانت تسكن فيها الآلهة في يوم ما، غصنا البحار والمحيطات عرفنا جيِّدًا أن العالم ليس بذلك المكان الجميل الذي تصوره أجدادنا.

إنها مغالطة منطقية بحتة أن نعرف كل هذه الأشياء وفي الوقت نفسه نطرق باب العرافات ونؤمن بالتنجيم ودائرة الأبراج وقراءة الكف والفنجان وغيرها من العلوم المزعومة والزائفة التي لا فائدة منها، نحن لا نلوم أجدادنا بتصرفاتهم الطفولية، بل اللوم يقع بأكمله علينا.

نحـن نعيش فـي عالـم أكثر تعقيـدًا ممـا تخيّلنـاه عندما كنا صغارًا، أجدادنا لم يحلموا بهذا العالم لا في الأحلام ولا في تلك المنطقـة التي بعد الأحـلام، مطارات مزدحمة بآلاف المسـافرين منتشـرة على أصقاع الأرض، تهبط طائرات وتقلع طائرات، أقمار صناعية نتواصل بواسـطتها بسـرعة الضوء، مركبـات فضائية تزور كواكـب أخـرى، في كل يوم يسـتقبل العالم نصف مليون إنسـان، أمـراض جديـدة تظهـر لنـا فـي كل لحظـة، مكتشـفون وباحثـون يجلسـون في مختبراتهم لمقاومة هذه الأمراض، أجهزة حاسـوبية تتطور في زمن قياسي جدًّا، سلسلة طويلة معقدة لم يحلم بها كائن بشـري عاش قبل القرن الواحد والعشـرين، وبعد كل هذا التعقيد، نقول للمطارات إن اليوم الذي يحمل الرقم ١٣ هو مشؤوم ويجب أن تتوقف الطائرات عن السفر، أليست فكرة غبية جدًّا.

إن أحـد الأسـباب القوية التي تجعلنا نرفـض هذه العلوم لا لأنهـا لا تتوافـق مـع رغبتنـا، بل لأنه من غيـر الممكـن تقديم أدلة علمية تدعمها أو فرضيات منطقية تسـندها أو حتى بيانات مخبرية تـدلّ على فعاليتها، إضافة إلى أن هـذه العلوم الزائفة لا تتوافق مع نظريـات أخـرى اختبرت بالتجـارب وأثبتـت صحتهـا، وهنا يثار تسـاؤل منطقـي يمكننـا أن نضعه بين يـدي القارئ: لمـاذا لا نجد لهـذه العلوم مكانة فـي الجامعات المحترمة المنتشـرة في أصقاع الأرض؟! لماذا لا نجدها إلا في أماكنها السخيفة؟!

إنني أعتقد شخصيًّا وبقناعة تامَّة أن هذا الكتاب سيقدم إلى القارئ نظرة علمية أفضل لهذا الكون الذي نعيش فيه، سيساعده على اختيار قراره تجاه هذه العلوم الزائفة، إما أن يعتقد بصوابها أو ببطلانها، فمن الصعوبة على الإنسان أن يعتقد باعتقادين متناقضين في الوقت نفسه، وإنني أقول بشفافية ولغة واضحة، فاللغة الضبابية والمبهمة وغير المفهومة التي تحتمل معنيين أكرهها كثيرًا، وكما قال علامة الفيزياء (بور-Bohr)[١]، عندما سأله أحدهم عن الصفة المتممة للحقيقة؟ أجاب: بأنها الوضوح[٢]. إنني لا أعتقد بهذه العلوم الزائفة والسبب ببساطة، لم أجد دليلًا جيِّدًا يثبت صحتها يجعلني أعتقد بها.

وفي النهاية سوف أذكر لكم قصة يذكرها البيهقي في كتابه (المحاسن والمساوئ)، تلاحظون فيها ماذا يفعل الجهل في المجتمعات البشرية وبها نختم هدفنا من هذا الكتاب.

كان المأمون قد همَّ بلعن (...)، وأن يكتب بذلك كتابًا في الطعن عليه، فمنعه عن ذلك يحيى بن أكثم، وقال له: يا أمير المؤمنين، العامة لا تحتمل هذا، ولا سيما أهل خراسان، ولا تأمن أن يكون لهم نَفرةٌ ونَبْوةٌ لا تُستقال، ولا يدري ما يكون عاقبتها،

(١) من أشهر علماء الفيزياء في القرن العشرين حصل على جائزة نوبل عام ١٩٢٢م، على نموذجه الذري الذي عرف باسمه.
(٢) أحلام الفيزيائيين/ ٦٧.

والـرأي أن تدع النـاس على ما هم عليه، ولا تُظهـر لهم أنك تميل إلـى فرقة مـن الفِـرَق، فإن ذلـك أصلح فـي السياسـة!! وآمن في العاقبة، وأجرى في التدبير.

فركن المأمون إلى قوله، فلما دخل عليه ثمامة بن الأشرس، قـال له المأمون: يا ثمامـة، قد علمتَ ما كنَّا دبَّرنـاه في (...)، وقد عارضَنا رأي أصلح في تدبير المملكة، وأبقى ذِكرًا في العامة.

ثـم أخبره أن يحيى بن أكثم حـذّره، وأخبره بنفور العامة عن مثـل هذا الرأي، فقـال ثمامة: يا أمير المؤمنيـن، والعامة عندك في هذا الموضع الذي وضعها فيه يحيى؟! والله لو بعثت إليها إنسـانًا على عاتقه سوادٌ ومعه عَصًا، لساق إليك منها عشرة آلاف؛ والله يا أميـر المؤمنين، ما رضي الله أن سـوَّاها بالأنعام حتى جعلها أضلَّ سـبيلًا، فقال تبارك وتعالى: ﴿**أَمْ تَحْسَـبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْـمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾[1].

واللـه لقـد مررت يا أمير المؤمنين منذ أيام في شـارع الخُلد وأنا أريد الدار، فإذا إنسـانٌ قد بَسَطَ كِسـاءَه وألقى عليه أدوية وهو قائـم ينـادي: هـذا الـدواء للبياض فـي العيـن والغشـاوة والظُّلْمة وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة! والأخرى مُؤْلَمَة!

والنـاس قد انثالوا عليـه واحتفلوا إليه يسـتوصفونه، فنزلت

(١) الفرقان: ٤٤.

عـن دابتـي ودخلت بين تلـك الجماعة فقلت: يا هـذا، أرى عينك أحـوج الأعين إلى العـلاج، وأنت تصـف هذا الـدواء، وتخبر أنه شفاء، فما بالك لا تستعمله؟

فقال: أنا في هذا الموضع منذ عشـرين سـنة ما رأيت شـيخًا قط أجهل منك ولا أحمق!

قلت: وكيف ذلك؟

قال: يا جاهل، أتدري أين اشتكت عيني؟

قلت: لا.

قال: بمصـر! فأقبلت عليّ الجماعة، فقالت: صدق الرجل، أنت جاهل! وهمّوا بي.

فقلت: والله ما علمتُ أنّ عينه اشتكت بمصر. فما تخلّصت منهم إلا بهذه الحجّة[1].

أخيـرًا، أود أن أشـير إلى القـارئ العزيز أنـه لا يوجد كتاب يعالج موضوع الخرافة بشـكل كامل، فهـذا الموضوع أصعب من أن يحويه أي كتاب، والسـبب ببسـاطة أن الخرافات منتشـرة على جميع أصقاع الأرض، وكما يولد في كل يوم نصف مليون إنسـان تقريبًا، ففي كل يوم تولد خرافات جديدة.

---

(١) المحاسن والمساوئ/ ١٣٥.

إضافـة، إلى أن تتبع منشـأ الأسـاطير وتطورهـا موضوع في غايـة التعقيد، ويتطلب وقتًا طويلًا يصل لسـنوات عديدة، ويحتاج إلى بحـوث ميدانية للبحث والتقصي، ومن الصعوبة عليّ أن أقوم بجميـع ذلك وخاصة أنني لسـت متفرغًا لذلك، فلـديّ الكثير من الأعمال الأخرى والأكثر أهمية، ويجب عليّ أن أقرّ بهذه الحقيقة، وبحسـب مطالعاتـي فـي عشـرات الكتـب، لم أجـد كتابًـا يتناول الموضـوع بشـكل كامل ومـن جميع زوايـاه، فهنـاك آلاف الآلهة عبدت في أصقاع الأرض، الآلاف من الديانات انتشـرت تدريجيًّا علـى وجـه الأرض، كل ديانـة تعتقـد أنها علـى صـواب والديانة الأخـرى على خطـأ، إنها رواية يصعب على الـراوي كتابتها، ومن هذا المنطلق يسـتحيل عليَّ –آسفًا– أن أقدم كتابًا يعالج الموضوع بشـمولية، وبالتالـي وعلـى الرغـم مـن ذلـك فقد وجدت نفسـي مضطرًا أن أسـتقطع من وقتي في كل يوم نصف سـاعة على الأقل لكتابـة هذا الكتاب، وبعد مرور بضعة أشـهر أقدم لك أيها القارئ هذا الكوب من الشاي الذي طبخ على نار هادئة.

زد علـى ذلـك أن هنـاك صعوبـة لا يمكـن تجاهلهـا وهـي الصـدام مع المجتمع، لهذا الكثير يتحاشـى أن يتكلم في مثل هذه المواضيـع، فهنـاك أناس يقرؤون ما بين السـطور جيِّدًا، وهنا أقدم نصيحتـي لجميـع الكتّاب وأقـول لهـم: إن النـاس الناجحين هم الذيـن لا يسـتجيبون لضغوطات المجتمع إذا كانـت خاطئة، فهل

يجب عليّ أن أنفق أكثر من مئة ألف ريال في حفل زواجي من أجل إرضاء المجتمع، أم هل يجب عليّ أن أمارس أشياء لا أعتقد بصحتها، على الإنسان أن يعوّد نفسه على مخالفة هذا السلوك وسيشعر بارتياح كبير بعد ذلك، صدقوني حتى أولئك الذين يخشون المجتمع ويتزلفون من أجل الناس لن تجد الناس ترضى عنهم، إرضاء الناس غاية لا تدرك، حكمة جميلة جدًّا لو تعاملنا مع هذه الحكمة بواقعية سنشعر بسعادة كبيرة تجاه أنفسنا، ويجب أن يعرف القارئ أن هذه النقطة حاسمة في جميع الحضارات، فلو لا وجود كوبرنيوكس وجاليلو وأمثالهم الذين امتلكوا الشجاعة وواجهوا هيمنة الكنيسة ما تحررت أوروبا من عصورها المظلمة أبدًا وما وصلت إلى مراحلها المتقدمة في الاتصالات والطيران والطب.

اجتهدت في أن يكون هذا الكتاب بلغة سهلة جدًّا ابتعدت فيها عن التعقيدات الفيزيائية، فعندما أكتب كتابًا افترض دائمًا أن القارى ليس متخصصًا في الفيزياء، هنا أيضًا أجد صعوبة في تبسيط المصطلحات الفيزيائية لغير المختصين كي يهضموها هضمًا جيِّدًا، إضافة إلى أنني تعمدت شرح بعض المصطلحات التي ربما تكون مبهمة للقارئ، كما طعّمته ببعض الصور التوضيحية التي حصلت عليها من مواقع متفرقة.

قسمت هذا الكتاب إلى قسمين، القسم الأول يحتوي على

حلقتين والقسم الثاني يحتوي على ثلاث حلقات، وبذلك يكون عدد حلقات الكتاب خمس حلقات، الحلقة الأولى تكلمت فيها حول التطور العلمي لفهم الكون وكيف استطعنا أن نخرج من النظريات غير العلمية إلى النظريات العلمية، وعرضت في الحلقة الثانية أمثلة من العلوم الزائفة وسلبيتها على حياتنا وكيف نعالج هذه المشكلة، ومن أجل أن تكون عند القارئ صورة أكثر وضوحًا حول موضوعات هذا الكتاب أجريت ثلاث مقابلات مع الأخصائي النفسي الأستاذ فيصل العجيان، أخي الدكتور رضا آل غنام، العلامة الشيخ فوزي آل سيف، في الحلقات الثالثة والرابعة والخامسة في القسم الثاني منه.

وبهذا الجهد أستطيع أن أقول: إنني قدمت إلى القارى عملًا صغيرًا وبحثًا متواضعًا ومختصرًا، وأتمنى أن يكون هذا العمل تسليطًا للضوء وانطلاقة للقارئ للبحث والتقصي والتساؤل والشك والمقارنة والفحص والقبول والرفض.

الشك ليس سيئًا كما يتوهم الكثير، بل هو شعور جميل يزداد الإنسان من خلاله معرفة وينقله إلى مرحلة اليقين، وفي هذا العنوان هناك كلمة مشهورة للفيلسوف الإنجليزي الذي اعتمد المنهج التجريبي (فرانسيس بيكون-Francis Bacon)[1] يقول فيها: (لو بدأ الإنسان من المؤكدات انتهى إلى الشك، ولكنه لو اكتفى

(١) فيلسوف إنجليزي (١٥٦١م-١٦٢٦م).

بالبدء في الشك، لانتهى إلى المؤكدات)، هذا صحيح، فالشك يقود إلى اليقين، ويعلّم الإنسان حرية التفكير، وبهذا المعنى تقول الحكمة اللاتينية: (حيث يوجد الشك توجد الحرية).

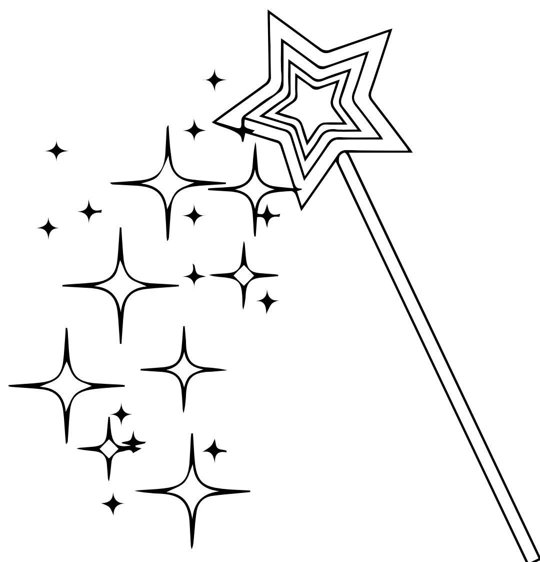
بالتأكيد، لا يستطيع أن يقف قلمي دون أن يشكر جميع من وقف معي في هذا الكتاب من خلال مراجعته وتصحيح الأخطاء وتقديم النصائح والمقترحات القيّمة كي يظهر بشكل أفضل، أخي الصيدلي موسى الخويلدي، الأستاذ السيد هاشم الهاشم، الأستاذ ميرزا المياد، الأستاذ علي الأصيل، الأستاذ عبد الباري آل دخيل، الدكتور علي آل سهوان، الدكتور السيد حسن العوامي، الدكتور ميثم عبد الجبار، المهندس حسن الغريافي، الأستاذ مظاهر الخميس، إنني ممتن لهم جميعًا.

أيضًا، أعبر عن شكري الجزيل إلى أخي الحبيب المهندس حسن الجشي على متابعته الدائمة واهتمامه الكبير بهذا الكتاب وعلى وقته الثمين الذي بذله معي في إجراء حواراته.

كما أن آخر سطرٍ من كلماتي يقدّم الشكر الخاص عني وعن جميع كتّاب القطيف إلى أخي السيد عباس الشبركة، على مجهوده الضخم الذي يقوم به في حفظ وإبراز تراث القطيف الذي جعله على قائمة أولوياته، وأنا على يقين تام أن مشروعه قدم خدمة كبيرة لمنطقة القطيف، وهذا هو الدافع القوي وربما الوحيد الذي يجعله يفعل ذلك.

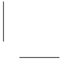
عندما أستذكر في بعض جلساتي معه وهو يحكي لي عن ذلك الكفاح الذي يقوم به من أجل حصوله على كتاب من هنا وهناك أشعر بارتياح كبير لوجود شخص قطيفي بيننا يسعى بكل طاقته لجمع كتب القطيف قديمها وحديثها في غرفة واحدة ويقدمها إلى القارئ في حلة ذهبية كما يقدم الرجل إلى ضيفه أجمل أنواع الفواكه ليتلذذ بأكلها.

وأنا أعلم جيدًّا أن هذا المشروع لم ينته، فما زال هناك المكتبة الإلكترونية القطيفية التي تضم جميع كتب القطيف على صيغة كتب إلكترونية (PDF) يمكن لأي شخص أن يحصل عليها بكل سهولة، إنها رغبتنا المستعجلة -أيها السيد- تجعلنا نتحرّق شوقًا لرؤية ذلك.



القسم الأول

- المسرحية الكونية الكبرى
- علوم مزعومة وزائفة



المسرحية الكونية الكبرى

«الأرض هـي مسـرحٌ صغيـر جدًّا، في حلبة كونية شاسعة، فكروا فـي كل أنهـار الدمـاء التـي أراقهـا كل أولئـك الجنـرالات والأباطـرة بانتصاراتهـم وأمجادهـم في سـبيل أن يصبحوا سـادة مؤقتين على جزء بسيط من هذه النقطة».

كارل سيجان

في محيط المخيّلة البشـرية كانت توجد الكثير من الروايات حـول مسـألة الكون ونشـأته وفك ألغازه كالخسـوف والكسـوف وطريقـة عمـل النظـام الشمسـي، ومثل هـذه الألغـاز الممتلئة في المسـرحية الكونية، وجلّ هـذه الروايات حيكت جيِّدًا، ومع مرور الزمن فقدت هذه الروايات تلك المكانة الشـعبية التي حظيت بها،

كما أن الخيوط التي حيكت بها تفككت ومحيت من عقول أكثر البشر كما يمحى اللوح مما كتب فيه.

كل رواية من هذه الروايات حيكت بخيوط تتلاءم مع تراث الحضارة التي تنتمي لها، لن أناقش هنا هذه الروايات ولا نوع تلك الخيوط التي حيكت بها، بل سأكتفي بذكر بعض الروايات وسأتبعها برواية السلاحف المتلاحقة التي تفسر لنا هذا اللغز: لماذا الأرض لا تسقط؟.

انطلقت معظم هذه الروايات من مبدأ واحد، سؤال يدور في ذهن الإنسان، كيف ولدت الآلهة والكون والبشر؟ وما زالت هذه المسألة للأسف الشديد عالقة في التراث الديني للثقافات ونتج عن ذلك صراعات وصلت للإرهاب والقتل حول تصور الإنسان للإله الذي يدير الكون.



زيوس مع أخته وزوجته هيرا

لم يستطع الإنسان كما قلنا سابقًا أن يتحرَّر من قيوده البشرية، أنشأ علاقة بين نظام الآلهة التي تدير الكون، ونظام الإنسان الذي يدير الدولة.

نتج عن هذا التصور آلهة تشبه البشر ذكورًا وإناثًا، تقوم بعملية ... لينتج عنها آلهة أيضًا،

تتكون بعد ذلك سلالة من الآلهة.

الطريقة الوحيدة لإنتاج كائن بشـري هي فكرة ... بين رجل وامرأة، لهذا تجد أن الآلهة في الثقافات ليسـت ذكورًا وحسب بل ذكورًا وإناثًا حتى تحاك الرواية بخيوط متكاملة.

مـن الواضح في فكرة التزاوج أنهـا قائمة على مبدأ الطبقية، فالطبقات العليا للعليا والسـفلى للسفلى، كما هو الحال في أغلب المجتمعات البشـرية من تزاوج فئة معينة مع فئة أخرى تكون كفؤًا لهـا كـزواج الأغنيـاء بالأغنياء والفقـراء بالفقراء، يجـب أن يكون الـزواج بيـن إله ذكر وإلـه أنثى ليكـون هناك زواج تكافـؤ، كزواج (كرونوس–Cronos) من أختـه (ريا–Rhea) ونتج عن هذا الزواج جيـل جديد من آلهة اليونان، والإله (زيوس–Zeus) الذي يخشـاه اليونانيون بصفته إله السماء وكبير الآلهة كان ناتجًا من هذا الزواج، وزيوس كبير الآلهة تزوج من أخته إلهة الزواج (هيرا–Hera).

أسطورة منطقية أن (كرونوس) كان خائفًا من أن يفقد سلطته ويتلاشـى بريقهُ أمـام أبنائه؛ لذا قـرر أن يأكلهم ليعالج المشـكلة، فهنـاك نبوءة تقول: إن أحد أبنائه سـيخلعه من عرشـه كما فعل مع أبيـه (أورانـوس–Uranus) من قبل، وهذا الشـيء نلحظه بوضوح فـي تاريخنا، انتقـام الخلفاء من آبائهم وآبنائهـم وإخوتهم، كذلك خوف الجيل القديم من الجيل الجديد من أن يسـحب البساط من تحت قدميه.



نارسيس يتطلع لجماله في الماء ويفتتن بحب نفسه

هنالـك حـالات كثيـرة فـي الأسـاطير اليونانيـة اسـتخدمها (فرويـد-Freud)[١] فـي علـم النفس كمفهـوم النرجسـية التـي تطلـق على الشـخص المبالغ في حبّ ذاته ويرى نفسـه فـوق الجميـع، حيـث اعتمـد على الأسـطورة اليونانية (نارسـيس-Narcissus) الذي أعجب بنفسه كثيرًا ونظـر إلى صورتـه في الماء فعشـقها فأمرضه العشق حتى مات، وقد نبتت مكانـه زهـرة النرجـس، إضافة إلى قصـة (كرونوس) الـذي يأكل أولاده خوفًـا منهم، في وضـع نظرياته في علم النفس، والكثير من الأساطير اليونانية أفادته كثيرًا.

لا يمكـن أن يكـون هناك مجـالٌ للشـك أن أكل لحوم الأبناء وقتلهم من الأمور الشنيعة في جميع الثقافات، لكن عندما يتعلق الأمر بالحكـم فهذا لا بأس بـه، وقد وضّح (مايكافلـي-Machiavelli)[٢] هذه النقطة في كتابه الأمير بقوله: (الغاية تبرر الوسيلة)، ومايكافلي أفاد كثيرًا من الأساطير اليونانية عندما كتب كتابه الأمير.

---

(١) طبيب نمساوي يعد من أشهر علماء النفس في القرن العشرين، ولد عام ١٨٥٦م، توفي عام ١٩٣٩م.

(٢) فيلسوف إيطالي، ولد عام ١٤٦٩م، توفي عام ١٥٢٧م.

وسـوف ننظر الآن باقتراب أكبر إلى تلك الفائدة التي أفادها مايكافلـي من الأسـاطير اليونانية عندما كتب أشـهر كتاب له وهو كتـاب الأمير الـذي يحكى عنه أن هتلر كان يقـرؤه كل ليلة قبل أن ينـام، فيذكـر مايكافلي في كتابه قصـة البطل الأسـطوري اليوناني (آخيـل-Achilles)، الذي تنسـب إليـه المقولة المشـهورة (كعب آخيـل)، والتـي تطلق علـى نقطة الضعـف على الرغـم من وجود القـوة، وآخيـل قد غطسـته أمه فـي ماء نهـر الخلود والقـوة عندما كان صغيـرًا، فـكان من المقـرر أن يكون من الخالديـن، إلا منطقة الكعـب لـم يصبهـا الماء! وهي المنطقة التي كانت تمسـكه بها أمه أثناء تغطيسـه في النهر، فكانت هذه المنطقة نقطة ضعفه، وبالفعل قد صوّب له أحدهم سهمًا في كعبه وقتله يقول مايكافلي:

«لا يخفى على أحد ما يلحق بالأمراء من الثناء إذا اشـتهروا بحفظ الوعود ومراعاة العهود، ولكن تجارب زماننا هذا دلت على أن الأمراء الذين لـم يراعوا العهود قاموا بأعمال كبيرة، وتمكنوا من تحييـر أوهام الناس بمكرهم، وتغلبوا فـي نهاية الأمر على الأمراء الذين اتخذوا الأمانة عادة والوفاء أساسًـا لحياتهم. أعلم أنه توجد طريقتان للحرب: الأولى بالقانـون والثانية بالقوة، فالأولى طريقة البشر والثانية طريقة الوحوش، وحيث إن الطريقة الأولى لا تكون على الدوام كافية فيضطر الإنسان للالتجاء للثانية. فمن الضروري إذن الإفـادة مـن طريقـة الحرب للبشـر والحيوان، وقد شـرح هذا

للأمـراء من سـبق من الكتّـاب والمؤرخين، فقـد رووا أن (آخيل) وغيـره مـن الأمراء تولـى أمـر تدريبهـم (شـيرون–Chiron) وهو مخلـوق نصفه إنسـان ونصفه حيـوان! فدربهم وهذبهـم وقد أراد الكتّاب بذلك رمزًا معناه أن الأمير محتاج إلى اسـتعمال الطبيعتين الحيوانية والبشرية، وأن طبيعة دون أخرى لا نفع ولا بقاء لها.



صورة تخيّلية لآخيل مع مدربه شيرون (نصف إنسان ونصف حيوان) اللوحة موجودة في متحف ناسيونالي بإيطاليا

فالأميـر مضطـر للتطبـع بطبـع الحيـوان، فيقلـد الأسـد والثعلب؛ لأن الأسـد لا يسـتطيع أن يحمـي نفسـه مـن المصيـدة (الفخـاخ) والثعلـب لا يسـتطيع مواجهة الذئاب، لذا ينبغي للأمير أن يكـون ثعلبًـا ليتقـي المصيـدة (الفخاخ) وأسدًا ليخيف الذئاب، أمـا من يريـد أن يكون أسـدًا فقط فـلا أمل له في النجـاة، لأجل هذا لا ينبغـي للأميـر الحذر ألا يحفظ عهدًا إذا كان ضدّ مصلحته، وما دامت الأسـباب التي دعت للوعد قـد انقضـى عهدها. إذا كان النـاس كلهم أخيارًا فـإن القاعدة التي ذكرتهـا تكـون لا شـك سـيئة، ولكنهم أشـرار، ولـن يحفظوا لك عهدًا، فلسـت مضطـرًا لحفظ عهودهم. ثـم إن الأمير لا يفتقر إلى

حيلـة شـرعية يركن إليهـا إذا لم يَـفِ بوعده، وإن الأمثـال في هذا الباب كثيرة تثبت أن السلم قد تزعزع مرارًا، وأن الوعود قد نسيت تكـرارًا بأمراء لا وفاء لهم، وإن الذين اسـتطاعوا من الأمراء تقليد الثعلب قد فازوا وانتصروا.

ولكن من الضروري أن يخفي الأمير هذه الصفة، وأن يكون ماهرًا في فنّ التظاهر بغير شعوره! ثم إن الناس بسطاء ويرضخون بسـهولة مـن أجـل احتياجاتهـم الضروريـة اليومية، لذلـك لديهم الاسـتعداد لقبـول خداع من يخدعهم، وسـأكتفي بذكر مثل واحد من التاريخ الحديث فإن -اسـكندر السـادس- لم يفعل في حياته شـيئًا سـوى خداع الرجال ولم يكن يفكر في غيـر ذلك، وقد وفق إلى الحذق فيه فلم يكن مثله رجل قادرًا على تأكيد الأقوال وتثبيتها والوعـد بالإنجاز، ولم يكن كذلك أحد مثله أقلّ وفاءً لما وعد به، ومع ذلك فإنه فاز على الدوام في خداعه لأنه عرف طبيعة البشر.

فليـس من الضـروري للأميـر أن يتصف حقيقـة بالصفات الحسـنة: الأمانة، حب الإنسانية، التقوى،... ولكن من الضروري أن يذاع عنه الاتصاف بها، وإنني أجسـر فأقول: إن الاتصاف بكل تلـك الفضائل خطر ولكـن الظهور بالتحلي بها نافع. إنه من الخير لك أن تظهر بالتقوى والأمانة وحبّ الإنسانية والدين والإخلاص، وأن تكون في الواقع كذلك، ولكن ينبغي أن تكون متنبهًا بحيث إذا اضطررت للتحول إلى الصفات الأخرى كان ذلك بدون مشقة.

وينبغي العلم بأن الأمير -لا سيما الحديث- لا يمكنه ممارسة كل تلك الصفات الموصوفة بالخير لدى الرجال؛ لأنه يكون في أغلب الأحيان مضطرًا للاحتفاظ بالملك فيعمل ضد الإيمان والإحسان والإنسانية والدين، لذا ينبغي أن يكون له عقل سهل التحوّل والانتقال حسبما يقتضيه تقلب الأحوال، وأن لا يترك صنع الخير ما استطاع، وأن يكون قادرًا على صنع الشر إذا احتاج لذلك.

وينبغي للأمير ألا يحرك لسانه بكلمة لا تدلّ على أنه متحلٍّ بالصفات الخمس السالفة الذكر، فلا يرى فيه الرائي ولا يسمع منهُ السامع إلا الأمانة والعفة والتقوى وحبّ الإنسانية، وأهم تلك الصفات صفة التقوى؛ لأن الرجال يحكمون عادة بالنظر لا بالخبرة، وكل الناس ترى فيك مظاهرك، وقليلون يلمسون حقيقتك وهؤلاء القليلون لا يستطيعون أن يقاوموا الكثيرين المحتمين بسلطة الأمير.

وفي كافة أعمال البشر -وخاصة الأمراء- فإن الغاية تبرر الوسيلة، فليعش الأمير وليحافظ على عرشه دون النظر في الوسائل فإنها ستبقى على الدوام معتبرة شريفة، يمدحها الكلّ؛ لأن العامة مأخوذون بالظواهر وبنتائج الأشياء والعالم لا يشمل إلا العامة. وبالنسبة لغير الساذجين فهم قلة تنعزل حين تجد الكثرة مجتمعة حول الأمير.

إن أحد الأمراء المعاصرين نفضل أن لا نذكره -يقصد فرديناند الثاني ملك إسبانيا- لا همّ له إلا الثناء على السلم والأمانة ولكنه في الواقع عدو شديد لهما ولو أنه راعى أحدهما لفقد ملكه وخسر نفسه»[١].



● كرونوس يأكل أحد أبنائه

أكل كرونوس أولاده الواحد تلو الآخر، فـ(الملك عقيم) لا ينفع فيه النسب، وإذا أردت أن تعرف -أيها القارئ- معنى هذه الكلمة، فما عليك إلا أن تتخيّل رأس مصعب بن الزبير بين يدي الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، يقول ابن كثير في كتابه البداية والنهاية: «ولما وضع رأس مصعب بين يدي عبد الملك، قال عبد الملك: لقد كان بيني وبين مصعب صحبة قديمة، وكان من أحبّ الناس إليَّ! ولكن هذا الملك عقيم!»[٢]. أيضًا الخليفة العباسي هارون الرشيد، قالها لولده عبد الله المأمون: «ووالله لو نازعتني هذا الأمر لأخذتُ الذي فيه عيناك، فإن الملك عقيم»[٣].

وهذه القصة تكاد تكون مألوفة في الديانات السماوية وغير

(١) الأمير/ ١٥٥.
(٢) البداية والنهاية ٨/ ٣٤٨.
(٣) بحار الأنوار ٤٨/ ١٣٢.



لوحة للفنان جيتو دي بوندوني، ١٣٠٤م قتل الأطفال في بيت لحم (مذبحة الأبرياء)

السماوية، فرعون مثلًا أخذ يقتل الأولاد من أجل نبوءة تقول: إن هناك طفلًا سيكون هلاكه على يديه، كذلك فعل الملك الروماني (هيرودس- Herod) حيث قام بقتل الأطفال في بيت لحم من عمر سنتين فما دون من أجل نبوءة أيضًا.

حول جريمة القتل البشعة التي مارسها فرعون، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[١].

إن القصة التي تهمّنا في هذا العنوان يذكرها الطوسي في كتابه مجمع البيان، يقول: «والسبب في قتل الأبناء أن فرعون رأى في منامه كأن نارًا أقبلت من بيت المقدس، حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها، وأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل. فهاله ذلك، ودعا السحرة والكهنة والقافة[٢]، فسألهم عن رؤياه، فقالوا:

(١) البقرة:٤٩.
(٢) القائف: الذي يتبع الأثر.

إنـه يولد في بني إسـرائيل غـلام، يكون على يده هـلاكك، وزوال ملـكك، وتبديـل دينك. فأمر فرعـون بقتل كل غـلام يولد في بني إسرائيل، وجمع القوابل من أهل مملكته، فقال لهن: لا يسقط على أيديكن غلام من بني إسرائيل إلا قتل، ولا جارية إلا تركت! ووكل بهن، فكن يفعلن ذلك. وأسـرع الموت في مشـيخة بني إسـرائيل، فدخـل رؤوس القبـط على فرعـون، فقالوا لـه: إن الموت قد وقع في بني إسـرائيل، فتذبـح صغارهم، ويموت كبارهم، فيوشـك أن يقع العمل علينا! فأمر فرعون أن يذبحوا سـنة، ويتركوا سنة، فولد هارون في السنة التي لا يذبحون فيها فترك، وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها»[1].

وحول الجريمة المأسـاوية التي مارسـها هيرودس، جاء في الإصحـاح الثاني من إنجيل متّى: «وَلَمَّا وُلِدَ يَسُـوعُ فِـي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّـةِ، فِـي أَيَّامِ هِيـرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْـرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَـلِيمَ * قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْـرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْـجُدَ لَهُ» * فَلَمَّا سَـمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِـكُ اضْطَـرَبَ وَجَمِيـعُ أُورُشَـلِيمَ مَعَهُ*فَجَمَـعَ كُلَّ رُؤَسَـاءِ الْكَهَنَـةِ وَكَتَبَةِ الشَّـعْبِ، وَسَـأَلَهُمْ: «أَيْـنَ يُولَدُ الْمَسِـيحُ؟» * فَقَالُوا لَـهُ: «فِي بَيْـتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّـةِ. لأَنَّهُ هكَذَا مَكْتُـوبٌ بِالنَّبِيِّ: * وَأَنْتِ يَـا بَيْتَ لَحْمٍ، أَرْضَ يَهُوذَا لَسْـتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَـاءِ يَهُوذَا، لأَنْ

(١) مجمع البيان ١/ ٢٠٦.

مِنْـكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَـعْبِي إِسْـرَائِيلَ» * حِينَئِـذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِي ظَهَرَ * ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ، وَقَالَ: «اذْهَبُوا وَافْحَصُوا بِالتَّدْقِيقِ عَنِ الصَّبِيِّ. وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِي، لِكَيْ آتِيَ أَنَا أَيْضًا وَأَسْجُدَ لَهُ» * فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقُ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ * فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًـا جِدًّا * وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ. فَخَرُّوا وَسَـجَدُوا لَهُ. ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَـهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا * ثُمَّ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلْمٍ أَنْ لاَ يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، انْصَرَفُوا فِي طَرِيـقٍ أُخْرَى إِلَى كُورَتِهِمْ * وَبَعْدَمَـا انْصَرَفُوا، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْـرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُـولَ لَكَ. لأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِـعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِـيَّ لِيُهْلِكَهُ» * فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ لَيْلاً وَانْصَرَفَ إِلَى مِصْرَ * وَكَانَ هُنَـاكَ إِلَى وَفَاةِ هِيرُودُسَ. لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ الْقَائِـلِ: «مِـنْ مِصْرَ دَعَـوْتُ ابْني» * حِينَئِـذٍ لَمَّا رَأَى هِيـرُودُسُ أَنَّ الْمَجُوسَ سَـخِرُوا بِـهِ غَضِبَ جِدًّا. فَأَرْسَـلَ وَقَتَلَ جَمِيـعَ الصِّبْيَانِ الَّذِيـنَ فِـي بَيْتِ لَحْمٍ وَفِـي كُلِّ تُخُومِهَا، مِـنِ ابْنِ سَـنَتَيْنِ فَمَا دُونُ، بِحَسَب الزَّمَانِ الَّذِي تَحَقَّقَهُ مِنَ الْمَجُوسِ»(١).

تـرى، هل تسـتطيع -أيهـا القـارئ- أن تتخيّل هـذه القصة

(١) إنجيل متى ٢/ ١-١٦.

المحزنة، إنه تاريخ دموي قاسٍ سجّله الإنسان على كوكب الأرض ولا يمكن أن نتخيّله إلا بالجهد الجهيد، كيف لا يكون ذلك إذا وصلت العدوانية لدرجة لا نستطيع أن نتحكم فيها في أنفسنا، ولا غرابة إذا علمت أن هيرودس قام بقتل زوجته وأطفاله!.

إن هذين الفلمين ينبثقان من فكرة واحدة وهي فكرة الخوف من فقد الملك، ومن وجهة النظر هذه، يجب على كرونوس أن يتفرد بالسلطة لا يشاركه فيها أحد، وفي تاريخنا نلحظ هذا الشيء بوضوح دون وجود فارق كبير، فالخليفة العباسي عبد الله المأمون قتل أخاه الخليفة محمدًا الأمين ليتفرد وحده بالسلطة، ومن اللطائف أن محمدًا الأمين سأل خادمه أحمد بن سلام، وقال له: يا أحمد، ما أشكّ أنهم سيحملونني إلى أخي، أفترى أخي قاتلي؟ قال أحمد: كلّا، إن الرحم ستعطفه عليك! فأجابه الأمين: هيهات! الملكُ عقيم لا رحم له[1]، كذلك التاريخ الدموي للسلاطين العثمانيين الذين قتلوا أخوتهم من أجل السلطة أيضًا، ولا غرابة إذا علمت أن السلطان محمدًا الثالث قتل إخوته الذكور جميعًا وعددهم تسعة عشر ودفنهم مع أبيهم، يقول محمد فريد في كتابه تاريخ الدولة العثمانية: «وكان له تسعة عشر أخًا غير الأخوات فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه ودفنوا معًا»[2].

(١) مروج الذهب ٣/ ٤١٣.
(٢) تاريخ الدولة العثمانية/ ٦٧.

ومن هذا المنطلق كان زيوس حذرًا بشـدة رغم ولعه الكثير بالنسـاء من أن يحصل له كما حصل لأبيه، فقد بلع زوجته الأولى (ميتس-Metis) من أجل النبوءة التي تقول من أنها سـتنجب طفلًا يحكـم الكون بدله كما فعل أبوه من قبل أيضًا كي لا يفقد عرشـه، وهذا الشـيء تلحظه بوضوح فـي قيام الأبناء بثـورات ضد الآباء، وخشية الآباء من إنجاب الأبناء.

ريـا فـي حالة ماسـأوية وهـي الآن حامـل، يجـب عليها أن تنقـذ ابنها الإله وألا يحصل له كما حصل لإخوته الخمسـة، خطة بسـيطة كفيلـة بذلك، اختبأت في مكان سـري بـالأرض في كهف جبـل بجزيـرة (كريـت-Crete) اليونانيـة، ويعتبر هـذا المكان من الأماكن المقدسـة بالنسبة إلى اليونانيين، ووجد فيه آلاف القرابين التي تقدم لزيوس، ولدت كبير الآلهة زيوس في هذا الكهف، وقد خدعـت ريا زوجها بـأن قدمت له حجرًا ملفوفًا فـي قماش مولودٍ فأبتلعـه كرونوس، وهذا الحجر الأسـطوري هـو حجر الزاوية في معبـد دلفـي، وهو مـن المعابد المشـهورة، ومعبد دلفـي يأتي إليه الناس من كل حدب وصوب للتبرك به.

وبالنظـر إلى الديانات السـماوية وغير السـماوية نجد فكرة إخفاء طفل مقدس ليتم رسالته ويحقق العدالة قصة مألوفة، كقصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقصة إخفاء عيسى بن مريم من الحاكم الروماني هيرودس.

تحدث صراعات بين الآلهة مثلما يحدث للبشر، حكّام الدول مثلًا القوي يهيمن على الضعيف ويزيحه عن ملكه، الخليفة العباسي السفاح قتل الخليفة الأموي مروان بن محمد واستولى على مملكته، ينتقم الإله القوي من الإله السابق بقتله ويرسله إلى الجحيم، ويستولي على مملكته أيضًا وتتسع سلطة ألوهيته.



نحت تصويري في متحف روما يعود للفترة بين القرنين الأول والثالث الميلادي، ريا تقدم حجرًا ملفوفًا في قطعة قماش لكرونوس

خصص للإلهة أدوارٌ معينة، إله يدير شؤون الأرض، وإله يدير شؤون السماء، وإله موكل بالبحار وآخر بالأنهار، وهكذا دواليك.

تفرح الآلهة وتغضب، وكل ثقافة تتعامل مع فرح وغضب الآلهة بطريقة معينة، فنشأت إثر ذلك التعاويذ والطلاسم وخرافات كثيرة استخدمها البشر قبل آلاف السنين لاتقاء شرّ الآلهة والخوف

من المجهول ومواجهة الموت وما شابه ذلك.

لا بأس أن نسرد بعض الصور من الأساطير السومرية في بلاد الرافدين وهي مقطع من أنشودة من أناشيد السومريين، تتميز الأساطير السومرية بقدمها، فهي تعود إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، أخذت الأساطير السومرية شعبية كبيرة في الحضارات الأخرى وأصبحت مصدرًا رئيسًا لهم.

وملخص الأسطورة السومرية، أن (نامو) لا أحد معها وهي المياه الأولى التي تشكل منها كل شيء، أنجبت ولدًا وبنتًا (آن) إله السماء المذكر، (كي) إله السماء المؤنث، بعد ذلك تزوج (آن) بـ(كي) فأنجبا إينليل وهو إله الهواء، وتستمر الأسطورة في تكون الشمس والقمر والبشر.

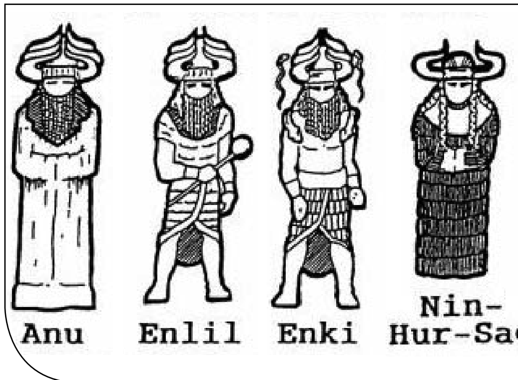
هذه الطبخة الكونية يسردها بريوشينكين في كتابه (أسرار الفيزياء الفلكية والميثلوجيا القديمة): في البدء كانت المياه بنات المحيط الكوني (نامو)، تملأ كل شيء فأخرجت نامو من ذاتها آن وكي (الأرض)، ولدًا وبنتًا، وأسكنتهما على التوالي في أعلى قمة الجبل وعند سفحه. ولما كبر الولد والبنت صارا شابين، جمعتهما نامو زوجًا وزوجة. فأنجب كي إنليل الذي ملأ زفيره القوي كل شيء. ثم أنجبا سبعة أبناء، سبع بيئات، وبعد ذلك ولد الآلهة الانوناكي. وإذ أخذ هؤلاء ينجبون ويتكاثرون، ضاق الجبل بهم.



○ أنكي (إله الماء)

فقرر أب الآلهة آن أن يزيد من سعة المكان الذي يقيم أحفاده فيه، فدعا إنليل وفلقا الجبل معًا، ثم رفع آن القمة، إلى فوق، وأنزل إنليل السفح المسطح إلى تحت وبذلك تكون قد ظهرت السماء في صورة قبة، وملك عليها آن، وظهرت الأرض على شكل قرص مسطح عليه منحنيات، ومرتفعات، وثغور، وملك عليها إنليل[1].

وحسب أسطورة الخلق السومرية، هناك ثلاثة آلهة رئيسين، إله السماء (آن-An)، إله الهواء والريح (إنليل-Enlil)، إله الماء (أنكي-Enki).

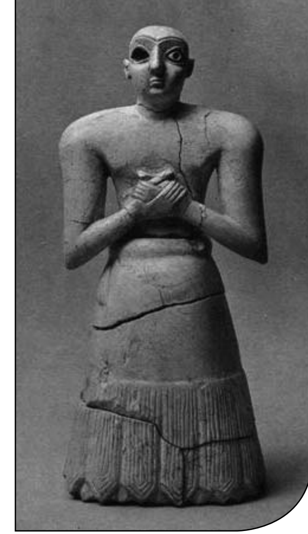


○ آن-إنليل-أنكي-نينخورساج (أم الآلهة)

ومن أجل القارئ، نذكر نصين سومريين، نتبعهما بنص بابلي حول قصة الخلق البابلية، ومن يود تعميق معرفته في هذا المجال، فعليه قراءة الكتب التي تتناول الأساطير السومرية، ككتاب ديوان الأساطير السومرية، الذي ننقل منه هذه النصوص

(١) أسرار الفيزياء/ ٥٠.

وهي ضمن الكتاب الأول الذي يتناول أناشـيد الحب السـومرية، النص الأول حول إنليل[١] وحياة البلاد:



◘ إنليل (إله الهواء)

بدون إنليل، الجبل الكبير
لن تقام المدن ولن تُرفع البيوت
ولن تُبنى الحظائر ولن تُشيّد الزرائب
ولن يحملَ الفيضان الغمر المبارك
والبحر لن يمنح كنوزه السخيّة
ولن تأتي أسماك البحر لتضع بيوضها في وسط المستنقع
ولـن تـوزع طيور السـماء أعشاشـها على الأرض الفسيحة
وفي السماء، لن تفتحَ الغيوم المحمّلة بالمطر، ثغراتها
ولن يُثقل الحصادُ الوفير، الحقولَ والمروج
ولن يُزيّن بعد ذلك السهوب، العشبُ والشجيرات
وفي البساتين فإن أشجار الجبل الكثيفة
لن تحمل ثمارها

(١) (Enlil) إله الهواء، وهو أحد الآلهة الثلاثة الرئيسين في الحضارة السومرية، ومعبده الرئيس في مدينة نفّر (Nippur)، وهي مدينة مقدسة وعاصمة دينة في الحضارة السومرية، تقع جنوب بغداد.

ولن تلدَ البقرات في الزريبة

وفي الحظيرة لن تضع النعجات حِملانها

والبشرية، هذه الجموع العاجّة، لن تستمر

ولن تسعى الحيوانات المفترسة ورباعيات القوائم[١]

على إطعام صِغارها

أما النص الثاني السومري، فيتناول مسألة خلق الصيف والشتاء، فعندما قرر إنليل توفير الأشجار والحبوب لينتشر الرخاء على وجه الأرض، خلق الأخوين (إيميش–Emesh) الصيف، (وإينتين–Enten) الشتاء، ليقوما بدورهما، يقول النص السومري، بعنوان (الأخوان الصيف والشتاء إيميش وإينيتن):

إينتين كان يجعل النعاج والماعز تلد صغارها

كثّر البقرات والعجول ووفّر بسخاء السمن واللبن

وفي السهوب، جعل البهجة تعمّ العَنْز البرّي والأرويّات والحمر الوحشية

ووزّع أعشاش الطيور على كامل الأرض الفسيحة

وجعل الأسماك تضع بيوضها في هور القصب

وفي مزارع النخيل....

(١) ديوان الأساطير السومرية (سومر وأكاد وآشور) ١/ ٧٥.

غطى بالخضرة البساتين وجعل زروعها تتكاثر

... أما إيميش، فقد نمّى الأشـجار والزروع ووسّـع المذاود والحظائر

وضاعف إنتاج المزارع وغطّى الأرض

كما أتى بحصاد غني ليُكدّس في العَنابر

ودفع إلى بناء المساكن والتجمعات السكنية وإلى

إشادة البيوت في كل مكان

وإلى إقامة معابد تضاهي الجبال في شموخها[١]

وختامًا هـذا النص الثالث، حول قصة الخلق البابلية، تروي هـذه القصيدة ولادة الآلهة، وتحديد الأدوار، وقصة التكوين، جاء في الكتاب الثاني من ديوان الأساطير السومرية:

بينما في الأعالي

لم تكن السماء قد سمّيت بعد

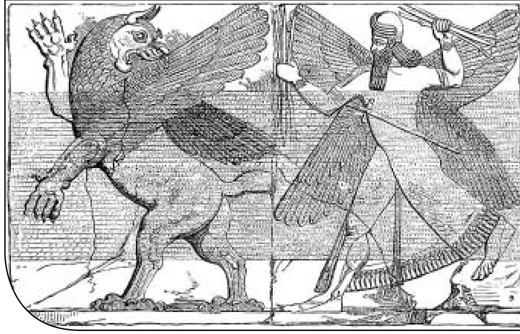
والأرض اليابسة في الأسفل

لم يكن أطلق عليها أي اسم

وحدهما، أبسو[٢] الأول

والدهم

(١) ديوان الأساطير السومرية (سومر وأكاد وآشور) ١/ ٨١.
(٢) (Apsu) أحد عنصري المياه البدائية.



● معركة ينتصر فيها مردوك على تيامت

والأم تيامت[١]
والدتهم جميعًا
كانا معا يمزجان
مياههما
فـلا منابـت القصب
كانت قد تكتّلت بعد
ولا المقاصـب
كانت فيها مميّزة[٢]

وتستمر هـذه الأناشـيد الأسـطورية السـومرية البابلية، أما أسـاطير الهنـد فحالها من حال الأسـاطير السـومرية، نكتفي بذكر نشيد أصل الآلهة:

يسـعدنا أن نروي الآن عن أصل الآلهة، إلى من سـوف يرى الآلهة في الزمن الآتي

لقد شكلهم براهمانا سـباتي[٣] في عصر الآلهة المبكر، كما

(١) (Tiamat) العنصر الثاني من المياه البدائية، تكون منهما كل شيء.
(٢) ديوان الأساطير السومرية (سومر وأكاد وآشور) ٢/ ١١٦.
(٣) الإله الذي خلق الكون في الديانة الهندوسية ومعناه الحرفي سيد الصلاة، وهو أحد ثلاثة آلهة رئيسين (براهما-Brahma)، (شيفا-Shiva)، (فيشنو-Vishnu)، فمن يعبد أحد الآلهة الثلاثة فقد عبدهم جميعًا، ونخرج بنتيجة مهمة جدًّا أن الهندوسيين لم يعبدوا إلهًا واحدًا، وقالوا بالتثليث قبل النصارى بقرون عديدة، وتأثرت الديانة الهندوسية بالأساطير السومرية التي تتوافق معها بشكل كبير جدًّا.

الحداد[١]

في عصر الآلهة الأول خرج الوجود من العدم، ثم ظهر المكان العالمي، وقد ظهر هذا من الأم الأولى.

ظهرت الأرض من الأم الأولى، ومن الأرض ظهر المكان العالمي، ومن (أديتي-Aditya)[٢] ظهر (داكشا-Daksha)[٣]، ومن داكشا ظهرت أديتي.

فأديتي ظهرت ياداكشا، إنها ابنتك، ثم ظهر الآلهة، رفاق الخلود الطيبون.

أوه أيها الآلهة، حينما وقفتم في البحر البدئي يمسك واحدكم الآخر بثبات، تصاعد منكم غبار كثيف كالذي يحدثه الراقصون.

أوه أيها الآلهة، عندما أضنيتم أنفسكم ضاعفتم العوالم، رفعتم الشمس المتخفية في البحر.

أبناء أديتي الثمانية[٤] ولدوا من جوفها. أُصعدت هي إلى الآلهة مع سبعة أبناء، فهي أنكرت مارتاندا.

(١) واضح أن الديانة الهندوسية (البرهمية) تعاملت مع الكون على أنه منتوجات عقل بشري أشبه ما يكون بورشة صنع السيارات.

(٢) أديتي: الأم الأرض وهي والدة الآلهة الأديتي الذين يجسدون شهور السنة.

(٣) داكشا بن براهما، والكلمة استخدمت في هذه الإنشودة كصفة لأغني، إله النار في الديانة الهندوسية.

(٤) الكواكب الثمانية أنجبتهم أديتي الأم الأرض.

لقـد أُصعـدت أديتي مع أبنائها السـبعة إلى العصـر المبكر، ومن أجل الميلاد والموت استدعت مارتاندا من جديد.[١]

الصينيـون لـم يكونوا أحسـن حظًّـا، اعتقـدوا أن الكون كان خرابًـا ولد منه الإلهان إين ويان، تزاوج الإلـه الذكر يان بالإله إين الأنثـى، وبزاوجهمـا ظهر الكون، يان يدير شـؤون السـماء، وإين تدير شؤون الأرض.

مـن الصعوبة بالطبع أن نتكلم حول الميثلوجيا في الحضارات البشرية، فهي أكثر من أن تحصى، وكما قلنا سابقًا آلاف الآلهة عبدت وآلاف الديانـات ظهـرت على وجه الأرض، وكتـب في هذا العنوان آلاف الكتـب أيضًـا، لكـن عندمـا نلقـي نظرة سـريعة نخـرج بنتائج جيدة تشـترك فيها جميعًا، أهمها تأليه قوى الطبيعة مما نتج عن ذلك تعدد الآلهة وأسـندوا كل ظاهرة لإله معين، وأصبح كل شـيء يعبد، الشمس، النجوم، القمر، البقر، النار، الماء،... نقطة في غاية الأهمية أن الحضـارات البشـرية لـم تعبـد إلهًا واحدًا بل عبـدت مجموعة من الآلهة باستثناء الديانات السماوية التي كانت تدعو لعبادة إله واحد.

تاريـخ اليمـن كان تاريخًـا مأسـاويًّا علـى مـا يبـدو، بلقيس وقومها كانوا يعبدون الشـمس ويسجدون لها، نحن نعلم اليوم أن هناك معلومات لـم تكن متوفرة حول الشـمس لبلقيس وقومها مما

---

(١) أسرار الفيزياء/ ١٦٥.

جعلهم يعبدونها، كانوا يجهلون ما هية الشمس؟

الآلهـة فـي الميثلوجيا القديمة تتشـابه مع الإنسـان وتتكون من أعضاء جسـدية مثلها مثل الإنسـان، وتتزاوج الآلهة من بعضها وتنجب جيلًا جديدًا من الآلهة يتحاربون مع بعضهم. تعلن الآلهة غضبهـا باسـتخدام الظواهر الطبيعيـة كالرعد والبرق والخسـوف والكسـوف والـزلازل والبراكيـن، أغلـب الحضـارات اتفقت أن الكون نتج عن ... بين ذكر (إله) وأنثى (إله)، أو أنه ولد من فقيس بيضـة كما يصـوره الهنـدوس أيضًا، أو أشـبه بورشـة العمل وهي منتجات عقل بشـري، الإله الذي يدير الكون يديره بنظام أشـبه ما يكون بأنظمتنا السياسية التي تحكم الدولة.

جاء فـي كتاب أسـرار الفيزيـاء، الميثلوجيا الهنديـة بعنوان أسطورة البيضة الكونية: الشمس هي براهمان، تلك هي الموعظة. وتفسـير هـذا: العدم كان هذا العالم في البـدء، والوجود كان هذا، وقـد صـار، لقد تحـول إلى بيضـة، واسـتلقت هذه طول عـام، ثم انشطرت، وصار شطرا قشرتها هذان أحدهما فضيًّا والآخر ذهبيًّا.

الشـطر الفضي، هو الأرض، والشـطر الذهبي، هو السماء، وما كان القشـرة الخارجيـة صار الجبال، ومـا كان القشـرة الداخلية صار الغيوم والضباب، وصارت العروق أنهارًا، والسائل الداخلي بحرًا[1].

---

(١) أسرار الفيزياء/ ١٦٦.

نتتقـل إلـى الرواية اليونانية وسـنتكلم بشـيء مـن التفصيل حولهـا، تـرى هـذه الرواية أن الكـون كان خرابًـا ويبابًـا، كان هذا اليباب يشـكل المادة الأولية للكون، نشـأت منه الأرض، وتستمر الروايـة الأسـطورية أن الأرض (جايـا- Gaia) ولـدت أورانـوس السـماء وأصبح زوجًا لها، وهما أول زوجين في الكون، لقد أنجبا أولادًا كثيرين، وكان هؤلاء الأولاد مسوخًا بأشكال مختلفة، خاف أورانـوس مـن أولاده وخبأهـم في أعمـاق الأرض، قـررت جايا الانتقـام. صنعت جايـا منجلًا لإله الزمن كرونـوس لينتقم من أبيه إله السـماء الذي ينزل كل ليلة إلى الأرض مع حلول الظلام[١].... وتستمر الأسطورة في ولادة البشر بعد ذلك.

كتاب أسرار الفيزياء يتكلم حول الأسطورة اليونانية للآلهة: (وصف [هسيود-Hesiod] نشوء الكون، في ملحمته نشوء الآلهة، التي تعود إلى القرنين السابع والثامن قبل الميلاد:

في الكون ولد الخراب أولًا، وفي إثره

جيا المستديرة الرحبة، الملجأ الآمن المشترك

(وتارتاروس-Tartarus)[٢] المظلم الكئيب في أعماق الأرض

(١) الأساطير تعيد نفسها، لقد قتل كرونوس أباه أورانوس، كذلك انتقم زيوس من أبيه كرونوس.

(٢) الجحيم السفلي، ويلقى فيه الأشرار الذين ارتكبوا جرائم ضد الآلهة فيتعذبون بالنار فيها.

والأروع بين الآلهة الآزليين كلهم، الإله

البديع (ايروس-Eros)[١]. إنه الأعذب لدى الآلهة

وسكان الأرض من البشر

يخضع الروح في الصدر، ويسلب اللبّ من العقل.

ومن (الكاوس-Chaos) ولد الليل الأسود و(أريبوس-Erebus)[٢] الجهم

وأنجب الليل الأثير، والنهار المشرق، (أوهيميرو-Hemera)[٣]

لقد حمل بهما في جوفه، اقترن بالحب مع أريبوس

وانجبت جيا لنفسها رحابة مثيلة

سماء أورانوس ذات النجوم، لكي تغطيها في كل مكان

ولكي تكون مسكنًا راسخًا للآلهة الكاملي الغبطة

لقد ملك أورانوس على العالم واتخذ جيا زوجة له. وترجع أصول اسمه إلى الإله الهندوأوروبي (الآري فارونا-Varuna)[٤]، الذي تعني ترجمته من السنكسريتية: يغطي. وكان لأورانوس وجيا

(١) إله الحب والرغبة والجنس.

(٢) إله الظلام.

(٣) إله النهار.

(٤) الإله فارونا-الديانة الهندوسية.

ستة أبناء وست بنات: الجبابرة (الطيطانيس–Titaness). وولد ابنهما (أوقيانوس–Oceanus) والإلهة (ثيتيس–Tethys) أنهار الكون كلها، أما الطيطان (هيبريون–Hyperion)، و(ثيا–Theia) فقد منحا الكون أبناءهما: الشمس (هيليوس–Helios)، والقمر (سيلينا–Selene)، والفجر (ايوس–Eos). ومن (استريوس–Asterios) وايوس خرجت النجوم. وقام الطيطان كرونوس ضد والده، ونجح بعد صراع مرير في الإطاحة به. ومن قطرات دماء أورانوس المتساقطة على الأرض ظهر العمالقة الجبابرة الذين لهم رؤوس أفاعي. وأنجب كرونوس وريا ابنهما زيوس، الذي ينتمي بدوره إلى الإله الهندوأوروبي (ديوس–Deus)[١] أو (ديفوس–Divus)، كما أنجبا هيرا، و(بوسيدون–Poseidon) إله البحار، و(ديميترا–Dimitra) إلهة الخصب، و(هاديس–Hades) إلى المملكة السفلى. لقد كان عهد كرونوس، هو العصر الذهبي في الكون. لكن زيوس أطاح بكرونوس[٢]، وصار جبل الأوليمب[٣]

(١) الإله ديوس، الديانة الهندوسية.

(٢) زيوس ترعرع في الغار الذي خبأته فيه والدته، ونشأ فيه حتى أصبح قادرًا على مواجهة أبيه، وخرج بكل قوته مستعينًا بإخوته الخمسة، خطة جيدة حاكها زيوس بأنه تسلل إلى مقر أبيه خلسة ووضع له مشروبًا جعله يتقيأ الحجر وأخوته الخمسة، في النهاية انتقم زيوس من أبيه بمساعدة أبناء أبيه الخمسة وأعمامه أخوة كرونوس.

(٣) أعلى جبال اليونان، يبلغ ارتفاعه ١٠,٠٠٠ قدم تقريبًا، كان مقرًا للآلهة اليونانيين وهو من الجبال المقدسة بالنسبة لليونانيين.

مستقر الآلهة. وعندما سرق (بروميتيوس-Prometheus) النار من عند الآلهة، بدأ العصر الفضي، ولم يعد الربيع يتواصل طول السنة، فاضطر الناس إلى الاحتماء من البرد في الكهوف، وبنو المنازل. ثم حل العصر النحاسي، وفيه ابتكر الإنسان الأسلحة، بيد أنه لم يكن قد غدا مجرمًا بعد. وفي العصر الحديدي ابتكر الإنسان الأسلحة الحديدة، وبات البشر يتقاتلون بها في سبيل الذهب، فبدأت الحروب، وظهر الغش، والخداع، والطمع، والعنف»[1].

قبل أن أنتقل إلى الرواية النرويجية، يجب علينا أن نعرف أن دراسة الأساطير تقودنا إلى تناقضات كثيرة مما يسهل علينا كباحثين اكتشافها بسرعة، لكن الأهم من ذلك كله بكثير أن الأسطورة لا تظهر مرة واحدة بل هو عمل تراكمي تطور مع تطور الزمن حتى وصلت لمرحلة النضج ووضعت في قالب معين لتمريرها للأجيال القادمة.

يقول (بيار غريمال-Pierre Grimal) في كتابه (الميثلوجيا اليونانية): «إن الأسطورة ليست واقعًا مستقلًا، لكنها تتطور مع الظروف التاريخية، وأحيانًا تحافظ على شهادات غير متوقعة حول حالات منسية ودول زائلة. هنا، تبدو الأسطورة وسيلة تقصٍّ ثمينة، وهي -إذا تخلينا عن منطق ما قبل عصر أو اثنين من أن الأسطورة دائمًا تحوير للتاريخ- تبقى اليوم موضوع سؤالنا لها عمّا

(١) أسرار الفيزياء/ ٨٥.

تحفـظ عن المكان والزمان اللذين نبتت فيهـا. وعلماء الميثلوجيا المعاصرون، أكثر رصافة من أسـلافهم القدماء، تجاه التغير. إنهم يتحدّون بعضهم بعضًا حول أسـاطير صـارت متكاملة وترابطهما يفضـح التفاصيـل التي قـد تطرأ عليها مـع الزمـن. إن العمل على الأسـاطير، بدأ منذ زمـن بعيد، والذي نقطفه غالبًـا من النصوص، ليس سوى حصيلة تطور طويل»[1].

ولفهـم هـذه النقطـة بوضـوح، سـأقوم بالنظـر عـن كثـب للأسطورة العربية الشـهيرة (مجنون ليلى)، اختلافات كثيرة حول مولده واسمه، تناقضات وتهافتات كثيرة حول قصة حياته.

هذه نتيجـة تلفت النظـر، ويترتب عليها الكثير مـن النتائج، ويحتـاج مـن الباحث الجهد الجهيد لفحص الحقائق فهي ليسـت بتلك البساطة بل معرفة ذلك فائق الصعوبة.

إن الاحتمـال القوي أن قصة المجنـون اختلقت من أطراف عديـدة وجمعت لهـا أشـعار عديدة من شـخصيات عديـدة حتى وصلـت لمرحلة النضج على مر الزمن ووضعت في قصة متكاملة لتمريرهـا للأجيـال، نكتفي بذكـر الجاحظ: «ما ترك الناس شـعرًا مجهول القائل في ليلى إلا نسبوه إلى المجنون»[2].

---

(١) الميثلوجيا اليونانية/ ١٣.
(٢) الأغاني ٢/ ١٠.

إن مثـل هذه الشـكوك بالتأكيـد تضعّف من القصـة وتعطي مسـاحة أكبر في كونها أسـطورة، وكلما كثرت مساحة الشك قلّت واقعية القصة.

جـاء في كتـاب (الدقائـق الثـلاث الأولى من عمـر الكون) لعالـم الفيزياء الشـهير والحائز على جائزة نوبل، (سـتيفن وانبرغ- Steven Weinberg)، حـول الصـورة الأسـطورية المرسـومة فـي التـراث النرويجـي، هذه الرواية حول نشـأة الكون بعنـوان المارد والبقـرة التـي وردت فـي الإيـدا الصغـرى التـي كتبهـا الشـاعر الإيسـلندي (سـنوري سـتورليزون-Snorri Sturluson) في القرن الثالث عشر الميلادي، والتي عرض فيها بصورة شعرية الخرافات الإسـكندنافية: «في البدء، لم يكن يوجد شيء، لا أرض ولا سماء فوقها، بل هاوية فاغرة...ولا وجود لعشب في أيِّ مكان، في شمال العدم وجنوبه، تمتد مناطق من الجليد والنار: نيفلهيم وموسبيلهيم (Niflheim،Musplheim)، وحـرارة الموسـبيلهيم تذيب قليلًا من جليد النيفلهيم، ومن قطرات السائل ولد مارد هو (إيمير-Ymer). ترى ماذا كان يأكل؟ يبدو أنه كان ثمة بقرة (أدهولما-Audhulma)، ولكـن ما الذي كانت تأكله هـذه البقرة؟ لا بأس، لا بُدّ أنه كان ثمة ملح أيضًا وهكذا تتابع الأسطورة!»[1].

نلحظ فـي الميثلوجيا الإسـكندنافية أن الحياة بـدأت بالنار

(١) الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون/ ١١.

والثلـج، أذابـت النـار الثلج وتكون إيميـر والبقرة، أشـبه ما تكون بوجبة غذائية تجهز في المطاعم، جاء في الإيدا الصغرى:

في البدء لم يكن

لم تكن ثمة سوى إيمير

لا شاطئ البحر

ولا الأمواج الصقيعة

لا اليابسة تحت

ولا السماء فوق

ولا الأعشاب الخضراء

لم يكن سوى لجة فاغرة فاها[1]



◘ الأساطير الإسكندنافية حول خلق العالم، البقرة أدلوهما تغذي المارد إيمير، التمثال موجود في فابورغ بالدنمارك

وخلاصـة الأمـر حول موضوع الميثلوجيا أسـتطيع أن أقـول: لقـد أصبح واضحًا تمامًا لماذا ظهـرت هـذه الأسـاطير الكونيـة فـي الحضارات البشرية، كانت محاولات لاستقراء الطبيعة والشعور

(١) أسرار الفيزياء/ ١٤٦.

تجاهها بالطمأنينة.

مـن الطبيعي ألا يتوقع أبناء هذا القرن أن الحضارات القديمة سـوف تكـون علـى معرفـة بالانفجـار الكبيـر، والثقوب السـوداء، ومجـرة درب التبانـة، ودوران الأرض حول نفسـها، ولم تكن مثل تلك الأسـاطير مفاجئـة حقًّا لأبناء هـذا القرن؛ لأن تلك الأسـاطير نبعت من سد فراغ فكري لكثير من الأسئلة والألغاز التي كانت تدور في ذهن البشـر حول مسـألة نشـأة الكون، ورغم أن هذه الخرافات محيـت فـي القرن الواحـد والعشـرين، إلا أن العلم ليـس له القدرة على تطهير عقول كافة البشـر من معتقداتهم السـخيفة، وخاصة إذا كانت هـذه المعتقـدات لها ارتباط وثيق بمسـألة الديـن، فالخروج عليها يعتبر نوعًا من التمرد كما حصل لأبي الفيزياء الحديثة جاليليو حيث وضع تحت الإقامة الجبرية بسبب اعتقاده بأن الأرض تدور.

قـد لعبت النظريات العلمية دورًا مهمًّا في تطهير عقول كثير من الناس من مثل هذه الأسـاطير، جاء في كتاب (موجز في تاريخ الزمن) لعملاق الفيزياء (ستيفن هوكنج–Stephen Hawking) هذه القصـة: (ألقى أحد مشـاهير العلماء يومًا محاضـرة عامة عن علم الفلـك- يقال إنـه (برترانـد راسِـل–Bertrand Russell)- وصف كيف تدور الأرض حول الشـمس، وكيف تدور الشـمس بدورها حـول مركز مجموعة كبيرة من النجوم تدعـى المجرّة. ومع انتهاء المحاضـرة، وقفت سـيدة عجـوز قصيرة القامة في طـرف القاعة،

وقالت: (إن ما قلته لنا هراء..فالعالم في الواقع لوح مسطّح، على ظهر سلحفاة عملاقة) وارتسمت على وجه العالِم ابتسامة متعالية قبل أن يردّ: (وعلى ماذا تقف السلحفاة؟) فأجابت السيدة العجوز: «إنك ذكي جدًّا أيها الشاب، ذكي جدًّا..ولكنها سلاحف تقف فوق بعضها البعض نزولًا إلى النهاية!»[١].

لا شك ولا ريب أن الخرافات كانت منتشرة كالنار في الهشيم في كثير من الحضارات، ولقد تشبعت عقول الكثير من الناس بهذه الخرافات تجاه الكون، فالشمس اتخذت في بعض الحضارات إلهًا يعبد من دون الله، وكمثال على ذلك عندما أخبر هدهد سليمان أن بلقيس وقومها يعبدون الشمس من دون الله، كذلك نظرة الكثير من الناس للنجوم يصحبها قداسة، ولم يتوقف الأمر عند الشمس والنجوم، فالأرض أيضًا لم تسلم من ذلك، فكانت المحيطات والغابات هي بيئة مناسبة لزرع الخرافات فيها كحورية البحر ومغيب الشمس ومناطق معينة من الأرض تتميز بخصائص خارقة أو فئة معينة من البشر وما شابه ذلك، وبالطبع كانت هناك فئة تتعمّد تجهيل عقول الناس تجاه حوادث الكون مثل الذي حصل من قبل الكهنة في الحضارة البابلية تجاه قضية الخسوف والكسوف، هذه القضية كانت بعنوان غضب الآلهة، واتخذوا من هذه المسألة معاملة تجارية مربحة كسوق الذهب

(١) موجز في تاريخ الزمان/ ١٩.

والعملات والأسهم! فكان البسطاء يقدمون القرابين.

إن الاطّراد العلمي الذي حصل خلال القرن المنصرم وهذا القرن هو ما جعل علماء الفيزياء متفائلين بفهم الكون أكثر والسعي وراء عددٍ لا متناهٍ من النظريات تصف الكون بدقة أكثر، ولا شك أن هذا الاطّراد العلمي قلّص الخرافات كثيرًا، التي كان يعتقدها الناس في السماوات، وفي الأرض أيضًا، فمنذ عهد (أرسطو-Aristotle) الذي قال بمركزية الأرض وثبوتها وحركة الشمس والكواكب والقمر بشكل دائري حولها لأسباب تأملية وروحية، وباعتبار أن الحركة الدائرية أكثر الحركات كمالًا وجمالًا، وقد أتى من بعده (بطليموس-Ptolemaeus) وعضّد فكرة أرسطو، وأصبح العلم يتطور شيئًا فشيئًا.

حتى أتى (كوبرنيوكس-Copernicus) وقال بالمركزية الشمسية، وأن الأرض تدور حول الشمس، فالفرق الجوهري بين النموذجين أن الأول يضع الأرض في المركز والثاني يضع الشمس في المركز، وأتى من بعده أبو الفيزياء الحديثة (جاليليو-Galileo) وعضّد فكرته وقال بدوران الأرض حول الشمس مخالفًا بذلك الكتاب المقدس الذي يقول: إن الله ثبّت الأرض، فقد جاء في سفر باروخ «لكن العالم بكلِّ شيء هو يعلمها وبعقله وجدها الذي ثبت الأرض إلى الأبد وملاها حيوانًا ذا أربع»[1]، مما جعله يتهم

(١) سفر باروخ ٣/ ٣٢.

بالزندقـة، وقد عانى كثيرًا ووضع تحت الإقامة الجبرية؛ لأنه تمرد على السـلطة الدينية. لقد صاغ لنـا العالم الفلكي الألماني (كبلر-Kepler) مثلثًـا ذهبيًّا يصف فيه حركة الكواكب وقال: إن الكواكب تدور حول الشمس في قطع ناقص تقع الشمس في إحدى بؤرتيه، وأن الخـط الواصـل بيـن الكوكـب والشـمس يمسـح مسـاحات متسـاوية فـي أزمنة متسـاوية، كذلك أن مكعب بعـد الكوكب عن الشمس يتناسب تناسبًا طرديًا مع مربع سنته.

وقد أتى من بعده العبقري العظيم (نيوتن-Newton) بروايته المشـهورة المشكوك في صحتها -وهي التفاحة التي سقطت عليه عندمـا كان نائمًـا أو متأمـلًا وقادته إلـى الجاذبية- ووضـع قانون الجاذبيـة الذي يحكم حركة القمر والكواكب في السـماء، وأثبت لنـا أن أيّ جسـمين في الكون يتجاذبـان فيما بينهما بقوة تتناسـب طرديًّـا مـع حاصـل ضـرب كتلتيهما وعكسـيًا مـع مربع المسـافة بينهمـا، وقد أطلـق على هذا القانـون قانون الجـذب العام، وهذه صيغته الرياضية:

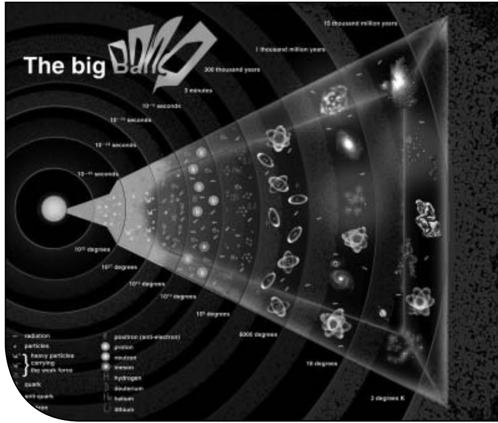
$$F = G\frac{m_1 . m_2}{r^2}$$

حيـث الحرف (F) يمثل القوة الناتجة عن الجاذبية، الحرف (G) يمثـل ثابت الجـذب العام بين الكتلتين، الحـرف (m_1) يمثل كتلة الجسـم الأول، الحرف (m_2) يمثل كتلة الجسـم الثاني، (r^2) يمثل مربع المسافة بين الكتلتين.

ولا شك ولا ريب أن نيوتن أفاد كثيرًا من علماء الفيزياء السابقين الذين ذكرناهم، وقد قال نيوتن: «إن ما قمت به من اكتشافات كان فوق أكتاف كثير من العمالقة، وكبلر هو واحد من هؤلاء العمالقة»، حتى أتى عالم الفلك الأميركي (هبل-Hubble)[١] الذي برهن للناس أن هناك مجرات كثيرة في هذا الكون غير مجرة درب التبانة وأن الكون يتمدد مع الزمن بقيمة ثابتة! بمعنى آخر أن المجرات تتباعد مع بعضها البعض، ومن هذا المنطلق أن هذه المجرات كانت أقرب إلى بعضها البعض في زمن ما في الماضي، وهذا الاكتشاف بالطبع يوحي إلى الانفجار العظيم، وبالطبع فإن فكرة التوسع الكوني من أهم الإنجازات العظيمة في القرن العشرين، ولا شكّ بأن النظريتين النسبية والكمّ ساهمتا في فهمنا للكون بشكل أفضل من قبل، ولا زال علماء الفيزياء يحذون حذو أجدادهم من أرسطو إلى جاليليو إلى نيوتن، ويبحرون في تلك السفينة التي ستوصلهم إلى هذه المعادلات التي تصف الكون بدقة أكثر وأكثر مما هم عليه الآن، وقد ذهب الكثير من علماء الفيزياء أن الكون لا يخضع لنظرية واحدة تسمى النظرية النهائية بل يخضع لمجموعة لا متناهية من النظريات تصف الكون بدقة أكثر، ومن هذا المنطلق نحن نسعى لفهم هذا الكون بشكل أفضل في كل يوم.

إننا اليوم نعرف أن الكون كان في بدايته بيضةً كونيةً ذات

(١) فلكي أمريكي، ولد عام ١٨٨٩م، وتوفي عام ١٩٥٣م، قدّم برهانًا علميًا على نظرية تمدد الكون.



نظرية الانفجار حول ولادة الكون وتطوره

حرارة وكثافة لا متناهية، ولدت هذه البيضة قبل خمس عشرة مليار سنة تقريبًا، وأخذت تتوسع حتى تكونت الشمس -أقرب نجم إلينا وهو من ضمن المليارات من النجوم في الكون ويبعد عنا ثماني دقائق ضوئية- منذ خمسة مليارات سنة ثم انفصلت الأرض عنها وقد أتى نيزك في تلك اللحظة بالضبط وضرب الأرض وفصل القمر عنها.

كانت الأرض في بداية انفصالها عن الشمس حارةً جدًّا ولم تكن صالحة لنشوء الإنسان، أصبحت الأرض تدور وتتباطأ تدريجيًّا وتنخفض درجة حرارتها حتى ظهرت لنا الكائنات البسيطة ذات الخلية الواحدة منذ مليار سنة، وبعد ذلك ظهرت كائنات متعددة الخلايا، كالنبات والأسماك والحشرات منذ نصف مليار سنة، ومن ثم ظهرت الزواحف والثديات والطيور، ومن ثم ظهر الإنسان من فترة قريبة جدًّا لا تزيد عن المليوني سنة.

وبعد خمسة مليارات سنة سوف تستنفد الشمس وقودها الهيدروجيني وستبلع الأرض والكواكب القريبة منها، وليس

الشـمس فحسـب بل جميع نجوم الكون سـوف تُطمس وسـوف ينتهـي بهـا المطـاف إلى أقـزام بيضاء أو نجـوم نيترونيـة أو ثقوب سـوداء، وهـذا المصيـر يعتمـد علـى كتلـة النجم، وهكذا سـوف يتلاشى الكون بأكمله.

هذه نظرة العلم للكون ولنشوء الحياة على كوكب الأرض، وهذه النظرة لسـنا مجبريـن بتصديقها إلا أننـا نتقبلها بحكم كونها نظرية علمية فسرت لنا هذا الكون بأجمل من نظرية المارد والبقرة وجايا الحزينة والسـلاحف المتلاحقة، وبالتأكيد لو أن أبناء الجيل القـادم توصلـوا لفهـم هـذا الكـون بأفضل مـن فهمنا سـيرفضون نظرياتنا كما رفضنا نظرية المارد والبقرة.

إن هـذه النظـرة العلمية الحديثة بلا شـك أتاحـت لنا معرفة الكون عن كثب، فقد أفقدت هذه النظرة قداسـة الشمس وعمَّقت إحساسنا بوجود الله، فمن خلال ذلك نعرف جيدًا أن الكون يسير وفق قوانين محكمة جدًّا، فلو اقتربت الشـمس أو ابتعدت لعدمت الحيـاة! لقـد أيقنا جيدًا أن الأرض تقع في زاوية ما في هذا الكون، هـذه الزاوية اختيرت بدقة من الله سـبحانه وتعالـى، لتكون قادرة على ظهور الكائنات العاقلة.

ولا يفهـم من هذا الـكلام أن الأرض هـي الكوكب الوحيد الذي سـمح بظهـور كائنات ذكية، حتى هـذه اللحظة نحن لا نعلم عن كائنات ذكية تعيش في كواكب أخرى ولا نملك معلومات عن

كوكب نشأت فيه الحياة غير كوكب الأرض، وعلى الرغم من ذلك فهذا ليس بدليل كافٍ على أن الحياة مقتصرة على هذا الكوكب الأزرق الصغير، فالكون هو بحجم من الصعب تصوره المليارات المليارات من الكواكب، بكل تأكيد ستكون الحياة موجودة هناك، وربما تعيش مخلوقات حضارتهم متطورة أكثر مما نتخيّل.

وبالطبع دائمًا يتساءل الفيزيائيون النظريُّون عن عدد كثير من المجاهيل، لماذا بدأ الكون حارًّا؟ ولماذا كان ذا كثافة عالية جدًّا؟ وكيف تم اختيار كثافة الكون البدائية على هذه الدقة المتناهية التي تفصله عن التوسع والانكماش؟ ولماذا انفصلت الأرض عن الشمس؟! ولماذا قدّر أن يأتي كوكبٌ أو مذنبٌ ويضرب الأرض ويفصل القمر عنها في تلك اللحظة بالذات؟ ولماذا كانت الشمس على هذا البعد بحيث لو ابتعدت أو اقتربت لما كانت هناك حياة على وجه الأرض؟ ولماذا...؟ يستطيع الإنسان أن يضع أكثر من ألف سؤال حول هذا العنوان، ولن تستطيع الفيزياء أن تجيب عن هذه الأسئلة، من الذي قال للمذنب أو الكوكب اضرب الأرض، ومن الذي قال للشمس كوني على هذا البعد؟! وإضافة إلى هذه الأسئلة المطروحة فإن الإجابة عنها سيولد أسئلة أخرى؟! فعلينا أن نتقبل الكون كما هو؛ لأننا لن نكون قادرين أن نفسر لماذا الكون اتخذ الحالة التي عليها؟.

إن من يتتبع الفلم الكوني يعلم جيدًّا أن الكون وكأنه يشير

إلـى أهمية كوكب الأرض وهذه المسـألة قد أثارت علماء الفيزياء كثيرًا، فجميع الأحداث التي حصلت في الكون منذ نشـأته وحتى تكـوّن الأرض وظهـور الكائنـات البشـرية لا يوجـد له إلا سـبب واحد، وهـو أن معادلات الكون مبرمجة مسـبقًا، وكنتيجة منطقية فإن القوانين تسبق الأحداث، فمنذ لحظة الانفجار اقتضت حكمة الله أن تسـير الأمور بهذه الكيفية لإيجاد الأرض وظهور الكائنات البشـرية، وبالتأكيـد أن اللـه حكيـم وكان يعـرف ما يخلـق قبل أن يخلق، ولا يسـعنا إلا أن نقول: سـبحانك يا رب، لا يسـعنا إلا أن نشكر الله على هذا الاهتمام الذي أعطانا إياه، فالكون بأكمله كان يعمل من أجل هذه الأرض حتى أظهر أنا وأنتم ونعبد الله على هذه الأرض بالطريقة التي اختارها والتي جعل الرسل يوصلوها للبشر ولا يجب علينا أن نعرف لماذا أمرنا الله أن نعبده بهذه الصورة.

تعطينا قصة الحياة على وجه الأرض تأملات كثيرة، فيذهب المتدينـون إلـى أن جميـع مـا حصل في الكـون منذ نشـأته وحتى تكـوّن الأرض وظهـور الكائنـات البشـرية لا يوجـد له إلا سـبب واحد، وهـو أن معادلات الكون مبرمجة مسـبقًا فالقوانين كنتيجة منطقية تسـبق الأحداث، فقد صممت المعايير الضرورية لوجودنا كبشـر على كوكب الأرض بدقة عجيبة، وهي أكثر من أن تحصى، كبعد الشـمس عـن الأرض، وموقع الأرض بالنسـبة لمجرة درب التبانـة، ونسـبة الغـاز في غلافنا الجـوي، وهـذه المعايير صممت

بدقـة لظهور الإنسـان، ولـو لم تكـن هـذه المعايير بهـذه الدقة ما ظهرنـا على كوكب الأرض، فالبشـر يشـكل أهمية كبرى بالنسـبة إلـى جميع مـا حصل في الكـون، فمنذ لحظة الانفجـار كان هناك علاقة بيننا نحن البشر ولحظة الانفجار، ونحن بالتأكيد لا نستطيع أن نتجاهل هذا السـؤال: لماذا بدأ الكون بمعدل دقيق جدًّا يفصله بيـن الانقبـاض والتوسـع، فلو كان توسـع الكون أبطـأ بقليل لعاد إلى الانقباض على نفسـه بسـبب الجاذبية، ولو كان توسـع الكون أسـرع بقليل مما كان عليه لتبعثرت المواد ولـم تتشـكل المجرات ولا النجـوم، وفـي كلتـا الحالتين لن تكـون هناك أرض ولا بشـر يعيشـون فوقهـا، يقول الفيزيائي هوكنج في كتابـه موجز في تاريخ الزمن حـول هذا التوازن الدقيق: «لو كان معدل التوسـع بعد ثانية مـن الانفجـار العظيم أقل مـن المعدل الحرج حتى بجـزء من مئة ألـف مليون مليون، لكان الكون قد عاد إلى التقلص والانخسـاف دون أن يبلـغ حجمـه الحالي أبـدًا»[١]، ولفهم هذا التـوازن الدقيق فـي اختيار الشـروط البدائية للكون، شُـبه هذا التـوازن بوضع قلم الرصاص على رأسـه بحيث يبقى على وضعه لمليارات السنين!! إنهـا دقة عجيبة! وفـي اعتقادي فهناك حقيقة واحدة فقط تسـتطيع ذلك، وهي القدرة الإلهية التي تتجلى في أحداث هذا الكون.

قد نشعر بكثير من السعادة إذا علمنا أن كل هذا الكون وهذا

(١) موجز في تاريخ الزمن/ ١٤٦.

الجمال الذي يحيط بنا وجد من أجلنا نحن البشر، لكن هذه الفكرة لم ترق للكثير، فهذا واينبرغ يتساءل مستنكرًا ما الذي تتوقعه في ظل وجود تلك البلايين والبلايين من الكواكب؟! ويجيب بنفسه بالحتمية التي تمتلكها بعضها في ظهور حياة عليها.

ويذهب هوكنج في أشهر كتاب له موجز في تاريخ الزمن، أن فكرة هذا التصميم العظيم والبناء الكوني الشاسع موجود من أجل الإنسان فقط من الصعب تصديقها، ويعلل ذلك بسبب بسيط جدًّا، أنه لا حاجة إلى تلك المليارات من المجرات لوجودنا نحن البشر.

أما (كارل سيجان–Carl Sagan) الفلكي الأمريكي فيراها فكرة ساذجة جدًّا نخدع بها أنفسنا لنعطيها الاطمئنان فالحقيقة المرة أفضل من الخرافة المطمئنة، ويرى سيجان أنه لا يوجد لدينا دليل واضح على هدف وجودنا، فنحن لسنا بأكثر من وافدين جدد على هذه الأرض وسنرحل عنها.

إن الكون بحد ذاته معجزة وهذا الشيء لا يستطيع أحد أن ينكره، كيف تطور من ظروف فوضوية إلى كون مصمم بهذا الشكل الجميل، ألا يكفي ذلك؟ أعلم جيدًّا أن سيجان وواينبرغ وغيرهما من الفيزيائيين لا يرون فكرة التصميم المسبق للكون، بل يروه نتاج عملية طبيعية، لها القدرة على خلق النظام من الفوضى، كالانتقاء الاصطدامي للعوالم أو الانتقاء الطبيعي للجينات، وهذا

هـو الـذي دفعهـم للقـول: إن التصميم لهـذا الكون فكـرة خادعة تخدعنـا من الوهلة الأولى وأن الكـون لا غاية منه، وأننا ربحنا في يانصيـب كونية، ومسـألة (التصميـم الذكـي-Intelligent design) أحدثـت صراعًا حادًا وكبيرًا بيـن الدينيين واللادينيين وما زال هذا الصراع قائماً.

إن أجمل شيء قدمه لنا العلم أنه جعلنا ننظر للكون بواقعية، ولا شـك أن العلم له إنجازاته أيضًا في الاطراد التكنولوجي الذي حصل خـلال القرن المنصرم وهذا القـرن، ولا زلت أتذكر عندما كنـت صبيًا كيـف كنـت أعاني مع جهـاز التلفـاز لمشـاهدة القناة بوضوح كنت أصعد فوق سـطح البيت وأدور الأنتل وعندما تظهر المحطة يخرج أخي رأسه من النافذة ويصرخ القناة ظهرت، وعند ذلك أتوقف عن الدوران! هذه العملية كانت تحدث على الأغلب في كل يوم في معظم منازل قريتي. بالتأكيد إن هذه العملية المتعبة محيت في هذا اليوم فأنا أشـاهد زملائي في العمل يمسكون جهاز الأيفـون في أيديهـم ويشـاهدون القنـوات الفضائية بكل سـهولة ووضوح!

إن العلم له جماله الخلاب والسـاحر الـذي يدهش العقول ولا يمكن للإنسان إلا أن يطأطئ رأسه لهذا العلم فمن كان يصدق قبل خمسـين سـنة أن جهاز الكمبيوتر الذي يشغل مساحة ضخمة جـدًا سـوف يُضغط في كف اليد، لكن ما يؤسـف لـه أن العلم هو

المسـؤول أيضًا عن التشـوهات الخلقية التي حصلـت في العراق وفـي كثير من بلـدان العالم، ومع الأسـف هذه حقيقة لا نسـتطيع تجاهلها في مساهمة العلم في جرائم فظيعة جدًّا ضد البيئة والبشر، فمسـاهمة المصانع في تلـوث البيئة، ومسـاهمة الأجهزة الحديثة في انتشـار الكثير من الأمراض، ومسـاهمة الأسلحة المتطورة في الفتك بالبشر، وهذا هو الجانب المزعج في العلم.

هنـاك قصـة حـول الرئيـس الأمريكـي (هـاري ترومـان- Harry Truman) أنـه التقـى العالِـم (روبـرت أوبنهايمـر-Robert Oppenheimer) وهو مدير (مشروع مانهاتن- Manhattan Project) لتصنيع السـلاح النووي الذي اسـتخدم في الحرب العالمية الثانية ويعرف بوالد القنبلة النووية، لقد اعترف أوبنهايمر بجريمته وقال: إن أيدي العلماء أصبحت ملطخة بالدماء؛ ذلك أنهم الآن قد عرفوا الخطيئـة. وعلى أثر ذلك أصدر ترومـان تعليماته بأنه لا يرغب أن يلقى أوبنهايمر مرة أخرى.

بهـذه الطريقـة القاسـية، تعامـل الرئيـس الأمريكـي هـاري ترومان مع أوبنهايمر، وأنه من الواضح أن سبب هذه المعاملة هي تلك الدماء التي سالت على أيدي العلماء جرّاء استخدام القنبلتين النوويتيـن في اليابان، ولا غرابة إذا علمت أن أوبنهايمر قال كلمته المشهورة: الآن أصبحت الموت، مدمّر العالم.

الدمار الذي حصل في هيروشـيما ونجازاكي عام ١٩٤٥م،

نتيجة القنبلتين اللتين انفجرتا وحصدت ما حصدت، جعلت (أينشتاين-Einstein) يعيش حالة من الهلع والروع بعدما شاهد ما شاهد، وقال كلمته المشهورة: (أنا لا أعرف السلاح الذي سيستخدمه الإنسان في الحرب العالمية الثالثة، لكني أعرف أنه سيستخدم العصا والحجر في الحرب العالمية الرابعة)، على الرغم أن أينشتاين لم يساهم بنفسه في مشروع مانهاتن، كل الذي فعله أنه أرسل رسالة إلى الرئيس الأمريكي (روزفلت-Roosevelt) في عام ١٩٣٩م، يحثه فيه على تصنيع سلاح نووي، وكمكافأة له عرضت عليه في عام ١٩٤٨م، رئاسة دولة إسرائيل، لكنه رفض هذا العرض، وقال كلمته المشهورة: (تعمل السياسة من أجل اللحظة الراهنة، أما المعادلات فهي للخلود).

ولإيجاز ما سبق أستطيع أن أقول: إن العلم له جماله الساحر الذي عمّق في إحساسنا وجود الخالق، فالتصميم الجميل لهذا الكون هو الذي دفع علماء الفيزياء بالقول بوجود الخالق، فهذا جاليليو وهو أبو الفيزياء الحديثة كان من المتدينين الذين يؤمنون أن هذا الكون مصمم من قبل الله، وهذا نيوتن رأى في انتظام الكون وقوانين الحركة وترتيب النظام السماوي بهذا الشكل الجميل أكبر الشواهد على تصميم مسبق، أما أينشتاين بعد أن درس التناسق الكوني الجميل قال كلمته المشهورة: (إن الله لا يلعب بالنرد)، وفي هذه الكلمة يوحي أينشتاين أن الكون يسير

وفق قوانين محكمة جدًّا.

كما أن الكثير من ألغازه استطعنا أن نحلها فقد علمنا نيوتن حل لغز النظام الشمسي وطريقة عمله، ولغز قوس قزح الذي يعتقد الكتاب المقدس أنه توقيع الله على عهد مع الإنسان! لقد عرفنا جيدًّا حل لغز الخسوف والكسوف...، وبكل تأكيد أن الله خلق الكون وترك لنا نحن البشر التفكر فيه وطريقة عمله وحل ألغازه، ومن الذي يزعم أن الله يمنعنا من التفكير والمعرفة وهو الذي قال: ﴿**إنَّ في خَلقِ السَّمواتِ والأَرضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألبابِ*الَّذين يَذكرونَ الله قِيامًا وقُعُودًا وعلى جُنُوبِهم ويَتَفَكَّرُونَ في خَلقِ السَّمواتِ والأَرضِ ربَّنا ما خَلَقتَ هذا باطلاً سبحانكَ فَقِنَا عذابَ النَّارِ**﴾[1].

إن جميع ذرات الكون تسير وفق قوانين محكمة جدًّا لا تستطيع مخالفتها، فالشمس ليس لها القدرة أن تكسر القانون الذي وضع لها وتسير في مسار غير الذي رسم لها، وكذلك جميع أجرام السماء وكما أشرنا سابقًا أن قوانين الطبيعة ثابتة وهذه الخاصية تعطيها قوة كبرى، إذا استثنينا بالطبع حالات قليلة جدًّا كُسرت فيها هذه القوانين كتوقف الشمس يوم الجمعة قبل المغيب ليوشع بن نون[2] من أجل استثمار الوقت والانتصار في الحرب،

(١) آل عمران: ١٩٠-١٩١.

(٢) النبي يوشع-عليه السلام- هو وصي النبي موسى-عليه السلام- دخل

وكانشـقاق القمر للرسـول ﷺ من أجل إثبات رسالته[1]، ومثل هـذه الحالات القليلة حصلـت بإرادة الله سـبحانه وتعالى، وهذه الحـالات هـي فـوق عقولنا كبشـر، يجـب أن نؤمن بها وحسـب، وحول توقف الشـمس يتساءل الشاعر -أبو تمام- هل هو في عالم الأحلام، أو يوشع بن نون كان في الركب؟!

يوم الجمعة لتحرير بيت المقدس بالجيش فاقتربت الشمس من الغروب، وكان بنو إسرائيل في يوم السبت لا يعملون وبالتالي سيتوقفون عن القتال، فخاطب النبي يوشع -عليه السلام- الشمس بالوقوف، وهو أول إنسان يخاطب الشمس، ولتفصيل أكثر حول مسألة وقوف الشمس أو وقوف الأرض، يستطيع القارئ الرجوع إلى مقال كتبته بعنوان (المعجزة الكونية الكبرى).

(١) تكلمنا حول هذه المعجزة في كتابنا الرسول ﷺ، ولا بأس أن أذكرها هنا، ودائمًا ما رددت مقولة عالم الفيزياء الإيطالي الأمريكي (إنريكو فرمي- Enrico Fermi) الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٣٨م: (على المرء أن لا يقلل أبدًا من المتعة والسرور التي يشعر بها عندما يسمع شيئًا يعرفه سلفًا). معجزة اختص بها الرسول ﷺ، فقد طلب منه المشركون قبل الهجرة أن يشق لهم القمر فشقه إلى نصفين! كتب الحديث استفاضت بذكر هذه الحادثة، فقد جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا الرسول ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر، والروايات في انشقاق القمر مستفيضة، نكتفي برواية الترمذي في سننه: «حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى صَارَ فِرْقَتَيْنِ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ، وَعَلَى هَذَا الْجَبَلِ، فَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَئِنْ كَانَ سَحَرَنَا، مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ» [سنن الترمذي ٢/ ٥٢٣].

فَـرُدَّتْ عَلَيْنَـا الشَّـمْسُ واللَّيْـلُ رَاغِـمٌ
بشَـمْسٍ لَهُـمْ مِـنْ جَانِـبِ الْخِـدْرِ تَطْلُعُ
فَـوَ اللـهِ مَـا أَدْرِي أَأَحْـلامُ نَائـم
أَلَـمَّـتْ بِنَـا أَمْ كَانَ فِـي الرَّكْبِ يُوشَـعُ[1]

كمـا أن العلـم سـاهم مساهمة كبيرة في التخلص من كثير من الأساطير والخرافات والقصـص الشـعبية التـي تُحكى حـول الكون والأرض بشـكل خـاص فلم يعـد لجايا الحزينـة والبقـرة والسـلحفاة ولماء وإكسير الحياة ولقداسة الشمس والنجوم مكانٌ محترمٌ في العلم فالشـمس ليسـت بأكثر من كرة غازيـة تندمج فيها ذرات الهيدروجين متماسكة بفعل الجاذبية وتولد ضغطًا باتجاه الخارج يحميها من الانهيار على نفسـها، ومن غير الممكن أن يكون العلم له القدرة الخارقة على تطهير جميع المعتقدات الخاطئة من عقول البشـر فلا يزال حتى هذه اللحظة فئة من البشـر يقدسـون الشمس



صورة للفنان جوستاف دوريه، النبي يوشع يخاطب الشمس بالوقوف

(١) ديوان أبو تمام/ ١٦٨. وهذان البيتان من قصيدة يمدح فيها (أبا سعيد محمد بن يوسف)، ومطلعها:
أما أنه لو لا الخليطُ المودّعُ وربعٌ خلا منهُ مصيفٌ ومربعُ

ويمتنعون عن أكل لحوم البقر لقداستها، ولا يزال هناك من يعتقد في الكف والفنجان ويطرق باب العرافات للتنبؤ بالمستقبل، كما أن هناك من يرى ارتباط مصير الإنسان بالنجوم والأجرام السماوية ويقضي جل وقته في مثل هذه السخافات المنتشرة في الأسواق الشعبية والمحطات التجارية التي استغلت بساطة هؤلاء الناس في ترويج سخافاتهم حول النجوم والبروج ومنازل القمر، وأظن أن فئة قليلة من الناس تعتقد في الأحجار بأشياء غريبة جدًّا ولو ذهبتم للأسواق الشعبية لرأيتم سخافات هذه الأحجار فهذا الحجر له القدرة على جلب الرزق وآخر يستطيع إيقاف الدم، وقد قلت ذات مرة لأحد البائعين في سوق واقف بأن التجربة خير برهان، فأخرج لي سكينًا فقال لي: اجرح نفسك جرحًا عميقًا وضع الخاتم على الجرح ستلاحظ أن الدم يقف! فما معنى أن تطلب من إنسان أن يدفع بنفسه للضرر؟ بالتأكيد سيصدق كلامك قبل أن يضع السكين على جسده! إن هذا أشبه بالذي أدعى النبوة زمن المأمون فطلبوا منه أحياء الموتى كما كان يفعل عيسى، فقال: أضرب رقبة القاضي يحي بن أكثم، وأحييه لكم بعد ساعة! فقال القاضي: أنا أول المؤمنين بنبوتك![1].

إضافة إلى الاطراد التكنولوجي الذي حصل خلال المئة

(١) راجع هذه النادرة في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، في فصل نوادر المتنبئين.

السـنة المنصرمة. والنقطتان الثانية والثالثة بلا شـك تسـبب بعض الإزعـاج لفئة معينـة من الناس وهـم الذين يحبون أن يعيشـوا في السـراب والأحلام ولا يتقبلون الواقعية، والفئة الأخرى هم الذين يرون أن عالم البساطة أفضل من هذا الاطراد التكنولوجي وهاتان الفئتان لن يستجيب لهما إلا القليل.

علوم مزعومة وزائفة

«التجارة بالأديان هي التجارة الرائجة في المجتمعات التي ينتشر فيها الجهل، إذا أردت أن تتحكم في جاهل فعليك أن تغلف كلّ باطل بغلاف ديني».

محمد بن رشد

جاء في كتاب (معرفة الصحابة) لأبي نعيم الأصبهاني، عن ابن سيرين، قال: بينا سعد يبول قائمًا إذ اتكأ فمات، فبكته الجن، فقالوا:

نَحْنُ قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزْرَجِ سَعْدَ بْنَ عُبَادَهْ
رَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ فَلَمْ نُخْطِئْ فُؤَادَهْ[1]

---

(١) معرفة الصحابة ٨/ ٤٦٣.

هذه القصة استفاضت بها كتبنا العربية ووردت في أمهات الكتب، لكن هل هذا صحيح بالفعل؟ لماذا من الأمور المحرّمة علينا أن نتساءل حول ذلك، هل أن سعد بن عبادة بال واقفًا فقتلته الجن بسبب أو بآخر؟

من الأمور المحبطة في ثقافتنا العربية أنه محرّم علينا أن نشك، علينا أن نتقبل جميع ما ورد في كتبنا العربية، ولا فرق في ذلك بين حقائقها وأساطيرها.

عملية مسح سريعة بالماسح الضوئي في كتاب عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات للإمام زكريا القزويني المتوفى في سنة ٦٨٢هـ، سأكتفي بأعجوبتين.

أعجوبتي الأولى، حول أمم غريبة خلقها الله في أكناف الأرض وجزائر البحار، يقول: (ومنها أمة في بعض الجبال بقرب سدّ الإسكندر، قصار القدود عراض الوجوه سود الجلود فيها نقط بيض وصفر، طول كل واحد خمسة أشبار يتوحشّون من الخلائق ويتسلّقون الأشجار.

ومنها أمة بجزيرة الزنج على صورة الإنسان يتكلمون بكلام لا يفهم ويأكلون ويشربون كالإنسان، ولهم أجنحة يطيرون بها، وهم بيض وسود وخضر.

ومنها أمة بجزيرة الرامني، عراة لا يفهم كلامهم وهو شبيه

بالصغير، طول أحدهم أربعة أشبار ولهم شعور وزغب أحمر.

ومنها أمة في بعض جزائر الزنج، قامتهم قدر ذراع وأكثرهم عور، وعورهم لمحاربة الغرانيق تأتيهم وتحاربهم كل سنة فتقتل منهم ما شاء الله.

ومنها أمة في بعض جزائر البحر، وجوههم كوجوه الكلاب وسائر أبدانهم كبدن الناس يتقوتون بثمار أشجار تلك الجزيرة فإن وجدوا شيئًا من الحيوانات أكلوه.

إن أعجوبتي الثانية حول الجنّ، أن بعض الرعاة نزل بوادٍ بغنمه فسلب ذئبٌ شاة من غنمه فقام ورفع صوته ونادى: يا عامر الوادي، فسمع صوتًا يقول: يا سرحان[1] رد عليه غنمه، فجاء الذئب بالشاة وتركها وذهب.

كتبنا العربية امتلأت بهذه القصص ووجدت لها مكانًا في أدمغة الناس؛ ذلك أنها تخاطب الجانب العاطفي وهو ما يعطيها قوة على مرّ الزمان، تجعل الضعفاء يتمسّكون بالأوهام والأحلام بدلًا من صدمة الواقع، وهذه القصص نفسها تفشّت بين حكايات الناس.

جميل جدًّا أن يجد الإنسان الفقير ذلك الجني الذي يخرج له من الفانوس ليحقق له أمنياته الثلاث، والأجمل من ذلك

(١) من أسماء الذئب.

عندما يعجز الطب في علاج مرض معين، يكون للروحانيين الذين يتعاملون مع الجن نصيب في علاجه، أما الأفضل من كلّ ما ذكرت أن يتعوّد الإنسان على طبيعة الحياة ويتعامل معها ويستجيب لواقعيتها بدلًا من أن يقضي بقية عمره بين المنجمين والدجالين يسرقون أمواله ويعطوه مسكّنات روحية وعاطفية أشبه ما تكون بالبروفين والفلتارين، لكن إذا انتهى مفعول حبّة البروفين أو الفلتارين سيرجع الألم، أليست الواقعية المرة أفضل من الخرافة المطمئنة؟



لوحة للفنان جون ويليام، الساحرة سيرس تقدم عرضًا مضريًا لأوليس

في القصص الإغريقية أن الساحرة سيرس (Circe) عرضت على أوليس (Ulysses) من خلال المرآة، جرعة سحرية تبقيه معها إلى الأبد، إن مثل حالات كهذه نتجت عن خوف الإنسان من الموت وذلك العالم المجهول، وهؤلاء السحرة استغلّوا هذه النقطة لصالحهم، لهذا ترى الحضارات كيف تكتب الطلاسم على التابوت مثلًا وتدفن الأموال في قبرهم، وظواهر كثيرة منتشرة في أصقاع الأرض تتشابه مع ذلك، كلّ ذلك للخوف من الموت ومواجهة العالم الذي بعد الموت.

مـن الطبيعـي أن تكـون عند الإنسـان حالة من الشـك تجاه هـذه القصص ومـا شـابهها، تنتشـر حاليًّا فـي أنحاء العالـم أنواع كثيرة مثيرة للشـك كالعلاج بالطاقة الروحيـة أو العلاج الروحاني والإبـر الصينية والعلاج بالأحجار الكريمة وبالأحراز والطلاسـم والحرق، هذا صحيح، فبين يدي الآن قصصٌ لا حصر لها في هذا الموضـوع قديمًا وحديثًا، قصص عن أنـاس يحولون الحديد إلى ذهب، وآخـرون يتكلمون مع الموتى، والبعض يعرف المسـتقبل وما تفكر به، ولا ننسـى الذين يعالجون الأمراض المستعصية التي عجز عنها الطب.

ومـا زلـت أذكـر عندما كنـت في الصيـن مـع الأخ الصديق الدكتور منصور الجشـي، شـاهدنا تجمع الناس بشـكل كبير على أحد الباعة في السـوق المجاور للفندق الذي نسـكن فيه في مدينة كوانـزو، توقفنـا وكان هدفنا رصد هـذه الظاهرة الغريبة، شـاهدنا أحـد الصينييـن يمـارس الخدع السـحرية، وقد وضـع ورقة كتب عليهـا باللغـة الإنجليزيـة (Magic) وبجانبهـا كلمة باللغـة العربية (سـحر)، فمن ضمن ما كان يمارسـه أنه يدخل السـيجارة في يده وتختفـي هذه السـيجارة، هناك أنواع من الخدع سـهلة الكشـف، ولكـن بعضها أشـدّ تعقيدًا من أن يكتشـفها الإنسـان، ممـا تجعله يعتقـد بصحتها، يعتمد هـؤلاء المخادعون على خدع البصر، لهذا الذين يمارسـون هذه الخدع يتميزون بسرعة فائقة، مما يجعل من اكتشاف الخدعة صعبًا جدًّا.

وفـي هـذه الأيام التي حقـق فيها العلم قفـزات غير متوقعة، يوجـد أنـاس يريـدون أن يرجعـوا بنـا إلـى الـوراء ويسـببون لنـا انتكاسات فكرية، فمن محطات الأبراج إلى الصحف والمجلات أيضًا، وبرغم سـخافاتهم فـإن الكثير يصدقهم، والأغرب من ذلك أن الكثيـر يروِّج لمثل ذلك، فطرح هـذه المواضيع على العامة هو مساعدة على ترويج الجهل ومحاربة للعلم في الوقت نفسه، فرجل يحمل سيارة تزن الأطنان بيده، وآخر له قوة خارقة، وشخص ثالث يطعن بالسـكين فتخرج منه من الجهة الثانية من جسـمه دون أذى، وهناك ما هو أغرب من ذلك، فقد قرأت عن رجل يأكل المسـامير والزجـاج بدل اللحم والدجاج! وعلـى افتراض ضعيف أنه توجد حالـة خارقة لإنسـان، فلماذا يتعيّن علينا الترويـج لحالة واحدة أو بضـع حـالات من ضمن أكثر من سـبعة مليارات إنسـان يعيشـون على الأرض، أليست هذه حماقة بالفعل؟ إنها أشبه بالذي يريد أن يصبح ثريًّا من خلال سوق القمار أو الأسهم أو الحظ الذي تقدّمه بعـض أرقام الهواتف التـي تَعِدُ بالثراء، ذلك أنه اعتمد في طموحه على شخص واحد استطاع بالفعل تحقيق هذه الثروة بواسطة هذه الطـرق، في حين أنه لـم ينظر جيِّدًا لأولئك الملايين الذي خسـروا كلّ شيء، أليس هذا الرجل أحمق؟ فالإنسان العاقل الذي يريد أن يصبح ثريًّا يسـلك الطريق الذي سلكه معظم الأثرياء، وهو الكدح والتعـب، فالسـماء لا تمطـر ذهبًا ولا فضـةً، والمـال لا ينمو على الشجر، أليس هذا صحيحًا؟

كُتبت في هذا الحقل نسبة أكبر من الحقول الأخرى من الكتب، وللأسف الشديد تكاد لا تخلو صحفنا ومجلاتنا وكتبنا ومواقع الإنترنت للترويج لمثل هذه العلوم الزائفة.

والأعجب من ذلك أصبحت تمارس في أوساط مجتمعاتنا دون وجود رادع لهم، أتذكر عندما كنت صغيرًا كنت أذهب إلى سوريا كثيرًا، تنتشر النساء اللواتي يقرأن الكفّ، مقابل مبلغٍ معينٍ من الليرات.

تبدأ قارئة الكف بالخداع، تمسك المخادعة الكفّ وتحدّق فيها وتحركها يمينًا وشمالًا، تفعل ذلك لتوهم الضحية أنها بالفعل قادرة على قراءة الشفرات في الكفّ، ومن خلال كلامها العام الذي ينطبق على أكثر من سبعة مليارات إنسان يتوهّم الضحية بأنها صادقة، كقولها ستتعرض لمشكلة في حياتك، هناك شخص في حياتك يحبّك كثيرًا وآخر يكنّ لك العداوة، تعيش في حالة قلق جرّاء مشكلة معينة...، لماذا أيها القارئ العزيز تؤمن بمثل هذه السخافات وتتعرض للغشّ والخداع من الروحانيين الذين يقرؤون الكفّ والفنجان وأولئك الذين يزعمون علم النجوم ليخبروك بالمستقبل.

بين يدي الآن كتابٌ بعنوان (قراءة الكفّ ومعرفة أسرار اليد)، والمؤلف هو (عبد الرضا الافتخاري)، يسرد تسعة أدلة ويدافع بقوة عن حقيقة علم الكفّ، يقول في بعضها:

ثمة أدلة روائية وعلمية على هذا العلم، ومنها:

١- يروى عن النبي أيوب عليه السلام في كتابه السماوي أن الله قد وضع خطوطًا في أكفّ أيادي الناس لكي يدركوا مصيرهم من خلال معرفة أوضاعهم.

٢- المشاهدات الكثيرة حول وضعية خطوط يد النوابغ ومقارنتها مع يد رجال آخرين، أو بين عدة نوابغ أَجْلَت عن معلومات وحقائق مفيدة جدًّا لعشاق هذا العلم.

٣- من مقارنة خطوط يد مئات المساكين والمعدمين مع رجال أغنياء أو محظوظين لوحظ وجود اختلافات دقيقة في طول خط الحظ.

٤- من طول عمر الشخص والموت الفجائي أو الحوادث الشديدة القريبة من الموت، أدركوا دقائق خط الحياة.

٥- من قياس الاختلافات الروحية للأشخاص، مثل: العزيمة والإرادة والقيادة والخشونة والتدين والتعلق بالأوهام وحبّ العلم والشهوانية، عند مئات الأشخاص، ووضعية خطوط اليد المختلفة أو عقد الأصابع حصلوا على حقائق قيمة ومطمئنة.

٦- أساس هذا العلم مبني على التجربة والمشاهدة، ومن هذا المنطلق يكون أكثر اطمئنانًا واعتمادًا.

٧- والذي يفهم مما جاء في الكتاب المقدس أن النبي سليمان كان من المؤيدين الجدّيين لهذا العلم. وكان

يعتقد أن مقدّرات الأشخاص على أكفهم، وكذلك الفيلسوف المعروف (أرسطو) كان يعتقد هو الآخر أن طول العمر والمصير والعافية وسوء الحظ يمكن أن تقرأ من كفّ اليد.[١]

يعتقد البعض أن هذه الأدلة التي سردها الكاتب كافية لاعتبار قراءة الكف علمًا حقيقيًّا، كذلك التنجيم أولئك الذين يدافعون عنه ينطلقون من علاقات ظنية لا أساس لها ويستشهدون بقصص في التاريخ حول صدق هؤلاء المنجمين.

أما بالنسبة إلى الطلاسم فحدّث ولا حرج، وهؤلاء الذين يتعاملون مع الطلاسم يمارسون أعمالًا بشعة جدًّا لا يمكن تخيّلها ببساطة، وذلك من أجل الوصول إلى غايتهم الوهمية، وللأسف الشديد، فعلى الرغم من التقدم الذي يشهده الوقت الحاضر، إلا أن حرفة الطلاسم منتشرة عند الكثير، والكتب التي تتناول هذه الحرفة منتشرة بشكل كبير جدًّا ويهدر الكثير أموالهم لشرائها، وعلى وجه الخصوص الأحجار الكريمة فعندما تذهب إلى الأسواق الشعبية، نادرًا ما تجد خاتمًا من دون وجود طلسم منقوش عليه، ولو ذهبت -أخي القارئ- إلى سوق واقف بالقطيف ستجد ما هو أغرب من ذلك.

(١) قراءة الكف ومعرفة أسرار اليد/ ٨.

تخيّل -أيها القارئ- أن الطلاسم لها قوة خارقة بالفعل، ولها القدرة على السيطرة على عالمنا الواقع، أليست مغالطة منطقية بحتة أن نعتقد بتلك القوانين الثابتة التي لا يمكن خرقها وفي الوقت نفسه نعلق طلسمًا على يدنا ليغير في تلك القوانين الثابتة.

طلاسم تعقد الألسن، طلاسم تعالج العقم وتحقق الحمل، وأخرى لرفع آلام البطن وآلام الثديين والصداع، يذكر كتاب كنز الحسين وكحل العين مئات الطلاسم حول هذه الأشياء، نكتفي بذكر طلسمين:

الأول: هو طلسم للحب، يقول: «لا بُدّ في العمل بهذا النقش من إعداد مقدار من الطين المعمول من التراب الذي يستخدمه الخزاف، ثم يعمل من ذلك الطين على شكل لوح يرسم عليه صورة ريشة طائر، وكذلك يرسم على اللوح صورة الشخص المطلوب اكتساب محبته، ثم يعدّ نارًا ويضع تحتها اللوح المذكور بحيث تتركز النار على قلب صورة المطلوب، ولا بُدّ له أيضًا أن يحضر إحدى وأربعين فلفلة! يقرأ عليها سورة الناس بكاملها، وإن لم يستطع فليقرأ السورة سبع مرات، يقول عند الانتهاء من كل قراءة: «أحرقت قلب وروح فلان بن فلان فاحرقي قلب فلان وأبكي عينه فلا يقرّ له قرار حتى يأتي ليراني»، ثم يرمي بالفلفل واحدة بعد الأخرى في تلك النار، وإن شاء الله تعالى سيحضر المطلوب اكتساب محبته طائعًا، والنقش الذي يرسم على اللوح الطيني، هو:

١٢١	١١٦	١١٧
١١٤	هنا يكتب اسم الشخص المطلوب اكتساب محبته ولا بُدّ من أن يكون اللوح ضخمًا	١٢٢
١١٩	١٢٠	١١٥

ولـك أن تنظر للسـخافة الثانية حول طلسـم يعقد الألسـنة، يقـول صاحب الكتاب: هذا النقش مجرب، وهـو أكثر تكاملًا من غيره، ويسـتعان به لإسكات المتقولين بالسـوء وعقد ألسنتهم عن الحسـد والهمـز واللمز وقبـح القول، وذلك بأن يكتب الشـخص نسـختين منـه، ويدفن إحداهنّ فـي قبر وعلى الجانـب الأيمن من الميت، ويربط النسخة الثانية على عضده، وستعقد ألسنة الهمازين والغمازين المتقولين بالسوء، والنقش هو:

٢٥	١٨	٢٣
٢٠	٢٢	٢٤
٢١	٢٦	١٩

والإنسان الذي يؤمن بهذه الأشياء يجب عليه أن يقترف جرائم أيضًا كنبش قبر الميت ووضع طلسـمٍ فيه من الجهة اليمنى، ولو بحثا لوجدنـا أن الذيـن يتعاملـون بهـذه السـخافات يتصرفـون تصرفات جنونيـة،كأن يقف علـى رجل واحدة لمدة سـاعات معينة، أو يذهب أيّامًا معينة وينام في الصحراء، أو ينبش قبور الأموات، أريد أن أسـأل

سؤالًا لك -أيها القارئ- وسأترك الجواب لك: الإنسان الذي سوف يذهب إلى هذا المدى من هذه الأمور هل يمتلك عقلًا يفكر فيه؟!

وعندما نتكلم عن البيوت التي تسكنها الجنّ وتحضير الجنّ يدافعون بقوة، وحجتهم أن الجنّ ذكر في القرآن ولهم قدرات خارقة ذكرها الله في القرآن، قال تعالى: ﴿**قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**﴾[1].

نحن كمسلمين لا ننكر وجود كائنات غير مرئية، والجنّ بالتأكيد أحد هذه الكائنات، لكن الشيء الذي لا أرتاح له كثيرًا هو استغلال الدين من أجل مصالح شخصية، ومعظم القصص التي نسمعها عن الجنّ في أيامنا هذه لا صحة لها.

أتذكر ذات مرة زرت الأخ الأستاذ المؤرخ عبد الخالق الجنبي، ودار بيني وبينه هذا الحوار المتعلق بقضايا الجنّ:

- **كانت عقول الناس مثقلة بخرافات كثيرة، فلا توجد عين إلا وتسكنها (راعية)، ولا توجد غابة إلا وبها عفريت، أريد أن أسمع منك تعليقًا حول هذا العنوان؟**

عبد الخالق الجنبي: أنا شخصيًّا لا أعتقد بذلك، ويجب عليَّ

(١) النمل: ٣٩.

أن استخدم عقلي في مثل هذه الأمور، ومن الصعوبة علي كإنسان باحث أن أصدّق مثل ذلك، وبالطبع أنا لا أنكر حقيقة الجنّ، فالجنّ موجود بنص القرآن ولا نستطيع أن نردّ ذلك، أما ما يتداوله الناس قديمًا في قطيفنا مثلًا أن العيون



• بيت مهجور في القطيف يقال إنه مسكون بالجن

تسكنها الجنّ، وأن هذه الجنية تطلب بعض الطلبات كولد أو بنت مثلًا، ويقوم الأهالي بتقديم (العذرة) كالبيض والرز لترضيتها، لتغير رأيها عن أخذها للولد، فهذا غير صحيح.

- **يوجد بيت مهجور كبير جدًّا في منطقة المناخ بالقطيف، يشاع عنه أنه مسكون بالجن، والكثير من البيوت المترامية في أطراف القطيف، ما حقيقة تلك البيوت المسكونة بالجنّ؟**

عبد الخالق الجنبي: الناس يزايدون كثيرًا في مثل هذه القصص، وقد جرت العادة منذ القدم في إسنادهم للأمور الغامضة

بأنها من أعمال الجنّ، والظواهر التي قيلت عن هذا البيت وغيره من البيوت هو مجرد كلام نسمعه من الناس، وأنا لم أجرب ذلك ولم أرَ أيّ شيء من ذلك.

موقفك من جلسات تحضير الجنّ؟

عبد الخالق الجنبي: هذا الشيء أنفيه تمامًا عن هؤلاء الذين يدّعون أنهم يحضرون الجنّ ويخدعون بسطاء الناس والسذج، أما مسألة تسخير الجنّ لبعض أولياء الله فهذه حقيقة لا أنكرها، وقصة نبي الله سليمان عليه السلام تدلّ على ذلك، ومسألة علم الجنّ بالغيب فأرفضها أيضًا، وقصة موت نبي الله سليمان عليه السلام دليل قوي على عدم معرفة الجنّ بالغيب.

وهنا مسألة مهمّة يجب عليَّ أن أوضحها، الكثير من هؤلاء يستخدم الخدع السحرية ويوهم الناس أنها من أعمال الجن، وهي لا تتعدى عن كونها خدعًا أو ظواهر علمية.

تلبس الجنّ بالإنسان؟

عبد الخالق الجنبي: هذه أيضًا لا صحة لها، الكثير من الأمراض النفسية يعتقد فيها الناس أنها من أعمال الجن، ولكن إذا تم فحصها جيّدًا نلاحظ أنها أمراض نفسية تعالج عند الطبيب النفسي، غير أن هذا الأمر إذا وقع لا يتبع فيه الطرق الصحيحة

للعلاج، بل يذهبون لأولئك الذيـن يدّعون أنهم يعالجون بالجن، وبالتالي يتحول الشك إلى حقيقة، فيعتقدون أنهم مسكونون بالجن فعـلًا من خـلال قوة الإيحـاء، وأعيد وأكـرر أن الكثيـر من هؤلاء مصابـون بأمـراض نفسـية، والذين يتعالجـون عندهم يمارسـون معهم الخداع، وسـأكون بالطبع محظوظًا لو تلبست بجسمي جنية ذات حسن وجمال!

قبل سـنتين التقيـت الدكتور محمد المحـروس، أحببت أن أعرف موقفه تجاه قضايا الجن، طرحت عليه هذا السؤال وكان من ضمن حوار أجريته معه، ونشرته في كتابي (في خطى الناجحين).

- **ماذا عـن المعتقدات التي كانت رائجة بكثافة في القدم، والتي كانت تشـير إلى أنه لا توجد عيـن إلّا وبداخلها جنّية نسـميها كمـا أتذكر (الراعية)، ولا يوجد نخيل إلّا ويسـكنه جنّي ونسـميه (أبو دعيدع)، كيف كنت تتعامل مع هذه السخافات؟**

محمـد المحـروس: أنا أؤمـن بحقيقة الآية الكريمـة: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[1]، وأؤمن بخلق الله سـبحانه وتعالـى للجـن ولا أُشـكك في ذلك قيـد أُنملـة، إلا أن المواضيع

(١) الجن:١.

المتعلقة بالجن وطرحها على الملأ والخوض فيها دون دعم علميّ عادة ما يؤدي إلى نتيجة سلبية، فهي تشغل الإنسان فكريًا دون فائدة مرجوة منها، فليس من المناسب أن أحكي لأبنائي الصغار قصصًا عن الجنّ وأزودهم بمواضيع كان أهلنا يحكوها لنا قديمًا بعفوية وبراءة شديدتين؛ لأني أشعر أن وقعها السلبي أكثر من الإيجابي، ومن المحتمل القوي أن تخلق هذه المواضيع حالة من الرعب والخوف عند الطفل مما ينعكس سلبًا على حياته، ويقينًا أقولها: «إن هذه المواضيع مضيعة للوقت بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فيما لو تم تبادلها من باب تبرير عدم فهم الإنسان لبعض الحقائق الكونية». لهذا نرى، أنه من الجهل إسناد الكثير من الناس للعديد من القضايا على أنها من أعمال الجنّ تاركين المنهج العلمي الذي من المفترض أن نعتمد عليه.

ولقد ذهب الكثير من الناس إلى عالم ما وراء الطبيعة لحلّ مشاكلهم دون وجود أدلة عقلانية. إننا نقول بضرس قاطع بأن العلم في العصر الحديث فسّر الكثير من المعتقدات التي كان يعتقدها الناس قديمًا - على أنها من أعمال الجنّ - بأسلوب علمي كصوت المعادن (المواعين) الذي يسمعه الناس وهم نائمون مثلًا، حيث جاء العلم الحديث وفسّر هذه الظواهر على أنها تدخل تحت عنوان اختلاف الشحنات بين المعادن (فلزات وغير فلزات) وتجاذبها نتيجة لاختلاف درجة الحرارة، وهذا

يمثل وبلا شك ضربة كبيرة لهذه الخرافات. وهنا أؤكد مرة أخرى على أن العلم قد ضيق الخناق كثيرًا على مثل هذه التفاسير وتغلّب عليها.

الكثير بالطبع يلصقون بالعلم ما ليس فيه، سواء بقصد أو من دون قصد، وينسبون هذه العلوم الزائفة إلى العلم ويذكرون أدلتهم دفاعًا عنها، ألا يحقّ لنا أن نسأل إذا كانت هذه العلوم حقيقية فلماذا لا تدرّس في الجامعات حالها حال بقية العلوم، إذا كان هناك أطباء يعالجون الأمراض المستعصية بالطاقة الروحية أو برأس الخفاش أو خصية الأسد، لماذا المستشفيات إذًا؟

هناك أناس لا يحبون التقدم العلمي، طبيعتهم هكذا، يرجعون بنا إلى الوراء للعصر البدائي فيتعالجون بالأعشاب ويبنون حياتهم على الأبراج ورقّ الغزال وحجر العقيق والطلاسم، والأعجب من ذلك أنهم يدافعون بقوة عنها ويحاربون من يسعى لانقاذهم من هذا الجهل.

لماذا الذين يزعمون هذه العلوم يصعب عليهم أن يجعلوا العلم مفهومًا حاله كحال بقية العلوم؟ لماذا دائمًا يصورون هذه العلوم بأنها علوم صعبة مستعصية الفهم ولا يفهمها إلا ذو حظ عظيم؟ لماذا يروِّج الناس لمثل هؤلاء؟ يجب علينا أن نجرّم كلّ من يروج لهؤلاء السخفاء كما يجب علينا أن نحارب المحطات الفضائية التي هدفها الرئيس زيادة أرصدتها البنكية من الدولارات.

معظم الحالات التي يدّعى أنها منسوبة إلى الجنّ هي حالات نفسية، والحوارات التي وضعتها في القسم الثاني من هذا الكتاب دليل واقعي على ذلك.

إنني لا أريد أن أطلق أحكامًا جزافية، وفي الوقت نفسه، من الخطأ أن نقف مكتوفي الأيدي، أمام ذلك، نساء يعتدى عليهن بجرائم جنسية بشعة، فقراء تسرق أموالهم، كلّ ذلك يفعل ولا نستطيع تحريك ساكنٍ.

إن العلم وسيلة قوية لمواجهة هؤلاء، ببساطة إن فهمنا للتفسير العلمي يضيِّق الخناق كثيرًا عليهم، صحيح نحن لا نستطيع أن نتتبع كلّ هذه السخافات، الأبراج، التنجيم، قراءة الكفّ، الفنجان، المحطات الفضائية، المجلات،...، أحتاج إلى أن أقضي عمري بأكمله في تقصّيها، وأحتاج إلى أن أقضي عمري كلّه في قراءتها فقط دون أن يبقى لي أيّ عمل آخر! كذلك لا أنصح أحدًا بفعل ذلك، لوجود ما هو أهمّ من ذلك، فقط على الإنسان أن يعلم أن غياب التفسير العلمي على شيء يضعف من واقعيته، صحيح أن العلم أمامه الكثير من التحديات، فما زالت هناك أمراض لم نكتشف لها علاجًا، وما زال هناك الكثير مما لم يستطع أن يفكّ ألغازه العلمُ، لكن العلم في رحلة تطورية ولم يستسلم لذلك، ففي كلّ يوم يجلس العلماء على مكاتبهم وفي مختبراتهم لقهر هذه التحديات.

ومـن آنٍ لآخر، وبين فترات متقاربة جدًّا، تظهر أشـياء كثيرة مثيرة للشـك، تجـد لها قبـولًا بين البسـطاء، وعندما تجـد الكذبة بيئـة مناسـبة فإنها تتحول إلـى حقيقـة، أكاذيب متطـورة مع تطور العصر، تلاعـب في برامج الجرافكس باحترافية، تقليد للأصوات باحترافيـة، إيقاع علمـي لمصادقتها وبعض الشـهادات التي توثق صلاحيتها.

ذهـب الزمـن الغابر وذهبـت معه أسـاليبه الخداعيـة، اليوم يواجه العالم أسـاليب جديدة بعضها تطـور من ذلك الزمن الغابر، والبعض الآخر ابتكر على نحو يتناغم مع تفكيرنا، صيغت أساليب الخداع الحديثة بطريقة أذكى مما نتخيّل.

يتميز الخداع المتطور بأنه في درجة من الصعب أن يكتشف، ويتطلب الأمر ذكاءً متطورًا وتشـكيكًا؛ كي يتم كشـف هذا الخداع التطوري.

دعنـا الآن -أيهـا القـارئ- نقـوم بذكـر بعـض الأمثلة على الخداع التطوري، وكيف نستطيع أن نتعرف عليه بأنه ليس بحقيقية.

قبل بضع سـنوات انتشرت شـائعة أن مكينة سنجر للخياطة تحتـوي على كمية من الزئبق الأحمر، هذه الكمية تباع بمبلغ مالي ضخـم، أصبح الناس يبحثـون عن هذه المكائـن، وأصبحت تباع بعشـرات الآلاف مـن الريالات، يتعامل الإنسـان مع هـذه الحالة

وما شـابهها من حالات مثيرة للشك بهذا السؤال، لماذا الشركات تبيعها بمبلغ زهيد بضع المئات من الريالات وتضع بداخلها معدنًا ثمينًا بعشـرات الآلاف من الريالات؟! لا شـك أن هذا الشيء غير مقبول عقلًا.

علـى القـارئ أن يحذر من الأسـاليب التطوريـة في الخداع وخاصّة في هذه الأيام، ويجب أن يعيش مسـاحة كبيرة من الشـك تجاههـا، فأنت تشـاهد بين الفترة والأخـرى منتوجات تعرض في القنـوات الفضائية وفي الأسـواق التجارية حـول علاج الأمراض كالبروسـتاتا مثلًا بواسـطة الأعشـاب أو الطاقة أو بعض الأدوات التـي يدمجونهـا مع العلم كأن يقولون لك إنهـا تعمل بتقنية النانو، وغالبًـا يظهـر المروّجـون لمثـل ذلـك بلبـاس الأطباء كـي يبرمج المشاهد والقارئ ويجعله يتصور وجود علاقة حقيقية بين اللباس والـدواء، ولا ننسـى أن هناك شـهاداتٍ كثيرةً تلصق حـول المنتج للتوثيـق أيضًا، وتقريرات تصل لصفحات كثيرة، وأكثر الكلام غير علمـي ولا يعالـج المنتج إطلاقًـا، إلا أن القـارئ يتوهّم أن وجود صفحات بهذه الكثرة دليل على صحة المنتج.

تعتمـد العلاجـات الشـعبية على حضـارات قديمـة وحكم قديمـة جدًّا قـد لا تكـون صحيحة، وهنـاك أمثلة مشـهورة، منها: «لو علـم الناس منافـع الجرجير لزرعـوه تحت السـرير»، «تفاحة في الصباح تمنعك من زيارة الطبيب»، «لا تأكل السـمك وتشرب

اللبن معه»، «تغدّى وتمدّى وتعشّى وتمشّى»، «البيت الذي تدخله الشمس لا يدخله حكيم»، «هواء الخريف يسمم، وهواء الربيع يسمن»، «الثوم قاتل السموم».

قمت بسؤال أخصائية التغذية العلاجية هبة آل سهوان، عن بعض هذه الأمثال، فقالت حول المثل التالي: «لا تأكل السمك وتشرب اللبن معه»: مما قرأت عنه أن الجمع بين السمك واللبن يورّث بعض الأمراض والأسقام كبعض الطفح والإحمرار في الجلد، فمن المفضّل كما ذكر بعض أطباء الجلدية الفصل بينهما في حال تناول الوجبة.

وهناك رأي آخر لبعض الأطباء حيث يقولون: لا وجود لسبب علمي بحت يمنع من الجمع بين السمك والحليب حيث إن الضرر الناتج من تناول بعض أنواع الأسماك على الجسم البشري يكون أشد من الجمع بينهما لاحتواء بعض الأسماك على عنصر الزئبق (mercury)، فلا بد من التأكد من كون تركيز هذه المادة قليل.

وفيما يتعلق بالمثل التالي: «تغدّى وتمدّى وتعشّى وتمشّى»، قالت: إن عملية التمدد والاسترخاء بعد الغداء وتناول الطعام لها دور كبير في عملية تجديد خلايا الجسم والحصول على الطاقة الكافية للاستمرار في باقي اليوم.

بالنسبة للقيلولة النهارية فلا أنصح بها بعد الأكل مباشرة وإنما قد تكون بعد الأكل بساعتين أو قبل الأكل بساعة لتفادي حصول تلبكات معدية.

أما بالنسبة لتعشى وتمشى فإن القيام بأي حركة بدنية أو جهد عضلي بعد تناول الطعام فإنه -مباشرة- يحوّل إتجاه تدفق الدم أو الدورة الدموية إلى العضو الذي يبدل الجهد العضلي وهو في الأساس لا بد من تدفقه للمعدة في المقام الأول وبالتالي يؤدي إلى بطئ عملية الهضم مما يؤدي إلى حدوث تلبكات وانتفاخات معدية ومعوية. وهناك مايشير إلى أن عملية الأيض في الجسم تكون بطيئة في الليل وبالتالي سرعة تراكم الدهون تكون عالية جدًّا وهذا يعطينا إشارة ودلالة واضحة على أن المشي في الليل يساعد على إتمام عمليات الحرق للطعام المأكول ومنع تحوله لدهون داخل الجسم وبالتالي زيادة خطر إصابة الإنسان بالسمنة.

الطب يبني علاجاته على أبحاث وتجارب مخبرية وليس على حكم وأمثال قد لا تكون صحيحة، فعندما نرى أفرادًا يتبعون الأمثال في علاجهم للأمراض فهذا التصرف غير سليم إطلاقًا، والتجار يستخدمون هذه الأمثال لترويج منتجاتهم، وهذا لا يعني بالطبع أن الحكم القديمة كلها خاطئة، هذا ليس بصحيح، فهناك الخطأ وهناك الصواب، الأمر المهم أن الإنسان لا يبني قاعدته العلاجية على أمثال وحكم بل على دراسات وأبحاث وتجارب

مخبرية تدلّ على فاعلية الدواء.

الحضارات القديمة مارست أنواعًا كثيرة من العلاجات: الصينية، المصرية، اليونانية، ويوجد في هذا الزمن من يستخدم هذه الأسماء في إثبات صحة العلاجات، كالطب الصيني والطب اليوناني والطب الفارسي، ليكون لها إيقاع قوي في النفس، كالعلاج بالماء والوخز بالإبر الصينية والكثير من هذه الأمور، أنا لا أقول: إن الطب البديل لا فائدة منه، ما أريد أن أقوله: إن الإنسان يجب عليه أن يكون حذرًا في تعامله مع هذه الأمور.

وهناك أناس متحمّسون تراهم يستخدمون الدين في الترويج لبضائعهم، وهذا لا يجوز، لقد بدأ الاهتمام بهذه المنظومة لأهداف لا علاقة لها بالدين ثم أدخلت في الدين وأصبحت جزءًا منه، وكمثال نموذجي على ذلك، في إحدى سنوات الحج التي ذهبت فيها كان هناك شخصٌ يبيع الأحجار الكريمة وما شابهها من أمور، وقد وضع ورقة عبارة عن أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وبعض القصص التي توثّق مصداقية هذه الأشياء، وأمثال هذه التصرفات هي تصرفات غير نزيهة إطلاقًا.

خدعة التزامن يجب على الإنسان أن يكون حذرًا منها، فلا يجوز بناء تصرفاتنا على فكرة تقول: إن تزامن متغيرين دليل على صدق المعادلة، ونتعصّب للدليل بشكل عنيدٍ جدًّا، والتعصّب للدليل سيءٌ جدًّا في جميع الحقول وليس في هذا الحقل وحسب،

علينا اعتماد الأسلوب العلمي في حالات كهذه، فربما تصادفك أيها القارئ في بعض تخيّلاتك أو أحلامك عن أحداث معينة قبل وقوعها كحالة وفاة إنسان مثلًا، وبالفعل يتوفى هذا الإنسان، هذا التزامن يجعلك تعتقد أن الحلم الذي رأيته هو اتصال روحي بينك وبين المتوفى، ففي مثل هذه الحالات من التهور أن نفترض وجود علاقة سببية بين المتغيرين، والسبب ببساطة، كم مرة لم يتحقّق فيها هذا الخيال أو هذا الحلم، فالإنسان في كلّ يوم يحلم بأحلام مختلفة، أناس يتزوجون وآخرون يتوفّون، وبعضهم تعرض لحادث سيارة، لماذا دائمًا نركز على حالة واحدة ونبني عليها اعتقاداتنا، فالعلاقة بين المتغيرين ضعيفة جدًّا وليست بعلاقة قوية، فإذا كنت تعتقد بأن هذه التميمة أو الحجر هي التي قضت حاجتك لأنك دخلت على مدير الشركة في يومٍ ما واستجاب لرغبتك، فكم هي المرات التي لم تعمل فيها هذه التميمة أو هذا الحجر؟

الباحث الفيزيائي الفرنسي الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٩٢م، جورج شارباك (Georges Charpak)، بالمشاركة مع المؤرخ الفرنسي هنري بروخ (Henri Broch)، أثبتا من خلال الحسابات الأنيقة أن هذا الشيء ليس ممكنًا فحسب بل يصل لدرجة الحتمية، كمعدل حسابي فأنت تظهر لشخص واحد كلّ ١٥٠ شخصًا في فترات حياتهم، فإذا فرضنا أن كلّ

شـخص يعرف حوالي ١٠ أشـخاص يموتون كلّ عام، من العائلة والمعارف والأصدقاء، هناك أشـخاص يظهرون فجأة في أفكارك مرة واحدة في السـنة، سـتجد أن ذلك ليس ممكنًا فحسـب بل هو احتمال قوي أن يحصل ذلك.

لقـد اكتسـبت الأحلام وخاصّـة في هذه الأيام شـعبية كبيرة وأصبحت حرفة جيـدة تدّر المال على أصحابها، كُتِبَتْ الكثير من الكتب في هذا الحقل وتسـابق الناس لامتهان هذه الحرفة وقامت المحطـات الفضائية بتخصيص قنوات لتفسـير الأحلام فقط، كلّ هـذا الدجـل يمـارس أمام أعيـن الملاييـن من النـاس دون وجود رادع، فالأحلام ليسـت بأكثر من خيالات تدور في مخيّلة الإنسان فـي النـوم، وقد تكون نتيجة انعـكاس للواقع الذي يعيشـه، وليس لهـا دلالة إطلاقًا على أحداث المسـتقبل، وربما يحدث صدفةً أن تتحقق بعض هذه الأحلام كحالة وفاة مثلًا، وهذا وضع طبيعي كما أشرنا أعلاه، ولا يشير إلى أن الأحلام تُخبر بالمستقبل، أنا أظن أن علم تفسـير الأحلام المنتشـر حاليًّا هو من العلوم الزائفة، وبالطبع أنـا لا أنكـر أن هنـاك رؤية صادقـة اختص بهـا الأنبيـاء والأولياء، كذلك أعطى الله النبي يوسـف عليه السلام القدرة على تفسير الأحلام، هذا صحيح ولا ننكره ولا علاقة له إطلاقًا بما يدور في هذه الأيام حيث مارس الكذابون مهنة تفسير الأحلام لسرقة أموال الناس.

عندمـا نعتقد في علم بأنه حقيقي لسـوء فهـم، كقوة الإيحاء

مثلًا أو التزامن، دون وجود أدلة علمية على صحته، فهذا يعني أننا نرجع بعقارب الساعة إلى الأساطير اليونانية والإسكندنافية وتلك العصور المظلمة في أوروبا.

خدعة التزامن ليس من السهل أن تكتشف، فقد تقع في شراكها دون أن تشعر، ولست مبالغًا في ذلك، وكتفسير لهذه الخطورة أذكر لك هذه القصة -أيها القارئ- عندما كنت في الصين، كنت أمشي في إحدى الليالي مع أخي الدكتور منصور الجشي، شاهدنا أحد الصينيين يبيع مصباحًا صغيرًا وقد وضع على بضعة أمتار قفص وبداخله فأر، إذا وضع المصباح في الكهرباء يقوم الفأر بمحاولة الهروب من القفص، رأيت الكثير من العرب يشترون هذا المنتج بهدف طرد الحشرات والفئران من منازلهم، كان منتجًا رائعًا، قررت أن أجلب منه كمية ضخمة جدًّا، كنت مقتنعًا تمامًا بفاعلية هذا المنتج، التقيت الأخ محمد المفتاح، وهو صديق قديم، مقيم في الصين، عملت معه قبل أكثر من عشر سنوات في سوق الحراج بالقطيف، قال لي: احذر هذا المنتج، فلا علاقة له بطرد الحشرات، اشتريت كمية قليلة لهدف التجربة، وبالفعل كانت النتيجة مخيبة للآمال.

إن الدرس المستقى من هذه القصة هو التعامل بحذر شديد، فلا علاقة للمصباح بما يفعله الفأر داخل القفص، إلا أن توافق هذين المتغيرين يجعلك تعتقد بصحة المعادلة، فالخداع

يتوغّل في كلّ شيء، الأعشاب والأدوية والكبسولات، الاقتصاد، التكنولوجيا، وأكثر من ذلك بكثير، فالخداع ليس مقتصرًا على الطب الشعبي وحسب، بل يتعدى الأمر إلى ما هو أخطر من ذلك.

وفيما يتعلق بالتكنولجيا، فإن هذا الموضوع أكبر من أن يحويه كتاب، أساليب مبتكرة في كل يوم من الصعب اكتشافها، إنه من الضروري أن يعرف القارئ هذه الأشياء؛ لأنه إذا كان يجهلها سيخسر المال الكثير دون ثمرة منها.

نحن نجد حالات عديدة على الخداع؛ لأننا نعيش في عالم تتطور فيه أساليب الخداع أكثر مما نتصور، وهكذا نرى أن الخداع يتوغّل في كلّ شيء، فأنت تشاهد إعلانات البنوك الوهمية، احصل على قرضك بنسبة ٣٪ مثلًا، وتجد بعض الصور من هنا وهناك ملتصقة بالإعلان كصورة الأثاث والبيت والسيارة لتساعد على ترويج هذه الخدعة، هذه العبارة غير صحيحة؛ لأنها غير مكتملة، فالعبارة الصحيحة يجب أن تكون هكذا، احصل على قرضك بنسبة ٣٪ عن كل سنة، الفارق بين العبارتين كبير جدًّا، فإذا حصلت على قرض بمبلغ ثلاث مئة ألف ريال، وكان السداد لمدة خمس سنوات، فهذا يعني أنك ستدفع أرباحًا للبنك مقدارها خمسة وأربعون ألف ريال، وهذه تشكل نسبة ١٥٪، فالقضايا المالية يجب على الإنسان أن يكون حذرًا جدًّا في التعامل معها، وبالخصوص عندما تصل الأرقام إلى خانة آلاف الريالات، هنا

يجب أن تزداد درجة الحذر.

القصص المنتشرة في الإنترنت التي تتحدث عن العلاج بواسطة الطاقة أو التعويذات واستخدام الجنّ والقوة الخارقة، هي حالات غير موثقة وربما نتجت عن قدرة علاج الجسم لنفسه، والبعض يتحسن عن قوة الإيحاء بفعل الأدوية الوهمية فيعمل الدواء طبقًا لسيكولوجية الجسم إذا اعتقد المريض في قدرته على الشفاء.

وبالتأكيد أن مثل هذه الأمور كالطلاسم مثلًا تساعد على تحفيز الحالة النفسية للمريض، وهذا الشيء لا ينكره الطب الحديث، فعندما تعطي المريض ورقة مكتوب فيها أحرف مقطعة مثل: (ع ١ ٢ ٣)، وتقول له: إن هذه تساعده على الشفاء من الصرع مثلًا، معنويات المريض بحمله لهذه تجعلها مرتفعة جدًّا، والحالة النفسية لا شك تساهم بنسبة كبيرة في العلاج.

النقطة الجوهرية التي أريد أن يعرفها القارئ أن الحجاب أو الطلسم الذي يعمله الرجل الروحاني لا علاقة لها بشفاء المريض، بمعنى أن المريض إذا تعالج وشفي من المرض فالطلاسم لا علاقة لها بالأمر، هذا يرجع إلى تحسن حالته النفسية بهذه الخدعة، ومن قديم الزمان كان الناس يلجؤون إلى ذلك ويحصلون على نتيجة جيدة، وفي قصة عمرو بن لحي شاهد على ذلك عندما قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا،

فإحراز النصر على العدو ليس له علاقة تمامًا بالتوسل والتضرع للصنم، ونحن نجد في الحضارات القديمة كيف كانوا يخاطبون الشمس والقمر والبحر والآلهة ويطلبون منها النصر على العدو.

يذكر الدكتور عبد المحسن صالح في كتابه (الإنسان الحائر بين العلم والخرافة) حول (حورس-Horus): هو إله الشمس والمسؤول عن الحفظ والشفاء عند قدماء المصريين، يتضرعون له أهل مصر ويقولون: «السلام عليك يا حورس...يا أيها الموجود في بلد المئات، يا حادّ القرنين، يا بالغ الهدف، إني قصدتك لأمدح جمالك، ألا فلتقض على الشيطان الذي يتملك جسدي»[١].

والطب يخبرنا أن الأندروفينات (Endorphin) يمكن استدرار إفرازها عن طريق الاعتقاد، بمعنى إذا تناول المريض دواءً وهميًّا يحتوي على السكر مثلًا وليس على عقار، فبمجرد اعتقاده أن هذا الدواء سيشفيه، يفرز الجسم الأندروفينات التي تساهم مساهمة كبيرة في تخفيف الألم والأمراض العصبية والنفسية.

تقول جويل فورمان مؤلفة كتاب (كل لتعيش): «عندما يأخذ الناس علاجًا مموّهًا وهم يعتقدون بأنه دواءٌ شافٍ، يحقّق هذا العلاج نجاحًا باهرًا في أغلب الأحيان، وهذه نتيجة لقوّة التفكير الإيجابي، التي يمكن أن تساهم في إفراز الإندورفين الذي

(١) الإنسان الحائر بين العلم والخرافة/ ٧١.

قد يخفّف ألم حتى إذا كان الدواء غير مؤثّر جسديًّا»[١].

وعـودة إلـى أمثلتنـا، قبل عدة سـنوات قـام أحد الرسـامين المصريين برسـم حديقة مكونة من أشـجار، هذه الأشجار كونت عبـارة لا إلـه إلا الله محمد رسـول الله، وكي يكتمـل الفلم كاملًا طبعـت هذه الصورة في مصر وكتب عليها أن هذه الأشـجار نمت فـي ألمانيـا، وأن الحديقة مغلقة من قبل السـلطات الألمانية، وقد أقرّ راسمها بالحقيقة، إلا أن الخرافة تغلبت على الحقيقة في عالم يريد أن يرجع للوراء، فتسـابق الناس لشـرائها ووضعها في بيوتهم للتبرك، وأنا لا أعلم عدد الصور التي بيعت لكنها بالتأكيد سـتكون بالملايين، ويسـتطيع القارئ الرجوع إلى شـبكة الإنترنت للقراءة حول الموضوع أكثر.

فيروس قوي يهدِّد مجتمعنا، دون أن يشعر الأغلبية، ما رأيك -أيهـا القـارئ- أن ننقل نصًّا ضمـن النصوص البوذيـة لمحررها إدوارد كونز:

ردّ السـيد (بوذا) على المبجل سـاريبوترا قائـلًا: في إحدى القـرى أو المـدن أو البنـادر أو النواحي الريفيـة أو المقاطعات أو الممالـك أو العواصـم كان يعيش رجل يملك منزلًا، وكان شـيخًا متقدمًا في السـنّ، مريضًا معتلّ الصحـة، خائر القوى، غير أنه كان

(١) موقع أخبار اليوم السابع، مقالة بعنوان: ما فوائد هرمون الأندروفين؟
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=609353&.

ثريًّـا غنيًّا ميسـور الحـال. وكان منزله منزلًا كبيرًا واسـعًا ومرتفعًا، كمـا كان قديمًا، إذ شـيد مـن وقت طويل، وكان يسـكنه الكثير من الأحيـاء، فلنقـل مئتين أو ثلاثمائـة أو أربعمائة أو خمسـمائة. ولم يكـن لـه سـوى بـاب واحـد، وكان مسـقوفًا بالقشّ، وقـد تهاوت أسـطحه، وتضعضعت أساساته، أما جدرانه والفواصل الحصيرية والمصيـص فقـد أصابها تلف شـديد. وفجأة اندلعت ألسـنة لهب كبيـرة من النـار، وبـدأ المنزل يحترق مـن كل جانـب، وكان لهذا الرجل الكثير من الأبناء اليافعين، خمسـة أو عشرة أو عشرون وقد خرج هو شخصيًّا من المنزل.

وحين رأى ذلك الرجل منزله تحيط به النيران الهائلة من كلّ جانب، صار خائفًا مرتعشًـا، وأصاب عقله الهياج، فقال في نفسـه: حقًّـا، لقـد كنت ماهرًا بما يكفي لأجري عبـر الباب وأفرّ من منزلي المحترق، بسـلامة وسرعة، دون أن تمسني أو تحرقني تلك النيران الهائلـة. ولكن ماذا جرى لأبنائـي، فلذات كبدي الصغار؟ إنهم في ذلـك المنزل المحترق، يلعبون ويتريضون ويسـلّون أنفسـهم بكلّ أنواع الألعاب، دون أن يدروا أن هذا المنزل تشـتعل فيه النار، وهم لا يفهمون ذلك، ولا يدركونه، ولا يعيرونه أيّ اهتمام، ولذا فهم لا يحسـون بأيّ انزعاج، وبرغم كونهم مهدّدين من جرّاء تلك النيران الهائلة، وبرغم كونهم على شفا ذلك الشر الوبيل، فإنهم لا ينتبهون إلى الخطر المحدق بهم، ولا يبذلون أيّ جهد من أجل الفرار.

إن الأطفال يقعون من المرتفعات على رؤوسهم ويتعرضون لأصابات بالغة، يمدون أيديهم إلى القمامة ويستخرجون منها الأوساخ ويضعونها في فمهم، يشاهدون الجمر فيمسكونه بأيديهم ليحرقهم، هل تعلم -أيها القارئ- لماذا ذلك؟ ببساطة لأنهم أطفال لا يفكرون، ولو كانوا كذلك لما رموا بأنفسهم إلى التهلكة، تحاول أن تخرج القمامة من فم الطفل فيدافع بقوة عنها، إنها عقلية طفولية.

العلم هو أغلى ما يملك الإنسان في هذه الحياة، والجهل يجعل الإنسان كالحيوان بل أعظم من ذلك، صحيح نحن لا نملك من العلم إلا القليل، إلا أن هذا القليل هو أغلى ما نملك في هذه الحياة، وما أجمل ما قاله ألبرت أينشتاين: «كل ما لدينا من العلم يعدُّ بدائيًّا وطفوليًّا إذا ما قيس إلى الواقع، لكنه برغم ذلك أثمن ما نملك».

أنا لا أريد بالطبع أن أترك انطباعًا سيئًا لدى القارئ، لكن يجب علينا أن نكون حذرين في التعامل مع مثل ذلك، وخاصة فيما يتداول عبر الإنترنت باسم المعجزة والكرامة والإعجاز العلمي، فمثل هذه الأكاذيب تضر بالإسلام أكثر مما تنفعه.

وللأسف الشديد، هناك قاعدة تقول: «كلما اتسع فلك دوران الكذبة، مال الناس إلى تصديقها»، وهذا الذي يجعل من بعض الخرافات حقائق يصدقها الناس، كالعلاج الروحي

والجراحة الروحية، والعلاج بالطلاسم والأحجار الكريمة والأحجبة وما شابه ذلك، وخرافة سقوط الطائرات في مثلث برمودا، وخرافة عدم تعفّن اللحم في الأهرامات، والحديقة التي نمت في ألمانيا، والأطباق الطائرة، والجني الذي ظهر في جبل قارة بالأحساء، واليد الحمراء التي تظهر في حمامات المدارس بالقطيف، والجني الذي يسمي بأبي دعيدع، وأم حمار، والأحجار التي توقف نزيف الدم، والبيوت التي تسكنها الجنّ.

وحول اتساع فلك دوران الكذبة تذكر كتب التاريخ في عصر الدولة العباسية أن أحد الطرق الموصلة إلى بغداد، أن جنيًّا يظهر في تلك المنطقة، فتخوف الناس من المرور ليلًا، قام أحد الشجعان بالمرور في تلك المنطقة، واكتشف أن الجني لم يكن سوى جارية فرت من ظلم أصحابها، فعملت هذه الحيلة للاسترزاق بمتاع المسافرين.

أيضًا، يذكر خير الدين الأسدي في كتابه موسوعة حلب المقارنة، قصة عن أحد القصور المسكونة بالجن حوش الصابوني، تحت عنوان من حوادث الماضي، وبالتحديد في حارة باب قنسرين، هذه الدار لا يستأجرها أحد لأنه شاع أنها مسكونة بالجن.

فقير اسمه (حمدْو) أراد السكن فيها للزواج، والنتيجة لم تكن مسكونة بالجن، بل كان هناك ثلاثة أشخاص يمارسون الترهيب للساكنين، أمسك أحدهم وأعترف له أن أحد الأغنياء

يريد شراء الحوش فعمد إلى هذه الحيلة، والقصص في هذا العنوان كثيرة جدًّا.

ومما يحزن له كثيرًا، أن هذه الأكاذيب صدقها البعض ووظفت دينيًا، وهذا هو الواقع المأساوي الذي نشعر تجاهه بالحزن، وكتفسير لذلك قضية مثلث برمودا فسرت كجزيرة للمهدي المنتظر وفي الاتجاه المقابل فسرت كجزيرة للشيطان.

وفي أيامنا هذه يتناقل الناس يوميًّا مثل هذه الأمور، على الإيميلات ومقاطع اليوتيوب والواتساب، كالأحجار والأسماك المكتوب عليها، وتصل إلى بريدي الكثير من هذه المقاطع وعندما تفحصها تجدها أكاذيب ملفقة ومحبوكة جيدًّا.

أنا أعلم جيِّدًا ربما يكون نية بعض المروجين لذلك هو بيان عظمة الإسلام، على الرغم أن أكثر هذه الأمور صممت من أناس لا ينتمون إلى الإسلام للسخرية من الإسلام بطريقة أنيقة جدًّا، ويجب عليَّ أن أقول: إن جمال الدين الإسلامي ليس بحاجة إلى أشجار تنمو في ألمانيا أو أحجار رسمت عليها بعض الصور وبقايا ألواح لسفينة نوح.

أنا أعترف أن هذه الأمور تجلب الراحة والطمأنينة للكثير، إلا أن النزاهة مطلوبة في مثل هذه الأمور، والذي يحاول أن يزرع الإيمان بالكذب هو بلا شك رجل فاشل جدًّا، الإنسان الحكيم هو

الذي يزرع الإيمان بجمال الإيمان نفسه، جمال الوفاء بالوعود، جمال الأمانة، جمال التسامح.

تحكي كتب التاريخ أن الرسول ﷺ عندما فتح مكة!! دخل بعشرة آلاف مقاتل، دخل الرسول ﷺ مكة وخاطب خصومه: يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟! لحظات عصيبة جدًّا على قريش..قالوا له: أخ كريم! وابن أخ كريم! قال لهم الرسول ﷺ: اذهبوا فأنتم الطلقاء! إنني حقًّا مدهش من هذا الموقف، لو كان هذا الشخص المنتصر غير الرسول ﷺ فإنني أقولها بثقة تامَّة: سيحرقهم وهم أحياء، ولنا في التاريخ عبرة، ماذا فعل العباسيون ببني أمية؟ لدرجة أن السفاح أخرج جسد هشام بن عبد الملك من قبره وأحرقه!

ويتجلى جمال التسامح حول حفيد الرسول ﷺ الإمام الحسن بن علي عليه السلام، يذكر بن شهر آشوب في كتابه مناقب آل أبي طالب: «أن شاميًا رآه راكبا فجعل يلعنه والحسن لا يردّ، فلما فرغ أقبل الحسن عليه، فسلم عليه، وضحك، وقال: أيها الشيخ، أظنك غريبًا، ولعلك شبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت جائعًا أشبعناك، وإن كنت عريانًا كسوناك، وإن كنت محتاجًا أغنيناك، وإن كنت طريدًا آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود

عليك؛ لأن لنا موضعًا رحبًا وجاهًا عريضًا ومالًا كبيرًا. فلما سمع الرجل كلامه، بكى، ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه؛ الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليَّ، والآن أنت أحبّ خلق الله إليَّ، وحوّل رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقدًا لمحبتهم»[١]. يقول الروائي البريطاني (دوغلاس آدمز-Douglas Adams) (١٩٥٢م-٢٠٠١م): «ألا يكفي النظر لروعة الحديقة وجمالها، لماذا يجب علينا الاعتقاد بأن هناك جنيات خلفها أيضًا».

ربما يتساءل القارئ حول مسألة الإعجاز العلمي، إن مسألة الإعجاز تبين عظمة القرآن، فعندما يتفق أحد الاكتشافات الحديثة مع حقيقة نطق بها القرآن قبل أكثر من ألف وأربع مئة سنة، فهذا ينمّ عن عظمة القرآن، فيُحكى عن طبيب كندي متخصّص في علم الأجنّة أنه أعلن إسلامه بعد قراءته للآية ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ**﴾[٢]، والظلمات الثلاث هي: ظلمة جدار البطن، ظلمة جدار الرحم، ظلمة المشيمة بأغشيتها. الإعجاز العلمي في هذه الآية أن الطب كان في طفولته ولم يعرف الناس شيئًا عن التشريح وكانت الأدوات بدائية جدًّا، أليست هذه المعلومات التي لم تكتشف إلا حديثًا بدليل قويٍّ

(١) مناقب آل أبي طالب ٤/ ٢٠.
(٢) الزمر:٦.

على ارتباط الرسول ﷺ بالله؟

ومهما كان أمر ذلك، فهناك بالطبع الكثير من الآيات التي تحتوي على إعجاز علمي دون أدنى شك، وقد تطرقت لبعض هذه الآيات في كتبي السابقة.

إلا أن الإفراط في مسألة الإعجاز العلمي تكون له نتائج سلبية، وفي أيامنا هذه نرى هذا الشيء بوضوح، كاستخراج سرعة الضوء والوزن الذري للحديد من القرآن، إن مثل هذه الأمور لا أرتاح لها كثيرًا، هذا ومن جهة أخرى، فإن هذه الاستنتاجات غامضة وليست واضحة وعلاقاتها غير متماسكة البنيان، وهذا ما يضعّفها، إلا أن الإنسان عندما يريد أن يصل إلى شيء معين يضعه في ذهنه سوف يصل إليه ولو بطرق ملتوية.

وعلى هذا، فإن الشيء المهمّ في هذا العنوان أن يعرف القارئ أن القرآن ليس كتابًا فيزيائيًّا أو كيميائيًّا يهتمّ بقوانين نيوتن للحركة أو بشؤون المذنبات وكيفية تفاعل الصوديوم مع الكلور، وبهذا المعنى الذي أهدف إليه سألت العلّامة الشيخ فوزي آل سيف، حول موقفه من مسألة الإعجاز العلمي، أجابني بأن القرآن الكريم هو كتاب هداية، قبل أن يكون كتاب فيزياء أو كيمياء أو فلك! ولهذا لا ينبغي أن ينتظر منه -في الأساس- أن يقوم بكشف القوانين العلمية، أو النظريات الطبيعية.

ونصيحتي هنا قبل أن أنتقل للموضوع الذي أريد أن أناقشه، أن نتعامل مع هذه الأمور بحذر شديد ويجب أن نشكك فيها حتى يتبيّن لنا صحتها، فيجب علينا أن نزرع الشك ولو بمقدار بسيط، هذا أفضل من أن نكون سذّجًا ونصدّق كلّ شيء، هذه أنسب الطرق للتعامل مع ذلك، وأعتقد أن هذه الطريقة هي التي يميل إليها كل إنسان يريد أن يثقّف نفسه ويتعامل مع مثل هذه الأمور بطريقة صحيحة، فيجب علينا أن لا نبخس هذا العقل الذي وهبنا الله إياه.

كثيرًا ما يسألني البعض عمّا إذا كنت أعتقد في البيوت المسكونة بالجنّ أو تحضير الجنّ والطلاسم والقوة الخارقة للأحجار الكريمة والعلاج الروحي وتأثير الأبراج على حياة الإنسان وقراءة الكفّ والفنجان والتنجيم لمعرفة المستقبل وما شابهها من أمور، في الحقيقة، إنني لا أعتقد بكلّ هذه الأشياء، فليس من الصواب أن أعتقد بشيء لم تتوفر لديّ الأدلة على صحته.

هذا صحيح، غياب الدليل على شيء ليس بدليل على عدم وجوده، ربما تكون حجّة في محلها لكنها غير مقنعة إطلاقًا، لماذا يتعيّن علينا الظنّ باحتمال وجود ذلك، وأن الذين يولدون في برج القوس يتميزون بصفات معينة، والذين يتزوّجون في ليلة معينة لا يهنؤون بزواجهم، لماذا لا نقصر اعتقادنا على العلوم والعلاقات

التي يوجد لدينا أدلة أكيدة على وجودها؟

كم كان من الصعب أن نكتشف خارطة علم الوراثة، وأصبحنا اليوم قادرين على تجنب أن نلد أطفالًا مصابين ومعاقين بسبب ما أحرزه علم الوراثة من قفزات مهولة، وبعد كل ذلك، نلجأ لأشياء لا توجد لدينا أدلة مقنعة على صحتها، نفتش في الأسواق عن خصية الأسد ورأس الخفاش للتداوي.

الدميري لم يترك مرضًا إلا ووجد له علاجًا في كتابه (الحيوان)، يقول حول الأسد: «وإذا أحرق من شعره في مكان، هربت منه سائر السباع، ولحمه ينفع من الفالج، وإذا وضعت قطعة من جلده، في صندوق مع ثياب، لم يصبها السوس ولا الأرضة، وسنه إذا استصحبها إنسان معه، أمن من وجع الإسنان، وشحمه إذا طلي به اليدان والرجلان، أمنت من مضرة البرد، وإذا طلي به البدن لم يقربه القمل، وذنبه إذا استصحبه إنسان لا تؤثر فيه حيلة محتال، وقال هرمس: الجلوس على جلد الأسد يذهب البواسير والنقرس. قال: ومن أخذ من شحم جبهته وذوبه بدهن ورد، ومسح به وجهه، هابه الملوك وجميع الناس. وقال الطبري: الاكتحال بمرارة الأسد يحد البصر. قال: ومرارة الأسد إذا سقي منها وزن دانق لليرقان، بماء برز قطونًا، ونعنع نفع نفعًا بينًا وخصيته إذا ملحت ببورق أحمر ومصطكي، وجففت وسحقت، وخلطت بسويق وشربت، نفعت من جميع الأوجاع التي في الجوف مثل

المغص والقولنج والبواسير والزحير ووجع الأرحام، وتشرب بماء حار على الريق»[١].

المزاعم التي يدّعيها الناس حول هذه العلوم ليست بالضرورة أن تكون صحيحة، حتى إن الإنسان نفسه قد يتوهّم أنه يمارس تحضير الجنّ ويتنبأ بالمستقبل عن طريق النجوم ويعتقد في قدرة الأحجار الخارقة ويصل لمرحلة أنه يخدع نفسه بنفسه، بعد ذلك يصبح هذا الخداع حقيقة بالنسبة له، فلا يستطيع أن يتحرّر منه.

تحقّقتُ بنفسي ذات مرة خلال تصفحي لأحد المواقع التجارية في الإنترنت، وجدت أحدهم قد عرض خاتمًا كُتِبَ تحته: هذا الخاتم يوقف نزيف الدم، أمسكت هاتفي واتصلت بالرقم ولحسن الحظ كان من أهل القطيف ومن الذين يسكنون الناصرة، اتفقت معه على شرائه مقابل عشرة آلاف ريال، ذهبت مع أخي الأستاذ مظاهر الخميس وكنت صريحًا معه في رغبتي بفحص الخاتم من خلال التجربة، فالتجربة هي التي تبين صدق كلامه، وهذا أساس تعلمته في مثل حالات كهذه فيجب أن أزرع الشك في نفسي تجاهها، ليس بمقدار صغير مثل واحد ميكروجرام بل بنسبة كبيرة جدًّا، وإذا كان من الصعب جرح نفسي لفحص كلامه، فمن السهل شراء أحد الطيور من محل بيع الطيور بجانب سوق الخميس، والواقعية بالتأكيد يجب أن نستسلم لها؛

(١) حياة الحيوان/ ١٥.

لأنها تقدم لنا أدلة قوية على ذلك، ويجب أن نعوّد أنفسنا على مثل هذا النوع من التفكير، كي لا نخدع بسهولة من قبل الشخصية التي أمامنا، ومهما كانت هذه الشخصية فهي لا تعكس مصداقية لما يدّعيه بأكثر مما تعكسه التجربة، فالشك ليس سيئًا دائمًا بل هو مطلوب في مثل هذه الحالات.

فالهراء والخداع والتدليس والدجل وما شابهها من سخافات يجب أن نقاومها بالشك، وبالخصوص في مجتمع انتشرت فيه مثل هذه الأكاذيب التي صدّقها الناس واعتقدوا بها، والأغرب من ذلك بعد أن ذبحنا الطير وشاهد بعينه أن خاتمه لم يوقف نزيف الدم أخذ يدافع بقوة عن خاتمه، كلّ هذا يريد أن يثبت أن خاتمه بالفعل يوقف نزيف الدم، إنها ماسأة كبيرة عندما نصل إلى مرحلة ندافع فيها بقوة عن أشياء غير صحيحة؛ لأن رغبتنا تريدها أن تكون صحيحة.

يقول العالم الفيزيائي كارل سيجان في كتابه (عالم تسكنه الشياطين): «من أكثر دروس التاريخ مدعاةً للحزن الدرس التالي: لو أننا تعرضنا للخداع لفترة كافية فإننا نميل إلى رفض قبول أيّ دليل على الخداع. ولا نصبح مهتمين مرة أخرى بكشف الحقيقة، ذلك أن الخداع قد استحوذ علينا. ومن العسير علينا تمامًا أن نقر- حتى لأنفسنا-بأننا قد خدعنا. فما إن يتمكن المشعوذ منك حتى يتعذّر عليك أن تسترد نفسك. كما أن المدلسين القدامى يميلون

إلـى مواصلـة البقاء فـي الوقت نفسـه الذي ينهض فيه المدلسـون الجدد. لا تقع جلسـات تحضيـر الأرواح إلا في الغرف المظلمة، حيث ترى الأشـباح الزائرة بشكل غير واضح، على أحسن تقدير. وإذا أضأنا الأنوار قليلًا فسيتوفر لنا بذلك فرصة كي نرى ما يحدث، وتتلاشى الأرواح، ويقال لنا إنها خجولة وبعضنا يصدق ذلك»[1].

وبالمثـل، فقد كنت مع الأخ الصديق الأسـتاذ السـيد ماجد العابد، نجوب أزقة العراق قبل عدة سـنوات، فدخلنا محلًا قديمًا يبيع الأحجار والأشياء القديمة، كانت هناك مزاعم كثيرة ومضحكة جـدًّا يقولها لنا صاحب المحل في الأحجار، فمن ضمن الأحجار التـي عرضها للبيع علينا، حجر ينفع للجنس يسـمى الهبهاب وقد شـكّل على شـكل قضيب، وفصيلة الهباب يبدو أن لهـا حظًّا قويًّا فنوع منها يربط المرأة وشكل على هيئة قضيب وفرج، وآخر يعطي الهيبة على شكل رأس ذئب، إضافة إلى حجر صغير جعلنا نشاهده وقـال لنا كذبًـا: إنه للرصاص، فمن يلبسـه لا يصـاب بالرصاص، وادّعـى أنـه جربه على دجاجـة، وكي يتم إخراج الفلم السـينمائي بشكل ذكي لا بُدّ من كتابة أحرفٍ مقطعة على مثل هذه الأحجار.

هـل تصـدق -أيها القـارئ- أن إنسـانًا يملك حجـرًا ذا قوة خارقـة كجلب المال أو وقف نزيف الـدم أو إعطائه قوة يحرك بها الأشـياء أو ما شـابه ذلك، ويعرضه للبيع؟ هنا يجب على الإنسان

(١) عالم تسكنه الشياطين/ ٢٨٢.

أن يضـع هـذه القاعدة أمـام عينه كـي لا يخدع بالمظاهـر، فبعض الذين يروجون لهذه الأشـياء هم أساسًـا لا يعتقـدون بصحتها إلا أن تجارتهم تتطلب الخداع لكسـب المـال، وبذلك يكون الهدف الرئيس لهم تجاريًّا.

فيجـب علينا أن نعلم أن الأحجار الكريمة ليسـت بأكثر من خليط بين عنصرين أو أكثر، تسـتخرج من باطن الأرض أو الجبال أو البحـار، لهـا خصائص كيميائيـة وفيزيائية تختلف على حسـب نـوع الحجر، فخصائـص الياقـوت الكيميائيـة والفيزيائية تختلف بالطبع عن الألماس والزمرد، وعلى أسـاس خصائصها الكيميائية والفيزيائية ربما نسـتطيع أن نستخدمها في العلاج بطرق معينة، أما تلـك النظرة التي ينظر بها للأحجـار أنها ذات قوة خارقة، فهذا من الصعـب جـدًّا تصديقه، وبلغـة دقيقة وأكثر وضوحًا، فهذا الشـيء على الأغلب لا وجود له!

النـاس أيضًـا، الخـداع يسـيطر عليهـم، وذلك هـو بالضبط الجانـب المزعـج، لكـن المزعـج أكثـر من ذلـك كله بكثيـر أنهم يرفضـون أيّ دليل علـى الخداع ويدافعون عن الخـداع كما لو أنه حقيقـة بالفعـل، والسـبب ببسـاطة أن الخداع سـيطر عليهم، وفي القصـة التـي ذكرناها في بدايـة الكتاب دليل قوي علـى ذلك، كلّ شيء ممكن هذه قاعدة هؤلاء البسطاء، وإذا اعتقدنا بالإمكانية فما المانع من حدوث ذلك؟!

ليس من الصعوبة أن يكتشف الإنسان أن هذه العلوم زائفة، فقط عليه أن يقوم بفحصها جيِّدًا من خلال استقرائه للوضع الراهن ووضع عدد قليل من الأسئلة التشكيكية حولها، مثلًا، من الأشياء المتداولة في الأسواق الشعبية هو خاتم يجلب الرزق، إذا ذهبت لمتجر وقال لك البائع: إن هذا الخاتم يجلب الرزق، عليك أن تسأل نفسك، لماذا لا يستخدمه هو؟ لماذا يجلب الرزق وهو يعيش في حالة مأساوية، متجر قديم وشقة مستأجرة وسيارة قديمة، أليس الأولى أن يستخدمه لنفسه؟

لنعطِ الآن مثالًا آخر، عندما تذهب لسوق الحراج مثلًا وتواجهك ساعة رولكس، وهي من أرقى الساعات الموجودة حاليًّا، حيث يصل سعرها إلى عشرات الآلاف من الريالات، وتشاهدها في السوق ويقول لك صاحبها: إن هذه الساعة أصلية وسعرها ألف ريال، بناءً على مبدأ الشك، عليك أن تسأل: لماذا هي رخيصة لهذه الدرجة في حين أن سعرها خمسون ألف ريال، بالتأكيد إنها مقلدة وليست أصلية، بهذه الطريقة يجب أن تتعامل مع حالات كهذه.

إني لأعجب كيف يطلب الناس من إنسان أن يرزقهم الذرية أو المال وهو نفسه لا يملك الذرية والمال، أليست مغالطة منطقية بحتة؟! لست أدري! هل أمثال هؤلاء يفكرون ولو بمقدار واحد ميكروجرام؟! إن الذي يزعم أنه يقرأ المستقبل، لماذا لا يصبح ثريًّا عن طريق سوق الذهب أو الأسهم؟!

من يفحص كلام هؤلاء الذين يدّعون علم الغيب عن طريق النجوم أو الفنجان أو غير ذلك، يلاحظ أن هناك تناقضات كثيرة.

المشعوذون أو الروحانيون أو مهما كانوا يسمون أنفسهم، الذين يظهرون على المحطات الفضائية، يتكلمون بكلام ضعيف جدًّا وغير متماسك البنيان يستخدمون طرقًا خبيثة لإيهام المتصل أنهم يعرفون تفاصيل حياته من خلال بعض الأسئلة وقراءة الوضع الاجتماعي الراهن، وبهذا ما يقومون به هو ما تزودهم أنت به من بيانات، هذه البيانات يحيكوها جيِّدًا ويقدموها لك في لباس جديد ليلبسوك إياه، هذه الخدعة تكون مقنعة جدًّا وخاصة بالنسبة للمحبطين.

إني أتذكر في أيام الطفولة أن شخصًا يستطيع معرفة عدد أفراد الأسرة وشهر الميلاد والعمر وكان بإمكانه أيضًا أن يعرف الأرقام التي تضمرها في قلبك، من خلال بعض الأسئلة الرياضية، كان ساحرًا بالنسبة لنا، لكن الحقيقة لم يكن كذلك، كلّ الذي يفعله أنه يعتمد على البيانات التي تزودها بها أنت من خلال مجموعة من الأسئلة ويستنتج من خلالها ما تضمره في قلبك، وكمثال على ذلك، يقول لك اختر عددًا من رقمين مختلفين، ولنفترض أنك اخترت العدد (١٥)، ثم يطلب منك أن تضاعف الرقم، سيكون الناتج (٣٠)، بعد ذلك يطلب منك أن تضيف العدد (٤) إلى الناتج وتضربه في (٥) سيكون (١٧٠)، تضيف العدد (١٢) إلى الناتج سيكون (١٨٢)، والخطوة التي بعدها يطلب منك أن تضرب الناتج في (١٠) سيصبح (١٨٢٠)،

ثم تطرح العدد (٣٢٠) من الناتج وهو (١٥٠٠)، سيكون الرقم الذي اخترته هو الناتج النهائي من دون الأصفار وهو العدد (١٥).

وعلى الرغم من خبثهم عندما تنظرهم عن كثب تلاحظ تناقضات وأخطاء فظيعة جدًّا يقعون فيها، وللأسف، فنادرًا ما يكون لدى المشاهد مقدار متواضع من الذكاء لكشف زيف كلامهم ولو كان بمقدار واحد ميكروجرام، فالناس يسهل تضليلهم ويميلون إلى الوهم أكثر من الواقعية، ذلك أن الوهم يجد فيه الإنسان راحة أكثر، يقول عالم الفيزياء الفرنسي هنري بوانكاريه (Henri Poincaré): «نحن أيضًا نعلم مدى ما في الحقيقة غالبًا من قسوة، ونعجب مما إذا لم يكن الوهم أكثر راحة وعزاء».

عندما تشاهد هذه المحطات فأنت قد أهدرت جزءًا كبيرًا من وقتك من دون فائدة، ولا تخرج بفائدة علمية إطلاقًا، وهؤلاء الذين تسمع عنهم فرغم ألمعيتهم فهم يتوهمون أنهم يخبرون بالمستقبل، إن التضخيم الإعلامي هو من جعل لهم مكانة كبيرة لدرجة صدقهم فيها الناس.

فلماذا يستمرّ الناس بإهدار أموالهم على أكاذيب وخدع، غير مثمرة إطلاقًا، إنها جريمة كبرى يرتكبها الإنسان في حقّ نفسه، من يسمح للآخرين أن يسرقوه فقد ارتكب بحقّ نفسه جريمة كبرى.

هذه العلوم غير معقولة ولا تتوافق مع العلم، فكيف يكون

دوران المشتري أو زحل له تأثير على علاقتي بيوم سفري أو يوم زواجي؟! وكيف لهما أن يعلما أنني سأربح أو أخسر في تجارتي؟ أسئلة كثيرة لا تتوافق مع العقل البشري.

يقول هوكنج في كتابه الكون في قشرة جوز: «ظلّ الجنس البشري يريد دائمًا أن يتحكم في المستقبل، أو على الأقل أن يتنبأ بما سيحدث. وهذا هو السبب في انتشار التنجيم انتشارًا شعبيًّا بالغًا. يدّعي التنجيم أن الأحداث على الأرض لها ارتباطات بحركات الكواكب عبر السماء. وهذا فرض يمكن اختباره علميًّا، أو هو سيكون كذلك لو أن المنجمين اشرأبوا بأعناقهم مادّين إياها للخارج لصنع تنبؤات محددة يمكن اختبارها. إلا أنهم بكلّ حكمة يجعلون تنبؤاتهم بالغة الغموض بحيث يمكن تطبيقها على أيّ نتيجة تظهر. فلهم مقولات مثل «العلاقات الشخصية قد تزداد قوة»، أو «ستنال فرصة مجزية ماليًّا»، وهي مقولات لا يمكن أبدًا إثبات خطئها.

على أن السبب الحقيقي في أن معظم العلماء لا يؤمنون بالتنجيم ليس هو وجود البراهين العلمية أو نقصها، وإنما لأن التنجيم لا يتّسق مع نظريات أخرى قد اختبرت بالتجارب. عندما اكتشف كوبرنيوكس وجاليلو أن الكواكب تدور حول الشمس وليس الأرض، واكتشف نيوتن القوانين التي تحكم حركتها، أصبح التنجيم بعيدًا تمامًا على أن يصدقه أي أحد»[1].

(١) الكون في قشرة جوز/ ٩٨.

إن أولئك الذين يسعون للوصول إلى أهدافهم بواسطة هذه الطرق هم أضعف الناس، وهؤلاء لا يقومون بدورهم في هذه الحياة كناجحين وعقلاء لكنهم يقومون بدورهم كفاشلين وأغبياء.

وماذا عن الدّعاء؟ الدّعاء ليس معناه أن نقف مكتوفي الأيدي، هذه نظرة خاطئة وغير صحيحة، الدّعاء وحده لا يشفي المريض ولا يرزقك الولد ولا يجلب لك المال، الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نأخذ بالأسباب، علينا أن نذهب إلى الطبيب وندعو الله بالشفاء.

قصة جميلة جدًّا يذكرها كتاب (أخلاقيات الإيمان–The Ethics of Belief)، للفيلسوف الإنجليزي (ويليم كلفورد–William Clifford) المتوفى في عام ١٨٧٩م.

كان أحد مُلاك السفن على وشك أن يُرسل إلى البحر بسفينة مهاجرين، وكان يعلم أنها قديمة، وغير متينة البناء أصلًا، وأنها طافت بالكثير من البحار وتعرضت للكثير من أنواع المناخ، وكثيرًا ما تحتاج إلى أعمال الإصلاح. وأوحى له البعض بشكوكهم في مقدرتها على الإبحار. فأخذت هذه الشكوك تعتصر قلبه وجعلته تعيسًا، وفكر أنه ربما كان عليه أن يأمر بفحصها فحصًا دقيقًا وإعادة إصلاحها، حتى لو كلفه ذلك الكثير، إلا أنه نجح في التغلب على تلك الأفكار الحزينة، إذ قال في نفسه إنها قد مرت بالعديد من الرحلات، وتحملت الكثير من العواصف، وإنه من قبيل التنطع أن يفترض أنها

لن تعود إلى الوطن بسلام، من هذه الرحلة، ولسوف يضع ثقته في عناية الله، وهو الذي يعنى بحماية جميع هذه العائلات التعيسة التي تغادر أوطانها بحثًا عن ظروف أفضل في مكان آخر، ولسوف ينفض عن عقله كل أنواع الشك الكريه في أمانة البناة والمقاولين، وبهذه الطريقة اكتسب قناعة صادقة ومريحة أن سفينته سليمة وقادرة على الإبحار، وراح يراقب رحيلها بقلب مطمئن وآمال خيرة بنجاح المنفيين في البلاد الجديدة الغريبة التي سوف يتخذونها وطنًا لهم، ثم حصل على النقود التي دفعها على سبيل التأمين حين وصلت منتصف المحيط ولاذ بالصمت. فماذا سنقول عنه؟ سنقول هذا: إنه كان بحقّ مُذنبًا ومسؤولًا عن وفاة هؤلاء الناس.

من المسلم به أنه كان على ثقة خالصة بسلامة سفينته، غير أن إخلاص قناعته لم يكن أبدًا ليعينه، لأنه لم يكن له أيّ حقّ في الإيمان بأدلة مثل تلك التي كانت مطروحة أمامه، فهو لم يكتسب إيمانه عن طريق البحث الدؤوب، وإنما عن طريق إخماد شكوكه.

الإنسان العاقل هو الذي يمسك بالعصا من المنتصف، حياته لا يجعلها مادية بحتة ولا يجعلها روحية بحتة، عليه أن يمازج بين الأمرين، لقد أمرنا الله بالدّعاء وفي الوقت نفسه أمرنا أن نأخذ بالأسباب.

قد تبدو هذه الفكرة غير محببة لدى البعض، فهناك سلسلة طويلة من الأحاديث والروايات تضعنا على الطريق الصحيح،

عـن أَنَـسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُـولَ اللَّـهِ: أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَـا وَأَتَـوَكَّلُ قَـالَ: «اعْقِلْهَا وَتَـوَكَّلْ»[1]، بمعنى اربط ناقتك وتوكل على الله، وفي مسـتدرك الوسـائل حول العنوان نفسـه، أن رسـول الله ﷺ رأى قومًا لا يزرعون، قَالَ: مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، قَالَ: لَا بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَّكِلُونَ[2].

قد يكون من المفيـد أن أختم هذه الحلقة بهذا الحوار الذي أجريتـه أثنـاء زيارة سـريعة لسـوق واقـف، التقيـت الأخ مكي آل شاخور، وأجريت معه هذا الحوار القصير، ونظرًا للفائدة المرجوة منه أضعه بين يديك أيها القارئ.

- **حدثني بشكل مختصر عن حياتك؟**

مكي آل شاخور: ولدت في عام ١٣٧٣هـ، بمدينة سيهات، بـدأت التـداول فـي الأحجار الكريمة في سـن مبكـرة، حيث كان عمري اثنتي عشرة سنة، كهواية أحببتها كثيرًا.

- **معنى ذلـك أن الخبـرة العملية التـي تمتلكها فـي تـداول الأحجـار الكريمـة نصـف قرن! وهذه فتـرة كافية لفهم هذا العلـم على الأقل**

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٦٨.

(٢) مستدرك الوسائل ١١/ ٢١٧.

نسـبة كبيرة منه، وهذا يعطينـي مصداقية أكثر فيما أريد أن أناقشـك فيه، وربمـا يتعيّن علي أن أسـألك كـم عـدد الأحجار الكريمـة التي تداولتها خلال هذه الفترة؟

مكي آل شاخور: أكثر من عشرة آلاف حجر.

- **هذه الكمية الضخمة، هل وجدت بينها حجرًا يتميز بصفات خارقة، كإيقاف نزيف الدم، أو أنه يجلب الاحتلام، أو منع الرصاص؟**

مكـي آل شـاخور: فـي الحقيقـة، لـم أرَ أيّ حجـر من تلك الأحجار التي ذكرتها.

- **هـؤلاء الذين يقولـون إن مثل هـذه الأحجار موجودة بالفعل، ما موقفك منهم؟**

مكي آل شـاخور: أنا شـخصيًّا لا أعتقد بذلـك، الذي أعتقد به أن الحجر يوجد به طاقة تسـتخدم للعلاج كالعلاجات النفسية، وقد اسـتخدمت الأحجـار للعلاج قديمًا في كثيـر من الحضارات كالحضـارة الصينيـة والهنديـة واليونانيـة والمصريـة، ومـا زالت تستخدم في كثير من الدول كدول أوروبا مثلًا لعلاج حقيقي.

- **إذًا، أنت تقرّ أن الأحجار استخدمت للعلاج، فهل فحصت هذه المعلومة بنفسك؟**

مكـي آل شـاخور: رأيت في الخـارج وفي الصيـن بالتحديد أحد الأشـخاص يسـرد علينا قصة حياته بأنـه أصيب بالاكتئـاب، وتـم علاجه بالأحجار ولكن ليس بطريقة اللبس، فهم يستخدمون طرقًا معينة وعلمية فـي علاجهـم بالأحجـار، فبعضها يوضـع تحت الـرأس والبعض الآخر تحت القدم، وهكذا فإن كلّ منطقة من الجسم يتمّ علاجها بطريقة معينة.

- **علـى افتـراض صحـة مـا رواه لـك الصيني، مـا هي النصيحـة التي تقدّمها لمن يشـكو من مرض معيّـن، وما هو الطريق الأنسـب الذي يختاره المريض، الذهاب للمستشفى للعلاج أو استخدام الأحجار كعلاج له؟**

مكي آل شاخور: بالطبع، الذهاب إلى المستشفى هو الطريق الصحيح، دون أدنى شـك، أما العلاج بالأحجار فهو علم غامض ويحتاج إلى دراسة، وهذا العلم لا يتوفر إلا عند القليل.

- **من أين تستخرج الأحجار؟**

مكي آل شـاخور: من أماكن متفرقة مـن الأرض، كالجبال، والبحـار، والمحيطـات، والأنهـار، والصحـاري، وهنـاك بعـض

الـدول تميـزت بمخزون من نـوع معيّن مـن الأحجـار، كالفيروز يتوفر في إيران والصين والمكسيك ومصر وأفغانستان مثلًا.

- **يتـداول النـاس بعـض المفاهيـم، كقولهـم: الياقـوت للـرزق، والجـزع للهـمّ والأحـلام المزعجة وتسـهيل الولادة، والحجر الصيني للنصر في الحروب، وما شابه ذلك؟**

مكي آل شاخور: هذا الشيء تذكره الكثير من الكتب، والناس تتناقل ما تقرأه كحقيقة مثبتة، وأنا لا أميل إلى مثل هذه الأمور.

- **الدافـع الذي يجعلـك تتداول فـي الأحجار، إضافـة إلى الدافـع الذي يجعـل الناس يأتون السـوق بالمئـات لشـراء الأحجـار وينفقون المال الكثير فيها؟**

مكي آل شـاخور: مصدر للرزق واستخدمها كزينة ولا أكثر مـن ذلك، أما النـاس فأغلبهـم يتخيّـل بمخيّلته أن هـذه الأحجار سـتحقق لـه مطالـب معينة كالـذي يريد أن يصبـح ثريًّـا أو يتعالج من مـرض معين، فهي كالـدواء الذي يبحث عنـه المريض، وكما أوضحـت سـابقًا أنا لا أعتقد بذلـك. وهناك قسـم يقتنيها كهواية، وقسم آخر للاستحباب.

- **أنواع الأحجار المتداولة في سوق واقف؟**

مكي آل شـاخور: العقيـق، الفيروز، الياقـوت، مع العلم أن أكثر الياقوت المتوفر في سوق واقف ليس بأصلي بل هو مغشوش، وتتراوح أسـعار الأحجار من العشرات إلى الآلاف من الريالات، وأغلى الأحجار تداولت في سوق واقف بسبعة آلاف ريال يسمى الحجر اليماني البقراني.

- **الذيـن يشـترون الأحجـار لمطلـب معيـن كتسـهيل الـولادة مثـلًا، فهل بالفعـل يتحقق لهم هذا المطلب؟**

مكـي آل شـاخور: هـؤلاء يتوهّمـون ويعيشـون فـي وهم، والوهم لا يعوّل عليه الإنسان العاقل.

- **نلاحـظ بعض الأحرف المقطعة التي تسـمى بالطلاسـم تكتب على الأحجار، فما المعنى الذي توحي إليه؟**

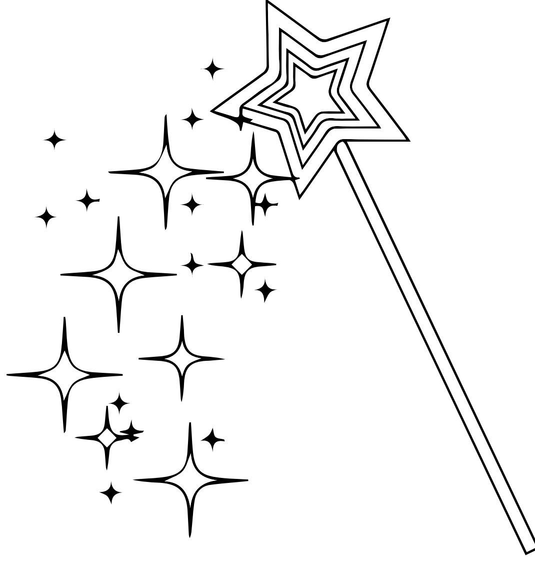
مكي آل شـاخور: الأحرف المقطعة التي تسمى (الطلاسم) نجهلهـا، وضررها أكثر من نفعها. إنني أعتقد أن القرآن الكريم هو الشفاء من كل داء.

- **ألاحظ توفر جلد الذئـب وضرس الذئب في سوق واقف؟**

مكـي آل شـاخور: هؤلاء يعتقدون أن جلـد وضرس الذئب يطرد الجنّ، ويشـترونه على اعتقاد اتقاء شـرّ الجنّ، وأنا شـخصيًّا لا أعتقد بذلك.

- **كلمة أخيرة؟**

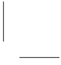
مكـي آل شـاخور: الإنسـان عليـه أن يتعامـل مـع الحيـاة بعقلانيـة، وألا يبخـس هذا العقـل، فالعقل يحتم عليـه إذا أصيب الإنسان بمرض معيّن فعليه أن يذهب إلى المستشفى للعلاج بدلًا من البحث في أمور ضعيفة الجدوى وربما تكون معدومة.



القسم الثاني

حـــــــــوارات

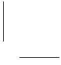
- الأخصائي النفسي فيصل العجيان
- الأستاذ الدكتور رضا آل غنّام
- العلّامة الشيخ فوزي آل سيف



ملحوظة مهمة

جميع ما ورد في هذه المقابلات من آراء تُنسب لأصحابها، وليس بالضروري أني أوافق عليها.

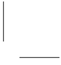


الأخصائي النفسي

فيصل العجيان



المؤلف مع الأخصائي النفسي فيصل العجيان



الأخصائي النفسي فيصل العجيان

«كل ما لدينا من العلم يعدُّ بدائيًّا وطفوليًّا إذا ما قيس إلى الواقع، لكنه برغم ذلك أثمن ما نملك».

ألبرت أينشتاين

كجزء من عملي في هذا الكتاب أجريت هذه الحوارات التي بين يديك، فقد رأيت لزامًا أن أقوم بها حتى أصل لمرحلة الاقتناع في بعض الموضوعات التي طرقتها في هذا الكتاب، ربما تكون درجة اليقين صعبة المنال لكننا نسعى بشكل متزايد في الوصول إليها، وما هذه الحوارات إلا خطوة تقربنا من هدفنا ونكون كقاب قوسين، وأظن أنها ستترك عند القارئ شعورًا بنوع من اليقين، وإذا تحقق هذا بالفعل، فهذا يعني أننا نتحرك في الاتجاه الصحيح.

إن الشكوك التي تحيط بالإنسان حول مصداقية هذه العلوم

الزائفة، لن تصبح هامة حقًّا إذا وجد في العلم نظريات تدحضها، فعلم النفس يقدم لنا الكثير من هذه الشروحات، وهي أكثر ملاءمة للعقل البشري، وبذلك يكون أقرب إلى الحقيقة، وهذا هو ما نسعى لأجله، فالكثير من الألغاز يفككها علم النفس في نظريات جميلة جدًّا، وعندما نقول عن نظرية أنها جميلة فهذا يعني أننا نجد فيها علاقات منطقية يتقبلها العقلاء.

ليلة الخميس في الأسبوع الأول من ربيع الأول من عام ١٤٣٤هـ، ذهبت مع صديقي المهندس حسن الجشي لزيارة الأخصائي النفسي الأستاذ فيصل العجيان في منزله بحلة محيش، ليحدثنا عن الدور الذي يلعبه علم النفس في حياة الإنسان، قضينا معه ساعتين، كان حديثًا مشوقًا جدًّا أضعه بين يديك -أيها القارئ-.

- **شكرًا على قبولك هذا الحوار، في البداية أريد أن أعرف نبذة مختصرة عن حياتك؟**

فيصل العجيان: ولدت في قرية (حلة محيش) بالقطيف عام ١٣٩٤هـ، درست المرحلة الابتدائية في (حلة محيش) في نفس هذا البيت الذي نجلس فيه الآن! بعد ذلك التحقت لسنة واحدة بالدراسة المتوسطة في (حلة محيش)، انتقلت بعدها ولمدة سنتين إلى (الجارودية) لإكمال دراستي المتوسطة، بعدها اكملت

مسيرة دراستي في ثانوية الجارودية وتخرجت فيها عام ١٤١٤هـ.

بدأت دراستي الجامعية بعد الثانوية مباشرة بتخصص علم النفس بجامعة الملك سعود حيث حصلت على شهادة البكالوريوس في علم النفس التربوي، ونظرًا لعدم حصولي على وظيفة قررت الدراسة في معهد الإدارة في برنامج دبلوم عالي في إدارة التسويق، درست خلالها سنة تحضيرية في اللغة الإنجليزية.

حصلت على وظيفة في مستشفى الأمل بالدمام، كمعالج لمرضى الإدمان، لم أستمر فيها طويلًا فقد شعرت برغبتي القوية في إكمال الدراسة، قدمت استقالتي وذهبت إلى الجامعة الأردنية وحصلت على شهادة الماجستير في تخصص قياس وتقويم عام ٢٠٠١م، وكنت قد حصلت على وظيفة في وزارة التربية والتعليم، عملت حينها معلمًا لعلم النفس ومارست الإرشاد الطلابي خلالها، وعملت بالإضافة إلى مهام إرشاد الطلاب الوكيل الفني للقياس والتقويم، وعملت أيضًا كمدرب في إدارة التدريب والتطوير التربوي (مركز التدريب التربوي بالدمام).

طبع لي كتاب بعنوان (التفحيط: توصيفها ومستوى الرضا عنها في محافظة القطيف)، كانت دراسة ميدانية. أعددت ونفذت عددًا من الحقائب التدريبية، منها:

- القياس والتقويم.
- القياس الإلكتروني.

- تحليل المحتوى.
- صياغة الفقرات الاختبارية.
- الاحتراق النفسي.
- سيكلوجيا الإبداع.
- سيكلوجيا الإقناع.
- مناهضة الأفكار الخطأ.
- الضبط الفصلي الفعال.
- سيكلوجيا النص وتأويله.
- مقاييس القدرة.
- مقاييس الاتجاه.
- بناء الأهداف الإجرائية.
- محاكمة الفقرات الاختبارية.
- الاختبارات النفسية.
-الاختبارات التحصيلية.
-جدول المواصفات.
- العملية الإرشادية.
- الإرشاد عبر الهاتف.
- العلاج الجمعي.
- العلاج الزواجي.
- العلاج الجشطلتي.
- العلاج السلوكي.

- العلاج المعرفي.
- العلاج التحليلي.
- كتابة السيرة الذاتية.
- الإعداد للمقابلة الشخصية.
- مساعدات التذكر.
- سيكلوجيا العلاقة الزوجية.
- الزوجين والهواتف الذكية.
- الأبناء والبلاك بري والآيفون والوتس أب والفيس بوك.

استهدفت تدريب الكثير من المربين والآباء والمشرفين التربويين، ومديري مدارس ومعلمين، وطلاب وناشطين اجتماعيين.

أيضًا، قدمت العديد من المحاضرات والمقابلات التطوعية والبرامج التلفزيونية، ولي العديد من المشاركات الاجتماعية وبعض من الكتابات النفسية والاجتماعية والثقافية، كما أنه تم استضافتي من قبل عدد من المنتديات الثقافية المهمة في البلد، مثل: منتدى الثلاثاء الثقافي بالقطيف، قدمت فيه ندوة بعنوان (الأفكار اللا عقلانية وأثرها في الاضطرابات السلوكية)، وقد كانت لها تغطيات إعلامية واسعة، وكذلك استضافني منتدى حوار الحضارات بالقطيف، قدمت فيه ندوة مميزة بعنوان (سيكلوجيا النص الأدبي وتأويله)، وقد نشرت المحاضرة في مجلة الخط

الثقافية وفي عدد من المواقع الإعلامية.

مارست العديد من المهارات:

- التشخيص والعلاج النفسي الفردي (السلوكي والمعرفي).
- العلاج الجمعي.
- القياس ووسائل التقويم (الملاحظة، المقابلة، الاختبارات، سلالم التقدير، فنيات وطرق التدريس، الإرشاد النفسي، التدريب).

شاركت في العديد من اللجان والنشاطات، منها:

- لجنة مقدّري درجات مادة الاجتماعيات.
- برنامج السياقة الوقائية.
- لجنة التحكيم لمسابقة الإلقاء الفردي.
- مدير الملتقى النفسي الاجتماعي.

وأحبّ أن أضيف معلومة إلى القارئ أن علاقتي بعلم النفس بدأت عندما كنت صغيرًا، وازددت عشقًا لهذا العلم مع مرور الأيام، وفي أثناء المقابلة الجامعية لمرحلة البكالورويس تأكد هذا العشق، حيث أخبرني الدكتور الذي يقابلني أنه لم يصادف شخصًا في حياته في مثل هذا العمر يمتلك مثل هذه الثقافة الواسعة في علم النفس، كان هذا أيضًا سببًا قويًّا في اجتياز المقابلة بنجاح والدخول في تخصص علم النفس.

- **حبّذا لو تكلمت عن أهمية علم النفس في حياة الإنسان؟**

فيصل العجيان: من الضروري لكلّ إنسان أن تكون عنده ثقافة حول علم النفس ولو بشكل بسيط، وعلم النفس هو العلم الذي يدرس سلوك الإنسان، وكتفسير لهذه الضرورية نسوق هذا المثال، نفترض أن زوجين ارتبطا برباط الزوجية، ومشروع الزواج هو من المشاريع الكبيرة والمهمة في حياة الإنسان، إذا لم يكن عندهما ما يساعدهما على فهم طبيعة الآخر وكيفية التعامل مع الأولاد في التربية، فإنهما بكل تأكيد سيقعان في أخطاء سابقة بسبب التقليد الأعمى من الآباء والأمهات، وهذا خطأ بالفعل، فهناك علم النفس يساعد في إنجاح مشروع الزواج وتربية الأولاد، وتعليم الطلاب، وتدريب اللاعبين وتحقيق الانتماء المهني للموظفين، وهو علم يحتاجه المحقق والقاضي والصحفي وكلّ إنسان، وعلى هذا يجب على الإنسان أن يكون مهتمًّا بعلم النفس، كالتاجر الذي يريد أن يفتح مشروعًا ما، بقالة أو مطعمًا أو ما شابه ذلك، يجب أن تكون عنده دراسة جدوى كي لا يفشل المشروع، أما الذي يتهاون في مثل هذه الأمور سيكون أقرب إلى الفشل من النجاح.

- **كتقويم شخصي، ثقافة علم النفس في المجتمع القطيفي؟**

فيصل العجيان: للأسف الشديد، المجتمع القطيفي يفتقر بشكل

كبيـر لذلـك، وهناك أسـباب كثيـرة، أهمهما عدم تواجـد الأخصائيين النفسيين في وسط المجتمع، كذلك نفتقر إلى وجود محاضرات حول علم النفس، وأنا شخصيًّا لا أجد تبريرًا مقنعًا يجعل الإنسان يعزف عن تعلـم علم النفس وبالخصوص في وجـود المصادر التعليمية المتوفرة كالإنترنت، فكما أن الإنسـان يسـعى لتعلم الفقه ليؤدي الصلاة بشكل صحيح، كذلك يجب عليه أن يتعلم علم النفس ليكون قادرًا على تربية أولاده تربيـة صحيحـة ويصنـع لنا جيلًا يسـاهم في الرقـي بالمجتمع، والأب قد يكون سـببًا في انحراف أولاده بسـبب عدم تفهمه لأساليب التربية الصحيحة، وهذه جريمة كبرى يرتكبها الآباء في حقّ الأبناء.

- **ألا تعتقـد أن الخطبـاء القطيفييـن كانت لهم مساهمات إيجابية في موضوع علم النفس؟**

فيصل العجيان: أنا شـخصيًّا لا أعتقد بذلك، أغلب الخطباء نظرتهم سـلبية لعلم النفس، حتى في تناولهم للموضوع يسـوقون أمثلـة تاريخية أكل عليها الزمان وشـرب ويسـقطونها على العصر الحالـي وكأن علـم النفـس محصورٌ فـي زمن معين كزمـن فرويد مثـلًا، والأغرب من ذلك أنه يناقش النظرية الإسـلامية بتصادم مع نظريات علم النفس، ويخرج بحقيقة أن النظرية الإسلامية أفضل، وعلى هذا الأسـاس فمن الأفضل على الخطيب ألا يتكلم في مثل هذه الموضوعات، فالعلم الناقص أضرّ من الجهل الكامل.

- **كمـا أن هناك أمراضًا تصيب جسـد الإنسـان وأصبحنـا قادريـن علـى معرفـة أسـبابها، كالإفـراط فـي الجنـس يـؤدي إلـى مشـاكل في غـدة البروسـتاتا والتعرض للبـرد يصيب الإنسـان بالزكام، كذلك هناك أمراضٌ نفسية كالاكتئـاب والتوتر والخـوف، هل بإمكانك التكلـم حـول الأمـراض النفسـية، أرجـو أن تتوسع في إجابتك؟**

فيصل العجيان: كل إنسـان معرّض للإصابة بمرض نفسـي ولا يسـتثنى من ذلك أحد، الأمراض النفسـية موجـودة في جميع المجتمعـات وفي جميـع العائلات وفـي جميع الطبقـات، حالها كحـال الأمـراض الجسـدية، فكمـا أن الطبيب الجسـدي يصاب بمرض الزكام، فالطبيب النفسي يصاب بمرض الاكتئاب.

الصفة النفسية موجودة في الإنسان بدرجات مختلفة وتكون في درجة اعتيادية للناس الأسـوياء، أما إذا زادت أو قلت عن ذلك تكـون مرضًا، كالطالب الذي يعيش فترة امتحانات الثانوية، يكون عنده درجة من القلق وهي حالة طبيعية، أما إذا زادت لدرجة القلق الشـديد أو قلـت لدرجة عدم القلـق، أي اللامبـالاة، تصبح كارثة علـى الطالـب ونصنِّفها بمرض نفسـي، ومـن المنحنيـات البيانية المشـهورة التي تستخدم لقياس الصفة النفسية المنحنى الجرسي،

فالأفراد الذين يقعون في المتوسط هم أسوياء، وسمي المنحنى الجرسي بهذا الاسم؛ لأنه يأخذ شكل الجرس.

- **بصفتك المؤسّس للملتقى النفسي الاجتماعي الأول في محافظة القطيف، هل بالإمكان أن تحدثنا حول هذا الملتقى؟**

فيصل العجيان: تأسس الملتقى النفسي الاجتماعي، في شهر رمضان عام ١٤٣٣هـ، ونتواصل مع الجمهور بواسطة وسائل الاتصال الحديثة، وعالج الملتقى الكثير من الحالات النفسية في القطيف، ووظيفتنا كأخصائيين نفسيين في الملتقى أن نتقبل الأفراد كما هم من دون شرط، ونحاول أن نخرجهم من منطقة اللا أسوياء إلى الأسوياء، ويضمّ الملتقى الجنسين، وشاركنا في مهرجان الدوخلة عام ١٤٣٣هـ، استقبلنا خلال هذه الفترة القصيرة أكثر من مئة وخمسين حالة.

انطلاقته الأولى كانت بمعية المشرفة الاستاذة غالية الجمال وعدد من الاخصائين المؤسسين حتى أصبح اليوم وفي غضون فترة زمنية بسيطة يضم أكثر من ٨٠ متطوعًا من الأخصائيين المهنيين الاجتماعيين والنفسيين ومن تخصصات التربية الخاصة، وإدارة وإعلام وكوادر من بينهم أبرز المتخصصين من حيث الكفاءة في المجال، وهو يهدف لإضفاء الثقافة النفسية والاجتماعية على

المشهد الاجتماعي والثقافي للبلد، كما أننا نزرع ثقافة تحديد الخدمة النفسية والاستشارة المهنية عن الانتماء ونتقبل الجميع، بمعنى لا نستثني أحدًا من الخدمة على أسس أخلاقية أو عرقية أو دينية أو حزبية ونعتبر جميع المستفيدين أهلًا لرعايتنا دون شروط مسبقة، كما نتقبل كافة أبناء المجتمع بكل أطيافهم وبغض النظر عن اتجاهاتهم.

أهداف الملتقى، هي:

- ملتقى يُعنى بتقديم الخدمة الجيدة والمهنية والمتخصّصة ويولي أهمية لمجالات السلوك السوية قبل السلوك المرضي.
- تقديم المتخصّصين في علم النفس والاجتماع كخيار أفضل ومتقن في المجال النفسي والاجتماعي.
- تقديم فعاليات مستمرة تمنح المستفيدين فرصة التواصل والتفاعل مع الخبراء والمهنيين والاستفادة من المنبع الصحيح والمفيد.
- تقديم المحاضرات والندوات واللقاءات النفسية والاجتماعية بالإضافة إلى تقديم الاستشارات النفسية المتخصصة.
- التواصل بين المختصّين في المجال والاستفادة من بعضهم البعض وتوفير بيئة حاضنة لإنتاجاتهم وتحفيزهم للتواجد في المجتمع.

- تقديـم استشـارات تفاعليـة عبر الإعـلام الجديـد كالجوال الاستشـاري والواتس أب الاستشاري والتويتر الاستشاري والتفاعل مع طالبي المشورة من خلال الفيسبوك واليوتيوب والقوقـل بلـس؛ مـا يمنـح المسـتفيدين فرصـة التواصـل والتفاعـل مع الخبـراء والمهنيين والاسـتفادة بكل سـهولة وبالطريقة التي يفضلها وعبر المنبع الصحيح والمفيد.

- **البعـض يعتقـد أن الأمـراض النفسـية تحـدث بسـبب الجنّ، وهذا الأمر قديم جدًّا، فقد نسـب الناس حالة الصرع إلى الآلهة أو الجنّ، وفي هذا يقـول الطبيب أبقـراط: (يظن النـاس أن الصرع شـيء من عند الآلهـة، وهذا فقـط لعجزهم عن فهمـه، ولكنهم إذا درجـوا على وصف كل ما لا يفهمونه بأنه من عند الآلهة فلن تكون هناك نهاية للأشـياء التي من عنـد الآلهة)، والسـبب القوي لهذا الاعتقاد هو غياب التفسير العلمي للصرع، لكن الشـيء المؤسـف أننا في زمن نتواصل فيه مـع بعضنـا بسـرعة الضـوء ونعتقد بذلـك، هل هناك علاقة بالفعل بين الجنّ والمرض النفسي؟**

فيصل العجيان: فيما يتعلق بالصرع اسـتطاع العلم أن يعرف أسـبابه، بل تمكـن العلماء مـن زرع الصرع في الإنسـان، وبالطبع

ليس من خلال إدخال الجني في رأسـه، الصفات النفسية المرضية يمكـن زرعهـا بطريقة أو بأخرى في الإنسـان، فمـن تجربة الطفل ألبرت نخرج بنتيجة مهمة وهي إمكانية زرع الخوف في الإنسـان، العالم واطسـون أثبت أن الأطفال يتعرضون للخوف غير المنطقي حيـث قـام بإصدار أصـوات مزعجة لطفـل لم يتجاوز عمره سـنة واحـدة عندمـا يريـد أن يلعب بفأر اسـتخدمه لهـذه التجربة، فظل الخوف ملتصقًا به.

وعلى هذا، فإن الجنّ ليس له علاقة بالأمراض النفسية، وإنه لأمر في غاية الأهمية أن يعرف الناس هذا الشيء، والشيء المؤسف رغـم تقدم العلم، هناك أنـاس يعتقدون بمثل هذه الخرافات نتيجة الفقر في الثقافة النفسية، ومعظم الأمراض التي ينسبونها الناس إلى الجنّ هي أمراض نفسـية وتعالج بواسـطة الأخصائيين النفسـيين، وليـس بواسـطة الإرث الاجتماعـي كالتعويـذات والطلاسـم والأحراز، وهؤلاء المشـعوذون يسـتخدمون ممارسات غير جيدة في علاجهم للمريض فتارة يضربونه وتارة يبصقون في وجهه، ولا يصـل المريض إلى الأخصائي النفسـي إلا بعد قصة محزنة عاناها هذا المريض.

- **إننـي ألاحـظ من خـلال ما أسـمعه من بعض الناس أن هناك أشـخاصًا اسـتفادوا من خلال**

معالجتهـم من أمراض الجنّ وما شـابه ذلك، بالجلسـات العلاجيـة والأحـراز والطلاسـم ورياضـات معينـة يقومـون بها، وهذا سـبب قوي يجعلنـا نعتقد بفاعلية هـذه العلاجات، تعليقك على ذلك؟

فيصل العجيان: لا علاقة للتعويذات والطلاسم وما شابهها بمسـألة العلاج، والناس تتوهّم أن تعليق الطلاسـم هو الذي أزال هـذا المرض، هنـاك أمراض كثيرة تتعافى بفعـل الزمن كالاكتئاب مثلًا يحتاج إلى فترة زمنية ثلاثة أشـهر ويتعافى المريض، فالجهاز النفسـي يحارب المرض كخلايا الدم البيضاء، إضافة إلى تحسـن الحالة النفسـية بمجـرد اعتقاد المريـض أن هذا الطلسـم يعالجه، ومما لا شـك فيه أن الحالة النفسـية كلما تحسـنت سـيطرت على المـرض، وكمثال علـى ذلك، هَبْ أن هناك خاتمًـا له القدرة على عبـور الجمارك مـن دون تفتيش، إن اعتقاد الشـخص بهذه الفكرة يرفـع مـن معنوياته النفسـية وبذلك يكون في وضع نفسـي طبيعي وربمـا يكون هـذا نفعه لمرة أو مرتين، ولتوضيـح أكثر نفترض أنه فقد هذا الخاتم سـنلاحظ ارتباكًا في حالته النفسـية مما يؤثر سـلبًا علـى الموقف، فحقيقة الأمر أن الخاتـم لا علاقة له بما يجول في ذهنه، والإنسان بطبيعته يحاول أن يوجد علاقات في شؤون حياته، كالربح والخسـارة مثلًا، تسـمع أحدهم يقـول: إذا ذهبت للمتجر

وأنـا مجنـب فإنني أربح، وإذا ذهبت وأنا مغتسـل فإنني أخسـر أو العكس، كل هذه العلاقات هي وَهْمٌ يحاول أن يشـعر الإنسان من خلالهـا بنـوع من الطمأنينة، بسـبب بسـيط جدًّا أنهـا علاقات غير منطقيـة. وهناك أمثلة كثيرة في هـذا الموضوع، نكتفي بمثال آخر، نفترض أن أحد الآباء فتح الباب وأثناء فتحه للباب اتفق أن تنكسر لعبة ولده، هذا التزامن يجعل دماغ الطفل يصدر حكمًا قاطعًا بأنك المسـؤول عن كسـر اللعبة، ويدخل في هذا العنوان الفأل والطيرة وكلّ هذه الأمور وما شابهها، وهي غير صحيحة.

- **إذا كان الإنسـان يشـعر بسـعادة حـظ وأكثـر إيجابيـة بمجـرد اعتقـاده فـي الخاتـم الـذي يلبسه أو الطلسم الذي يحمله أو التميمة التي يعلّقهـا على صدره، فما المانع إذًا من البحث عـن طريقة يجد الإنسـان من خلالهـا الراحة والطمأنينـة حتى لـو كانت هـذه الطريقة غير نزيهة وغير صحيحة؟**

فيصل العجيان: ليس دائمًا تكون هذه الطريقة جيدة، سـأقوم بضرب مثال توضيحي، أحد الأفراد توجد عنده مشكلة نفسية بسببٍ مـا، ذهب به إلى البحرين وعمل له حرز لمعالجة حالته ووصل إلى مرحلـة جيدة، واسـتمر على حمـل هذا الحرز معـه أينما ذهب، في

المدرسـة وأثناء الامتحانات النهائية كان مريبًا للشـك من قبل أحد المدرسـين فعمـل لـه تفتيشًـا، وبعـد جهد ليـس بالبسـيط أخذ هذا الحـرز منه وفتحه ولم يحصل على شـيء، حروف وأرقام وجداول فأتلفـه ورمـاه في القمامة، بعد ذلك أصيب الولد بحالة نفسـية وقام أهله بالتفتيش عن ذلك الشـخص في البحرين ليعالج المشكلة ولم يحصلوا عليه فاستبدلوا به شخصًا آخر لكن لم يحصلوا على نتيجة جيدة، في الواقع الاعتقاد هو سر الاضطراب وسر الشفاء.

نتيجـة جهلنا بالثقافة النفسـية يجعلنا نتصـرف هذه التصرفات الطفوليـة، ونحـن لا ننكر أن علم النفس يسـتخدم طرقًا متشـابهة مع ذلـك، لكنها تقـوم على دراسـات وأسـس علمية، فالأفـراد يهزمون أداءهـم بالأفكار الهازمـة للذات، كالخطيب مثـلًا إذا كان متفائلًا أن خطبتـه جيـدة لأنه يحمل خيطًا أو طلسـمًا سـيكون أداؤه جيدًا، لكن لـو كان متشـائمًا يكون أداؤه فاشـلًا، في علم النفس تقريبًا نسـتخدم ذلـك، عندمـا نريد أن نطـرد الأحداث السـلبية في حياة الفـرد نربطه بشـيء معين كالطـلاق والسـجن...، كالخيط مثلًا نجعل الشـخص يتلو أحداثه المأسـاوية وهو يحدّق فيه، فيكون الخيط مذكرًا له لتلك الأحداث المأساوية التي مرّ بها في سجل حياته، نجعله يلبسه فيتذكر مـن رؤيتـه تلك الأحـداث فيمتنع عـن تعاطي المخـدرات أو الحالة النفسية التي نعالجها، بعد ذلك ننزع الخيط ونجعله يتخيّل وجوده.

وأنـا كأخصائـي نفسـي لا أجد مانعًـا من البحث عـن طريقة

معينة يشعر من خلالها الإنسان بتحسن إيجابي في حياته، لكن الذي أخشاه وأحذر منه ماذا لو فقد هذا الشيء المتعلق به كالخيط أو الخاتم، فالطريقة الأفضل أن يكون الارتباط عن طريق الخيال كما يفعل الأخصائيون النفسانيون، وهذا أفضل من الارتباط المادي.

نصيحتك للمصابين بأمراض نفسية؟

فيصل العجيان: الشيء المؤسف في المريض النفسي هو إنكار المرض من قبله وقبل أهله، وهذا الإنكار يضر المريض كثيرًا، والأضرّ من ذلك كلّه بكثير أن هذيانه البصري كرؤية الجنّ أو ما شابه ذلك يؤكدها له المجتمع المحيط به وخاصّة من قبل الأصحاب وذلك من أجل مجاملته، وأنا على يقين تام لو وضعنا المريض على الطريق السليم عن طريق الإصرار وذهبنا به إلى الطبيب النفسي، هذا أفضل بالطبع من الذهاب به إلى المشعوذين، وقد يتعقد المرض، أضف إلى ذلك الخسائر المادية.

حكت لي فتاة قصتها المحزنة لمدة ثلاث سنوات في أروقة هؤلاء الدجالين والمشعوذين وخسرت خلال هذه الفترة ما يقرب من ستين ألف ريال، علمًا بأنها غير موظفة، اتخذت قرارًا بقوة أن تكون على ثقة بالله سبحانه وتعالى، وآمنت أن لو اجتمعت الجنّ والأنس على مضرتها والله لم يشأ ذلك لم يضروها بشيء، هذا الاقتناع جعلها تنتقل من مرحلة الاضطراب النفسي إلى مرحلة السعادة والسواء.

حالـة مـن حـالات الهذيـان البصـري، كنـت مشـرفًا عليها بنفسـي، أثناء دراسـتي في جامعـة الأردن، هناك شـخص مصاب بهلاوس بصرية ويظن أنه يرى الملائكة ويحدثونه، والسبب يعود إلى إعجابه بقيام الليل وإيمانه الشـديد، بالطبع هذه الحالة مصنفة في علم النفس وليسـت هي الحالـة الوحيدة، ظل أصحابه يبيعونه الوهم أيضًا وقد سببوا له ضررًا كبيرًا.

شاهدت الرجل وعرفت أنه يعاني من هلاوس بصرية وقد أخبرته بذلك، وبعد عدة جلسات علاجية تحسن وضعه إلى الحالة الإيجابية.

- **يعتقـد الكثير من الناس بشـيء اسـمه الأبراج، بحيـث إن المولودين في بـرج القوس يتميزون بصفـات مشـتركة، ودائمًـا يربطـون بيـن قـدر الإنسان والبرج الذي ولد فيه، هل تعتقد بذلك؟**

فيصل العجيان: الأبراج خرافة ولا يوجد لها أساس علمي.

- **وماذا عن تنبؤات نوستراداموس؟**

فيصل العجيان: تنبؤات نوسـتراداموس حالها من حال باقي التنبـؤات، كتبـت بلغـة ضبابيـة وغير واضحـة الدلالة، ومـا يفعله النـاس ليس بأكثر من إسـقاط الواقـع على النبوءة، وهـذا لا يعني بالطبـع أن المتنبئيـن لا يتكلمـون بلغة واضحة، فهنـاك صنف من

المتنبئين يتكلمون بهذه اللغة، لكنهم أكثر عرضة للسقوط من أولئك الذين يتكلمون بلغة مبهمة.

- **عام ١٤١٣هـ، شاهد الناس في القطيف ظهور السيد الخوئي رَحِمَهُ الله على وجه القمر، كيف تنظر كأخصائي نفسي لهذه الحالة؟**

فيصل العجيان: القمر هو مثير غامض، أشبه ما يكون بالشّبة التي تسخدمها أمهاتنا الكبيرات في تشبيبنا، يأتون بالمبخر ويضعون هذه الشبة فيه ويدوروه على رأس المريض، فتتمدد الشبة بفعل الحرارة وتتشكل فقاعات، هذا التشكل غير حقيقي، تترجم قارئة الشبة وتحاول أن تفسرها بالشيء الغامض في نفسها، والغريب في الأمر وعلى النقيض تمامًا، أن نفس القصة أيضًا تروى عن البعثيين عندما شاهدوا صورة صدام حسين في وجه القمر، فالأفراد يسقطون الأشياء على المثيرات الغامضة عوضًا عما يفقدونه.

تجربة شهيرة في علم النفس أثبت من خلالها أن المثيرات الغامضة نسقط عليها احتياجاتنا، وهي ما تعرف في علم النفس بنظرية الإسقاط، وتستخدم نظرية الإسقاط أيضًا في علاج الحالات النفسية، يستثمر علماء النفس المثيرات الغامضة لاستخراج ما بداخل الفرد من معاناة وذلك بسبب إنكار الفرد، فالمرض النفسي يصاحبه الإنكار غالبًا.

- **كلمة أخيرة للأخصائي النفسي الأستاذ فيصل العجيان؟**

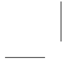
فيصل العجيان: أشكرك على هذا الجهد، أنصح الشباب بتثقيف أنفسهم في علم النفس وخاصة في ظلّ توفر مصادر التعلم، كذلك الاحتفاظ بصداقات مع أخصائيين نفسيين والتواصل معهم عبر وسائل الاتصال المختلفة، وأنصح المرضى النفسيين ألا يُذهب بهم إلى المشعوذين وحتى لو استفادوا فلا نستطيع أن نعزوها إلى هؤلاء، الواجب أن يُذهب بهم إلى أخصائيين نفسيين.

الأستاذ الدكتور

رضا آل غنّام



المؤلف مع الأستاذ الدكتور رضا آل غنّام






الأستاذ الدكتور رضا آل غنّام

«في غالب الأحيان، يجلب الجهل الثقة أكثر مما تفعل المعرفة، فالذين يعرفون القليل، وليس من يعرفون الكثير، هم الذين يؤكدون بقوة أن هذه المشكلة أو تلك لن يحلها العلم أبدًا».

تشارلز داروين

عندما يكون العلم نظريًّا يفتقر لعنصر الجمال، يشعر الإنسان بجمال العلم إذا شاهد تطبيقاته على أرض الواقع، والبرهان التجريبي هو أقوى الأدلة على حقيقة العلوم، وهو المعيار الأساس، وربما يكون الوسيلة الوحيدة الذي يفصل بين حقيقة العلوم وزيفها.

لم أكن أرغب أن يفتقر كتابي لحلقة مستقلة أذكر فيها تجارب

المرضى الذين أصيبوا بأمراض نفسية، وكيف تم علاجهم بطرق ناجحة، فهذه التجارب تثلج الصدر وتضع القارئ على الطريق السليم في تعامله مع مثل هذه الحالات.

إنها جزء مهم من أجزاء هذا الكتاب، لها دلالة واضحة، وهي أن الأمراض النفسية لا علاقة لها بموضوع الجن والالتباس وهي النقطة الجوهرية فيها.

ذهبت مع أخي الحبيب المهندس حسن الجشي في ليلة الخميس الموافق ٢٥/ ٣/ ١٤٣٤هـ، لزيارة الدكتور رضا آل غنّام، في منزله بحلة محيش، ليحدّثنا عن هذه التجارب.

- **جميل جدًّا أن ألتقيك، هل من الممكن في بداية هذا الحوار أن تعطينا لمحة مختصرة عن نفسك؟**

رضا آل غنّام: اسمي رضا حسن آل غنّام، ولدت في عام ١٤١١هـ، بقرية (حلة محيش) بالقطيف، درست فيها المراحل الدراسية الثلاث، الابتدائية والمتوسطة والثانوية، كانت المرحلة الثانوية هي نقطة التحول والانطلاق التي تولدت في داخلي، هنا تولدت رغبتي بدراسة الطب، التقيت فيها الأستاذ زهير القصاب الذي كان المؤثّر في حياتي، تعلّمت فيها المواهب والمهارات، منها تلاوة القرآن وتجويده ولعب كرة السلة وغيرها. فتخرجت

في الثانوية عام ١٤٢٩هـ، بمعدل يزيد عن ٩٩٪، التحقت مباشرة بكلية الطب بجامعة الملك فيصل (جامعة الدمام حاليًا)، كنت عاشقًا لعلم الطب لما فيه من تعقيد وتحدّيات وصعوبات كبرى، أساهم من خلالها في خدمة المجتمع، وقد تلقيت دفعة قوية من أخي الدكتور عبد الهادي النزغة جعلتني أزداد عشقًا لهذا العلم.

هنا أذكر موقفًا جميلًا حصل لي خلال دراستي في المرحلة الثانوية، كان الأستاذ علي المسبح وهو مدرس مادة الفيزياء يتحدّث لنا عن سيرة العلماء كنيوتن وأينشتاين الذين تركوا بصمتهم في هذه الحياة، بعدها طرح هذا السؤال على الطلاب: هل فكّر أحدكم أن يصبح مثل هؤلاء الذين غيّروا العالم بأفكارهم؟ رفعت يدي بكلّ ثقة وهي اليد الوحيدة التي ارتفعت، فالإنسان الناجح هو الذي يزرع الطموح في نفسه.

- **حدّثنا عن اهتماماتك الاجتماعية؟**

رضا آل غنّام: فيما يتعلّق باهتماماتي الاجتماعية الصحية، فأنا رئيس الموارد البشرية بالملتقى الصحي بالقطيف، عضو نادي البحث العلمي بجامعة الدمام، مشارك في حملات تطوعية صحية تثقيفية مثل نادي عشاق الصحة وجمعية السرطان السعودية، التحقت مؤخرًا بالملتقى النفسي الاجتماعي بالقطيف كعضو مشارك فيها.

وأما في الجانب الديني، رئيس لجنة التسجيل بمؤسسة تبارك، نائب رئيس هيئة الإمام علي عليه السلام، عضو لجنة الاعتكاف بحلة محيش، عضو فرقة نور البرهان، قارئ وأستاذ في علم التجويد بدار الفرقان بحلة محيش.

- **هل لك أن تخبرنا عن مدى الأهمية التي يقوم بها علم النفس والطب النفسي للأطباء والجراحين الذين يمارسون مهنتهم؟**

رضا آل غنّام: علم النفس مهم لكل طبيب وجراح وأخصائي واستشاري، فلا يستطيعون أن يمارسوا مهنتهم بإتقان ما لم يدرسوا هذا العلم، فالطب النفسي يلعب دورًا هامًّا في كيفية التعامل مع المريض بناءً على كيانه الإنساني لا على أنه مرض..!! بل هنالك بعض الحالات الحرجة التي يجب على الطبيب أو الجراح أن يتقن أساليب ومهارات التواصل أثناء إخبار المريض أو ذوي المريض بإصابته بالسرطان أو في حالة وفاة لا قدّر الله، كما أنه يساهم في إعطاء الأمل والتخفيف عن معاناة المرضى نفسيًّا مما يحسّن من الحالة الصحية أو يحدّ من مضاعفات المرض جسميًّا.

وأما الطب النفسي فهو يعتبر الآن جانبًا مهمًّا لأي تخصص من التخصصات الطبية بما فيها الجراحة، فيلزم الطبيب المقيم لإكمال برنامج تخصصه أن يدرس هذا العلم لما فيه من جوانب

أساسية ضرورية لإكمال الرحلة العلاجية للمريض وذلك من خلال متابعة حالته بعد أخذ الدواء أو بعد إجراء الجراحة لتقييم ومراقبه الحالة والتدخل في حال حدوث المضاعفات النفسية للدواء أو الجراحة.

وقد أكّدت الدراسات بأن المرضى الذين يتلقون دعمًا نفسيًّا ومعنويًّا قبل العملية الجراحية فإن سرعة التماثل للشفاء أكبر من غيرهم، وذلك لما فيه من تقوية عزيمته وإزالة هاجس الخوف والقلق من المريض لمساعدته على الاسترخاء والشعور بالراحة.

ومما يشير بشكل أوضح إلى الأهمية الكبرى التي يقوم بها علم النفس هي قضية التواصل مع المرضى (Communicating Skills)، وكمثال على ذلك، قضية الإصابة بالأمراض الخطيرة كالسرطان مثلًا، فالطب النفسي يقدم طرقًا أنيقة في كيفية التعامل مع هذه الأمراض وإيصالها للمرضى دون أن تسبب صدمة للمريض ينتج عنها آثار سلبية كالانهيار العصبي مثلًا؛ مما قد يؤدي إلى ضعف الاستجابة المناعية للمريض وتدهور حالته الصحية شيئًا فشيئًا.

- **ما هي مسيرتك العلمية والعملية في الطب النفسي؟**

رضا آل غنّام: درست علم النفس (Psychology) في السنة الثالثة فتعلّمنا من خلاله الأمراض والاضطرابات النفسية التي

تصيب الإنسـان، ودرست الطب النفسـي (Psychiatry) ومارست الجانب التطبيقي منه في مستشفى الملك فهد الجامعي بالخبر في الفصل الدراسـي الأول من هـذه السـنة ١٤٣٣/ ١٤٣٤هـ، وهي السنة الخامسة في مرحلتي الجامعية.

○ هل بالإمكان أن تقدم لمحة بسيطة عن بعض الأمراض النفسية وطرق علاجها؟

رضـا آل غنّـام: هنالـك أمـراض نفسـية كثيـرة قـد تصيـب الإنسان، وعادة ما تحدث نتيجة لحدوث تغيرات بايولوجية داخل دمـاغ الإنسـان ولتعـرض الشـخص لجرعـات مؤثرة مـن أزمات وضغوطات الحياة، فمنها:

نوبة الاكتئاب الكبرى: (Major Depessive episode)

هي حالة مرضية يشعر فيها الإنسان بالحزن والكدر واليأس وفقـدان الاهتمام وعـدم القدرة على الاسـتمتاع بمباهـج الحياة، فمريـض الاكتئـاب يفقـد الرغبـة في الشـهية لمـا كان يشـتهيه في السـابق، بـل لا يجـد طعمًـا أو لذة لأيّ شـيء يأكله. هنالك نسـبة من مرضـى الاكتئاب يزداد إقبالهـم على تنـاول الطعام ولكن دون الشعور بلذة الطعام أيضًا.

كمـا يعانـي مرضـى الاكتئـاب مـن اضطرابـات فـي النـوم

وتناقص معدل النشاط الحركي والطاقة والشعور بالكسل وسرعة التعب والإرهاق، وعادة ما يمتد تأثيره على المستوى الدراسي فيؤدي إلى الرسوب، أو على المستوى الوظيفي فيؤدي إلى فشل الموظفين في أداء أعمالهم.

يصاحب هذه الشعور اليائس الشعور بالذنب والإثم وعدم وجود قيمة للحياة، فلذلك يقدم بعض مرضى الاكتئاب إلى الانتحار.

لذلك فإن الأطباء النفسيين والكادر الطبي المعالج يأخذون كامل حذرهم من المرضى الذين تكون عليهم مؤشرات أو علامات نوبة الاكتئاب الكبرى خوفًا من إقدامهم على الانتحار.

علاج الاكتئاب:

هنالك عدة مراحل لمعالجة مرضى الاكتئاب، فمنها:

العلاج الدوائي، مثل:

١- مانع الأكسيديز الأميني الأحادي (MAOI)

٢- مضادات للاكتئاب ثلاثية الحلقات (TCA)

تعمل هذه الأدوية وغيرها من الأدوية التي تستخدم في علاج الاكتئاب على زيادة نسبة مادة السيروتونين،وتكمن فكرتها في منع إعادة امتصاص السيروتونين الذي يعتبر أحد الناقلات العصبية وبالتالي ازدياد نسبتها.

العلاج النفسي:

المشـكلة الرئيسـة في العلاج الدوائي للاكتئـاب أنه يتطلب أسـبوعين إلى أربعة أسـابيع ليبـدأ مفعوله، ولربمـا يضطر الطبيب المعالـج إلى تغيير الدواء في حالة عدم اسـتجابة المريض للدواء، وفي كل الأحوال لن يكون للدواء مفعوله القوي ما لم يتم معالجة مشـاكل المريض الداخلية والتوترات الخارجية، فعلاج الاكتئاب يشارك فيه الطبيب والباحث الاجتماعي والمريض نفسه.

ومن أهم أنواع العلاج النفسي:

١- العلاج السلوكي المعرفي.
٢- العلاج الإيقاع الشخصي المتناسق.
٣- علاج التنظيم العائلي.

وهنالك طرق أخرى للعلاج، منها:

العـلاج بالصدمـات الكهربائيـة (ECT) وتسـتخدم لعـلاج الكآبـة الشـديدة وغير المسـتجيبة للعـلاج الدوائي، فهي سـريعة التأثير مقارنة بالعلاج الدوائي.

- **نسـمع كثيرًا عن مرض يسـمى بــ (الفصام)، حبّذا لو قمت بتوضيح ذلك؟**

رضـا آل غنّـام: هنـاك مفهوم شـائع بين النـاس أن مـرض الفصام

يعنـي انفصـام الشـخصية، أي إن الإنسـان يعيـش فـي حالـة متذبذبة بين شـخصيتين مختلفتيـن، فهـذا مفهوم خطـأ، إن المقصود بمـرض الفصام (Schizophrenia) هو انفصال الإنسان عن الواقع، أي إنها تتميز باضطراب أساسـي فـي العلاقـات الواقعية وتكويـن المفهـوم فيعيش فـي عالمٍ من التخيـلات والتفكيـر غيـر المنطقـي والهواجس والهـلاوس البصريةً وما شـابه ذلك، وهـذا المرض لا يؤثر على المسـتوى الفـردي أو العائلي بل يتعدّى إلى ما هو أكبر من ذلك وهو التأثير السلبي على المجتمع.

أعراض الفصام:

تختلف وتتفاوت من مريض لآخر، فمنها:

الانعـزال والهلاوس البصرية والسـمعية، ضلالات فكرية، عـدم الاهتمـام بالنظافة الشـخصية، التحدّث مع النفـس، الإيمان بمعتقـدات غريبـة، التحدّث بـكلام غير مفهوم، السـلوك الغريب والعدوانية، عدم التركيز والانتباه، وغيرها.

طرق العلاج:

هنالـك حقيقـة عن مـرض الفصـام، وهي أنه مـرض مزمن تنهار خلاله الوظائف الهامة للإنسـان كالقدرات العقلية والذهنية، ويتدهـور فيه الأداء الوظيفي وشـخصيته الاجتماعية. لذا لا يجب أن يقتصـر العلاج فقط على العلاج الدوائـي، بل لا بدّ من العلاج البدني والنفسي والاجتماعي والتأهيلي.

العلاج الدوائي:

تتطلب المرحلة الحادة من المرض إدخال المريض المستشفى لاضطراب سلوكه وتفكيره وهيجانه وثورته، وفي المستشفى قد يضطر إلى أخذ جلسات علاجية كهربائية، فهي مفيدة وآمنة وسريعة المفعول.

وفي المستشفى يستمر العلاج إلى ما بين (٢-٦) أسابيع أو حسبما يراه الطبيب مناسبًا.

الأدوية المستخدمة، هي:

١- مجموعة المطمئنات الكبرى (Major Tranquilizers)

٢- مضادات الأذهان (Antipsychotics)

ولهذه العقاقير تأثير جيّد ضد الضلالات والهلاوس والهيجان وبقية الأعراض، ولكن لا بدّ أن يكون العلاج علاجًا متكاملًا من الناحية البدنية والنفسية والاجتماعية والتأهيلية لما وجدنا من تأثير سلبي لهذا المرض على الأطياف المختلفة للحياة.

- **نحن نعرف جيِّدًا تلك الأسباب التي تؤدي إلى أمراض جسدية، فما هي الأسباب التي تؤدي إلى أمراض نفسية؟**

رضا آل غنّام: عجز العلماء في السابق عن التوصل إلى

الأسـباب الحقيقيـة المؤديـة إلى هذه الأمـراض، فوصفوهـا بأنها تحدث لأسباب مجهولة وبشكل غير مفهوم يعجزون عن تفسيرها، ونسبتها الحضارات القديمة إلى غضب الآلهة أو الجنّ أو الشياطين بحسـب تقاليد البيئة الاجتماعية آنذاك، ونتيجة الاطّراد العلمي في مجال علم النفس في دول أوروبا، والتطور التكنولوجي السريع فقد تـم التعرف على هذه الأمراض عن كثـب، فقد وجد العلماء علاقة وطيـدة بين التغيرات التـي تحدث داخل الدماغ وهـذه الأمراض، فمـرض الاكتئاب مثلًا وجدوا أنه على علاقـة وطيدة بنقصان مادة تسـمى بـ(السـيروتونين) (Serotonin) فهو يحدث نتيجة لخلل في هـذه النواقل العصبيـة (Neurotransmitters) في أجزاء معينه داخل خلايـا الدماغ، وبكلّ تأكيـد فإن هنالك عوامل أخـرى كالأحداث الماسـأوية -فقد شخص عزيز أو خسارة مالية في التجارة أو سوق الأسـهم أو الفشـل المسـتمر فـي مشـروع معيّـن والكثيـر من هذه الحالات- التي يتعرض لها الإنسان هي أحد الأسباب لذلك.

فنقسم أسباب الأمراض النفسية إلى الآتي:

الأسباب الأصلية: وهي التي تمهّد لحدوث المرض وتجعله أكثـر عرضةً للإصابه بالمرض، مثـل: العوامل الوراثية والأحداث الأليمة في مرحلة الطفولة على وجه التحديد.

العوامـل المسـاعدة: وهـي التي تندلـع على أثرهـا أعراض المرض، مثل: الأزمات والصدمات والمراحل الانتقالية في الحياة

من بيئة لبيئة ومن نمط لآخر، فهي(القشة التي قصمت ظهر البعير).

الأسباب الحيوية (البيولوجية): ويقصد بها الأسباب العضوية التي تطرأ على الإنسان في فتره نموه، مثل: الاضطرابات الفسيولوجية وعيوب الوراثة والخلل العضوي.

الأسباب النفسية: وهي أسباب ذات أصل ومنشأ نفسي، فهي تتعلّق بالنمو النفسي خاصة في مرحلة الطفولة وعدم إشباع الحاجة الضرورية للفرد، مثل: الصراعات والإحباط والحرمان والعدوان والخبرات السيئة الصادمة.

الأسباب البيئية (الخارجية): وهي الأسباب البيئية أو الاجتماعية التي تحيط بالفرد، مثل: التخلّف الحضاري وضعف البيئة الدينية والثقافة والتنشئة الاجتماعية في الأسرة والمدرسة.

- **ذكرتني بشخص أعرفه جيِّدًا كان طالبًا متفوقًا توقعت له مستقبلًا كبيرًا، التحق بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن، وأثناء دراسته خطب فتاة وللأسف الشديد فشل مشروع زواجه، فتأثر دراسيًّا وترك الجامعة، أما الآن، هل لي أن أسأل عن الوراثة وعلاقتها بالأمراض النفسية؟**

رضا آل غنّام: فسّر العلماء حدوث الكثير من الأمراض

النفسية على أنها نتيجة لتغيرات جينية (Genetic Changes)، فالتغيرات الجينية تنتقل عبر الأجيال من الأجداد إلى الآباء إلى الأبناء، وهذا ما أكده العلم، والدليل على ذلك هو انتشار هذه الأمراض في عوائل معينة، فمذ دخولي إلى العيادة النفسية ومقابلة المرضى النفسيين والحديث معهم لم أجد مريضًا لا يحمل تاريخًا عائليًّا بنفس المرض أو مرض نفسي آخر، لهذا نحن نسلط الضوء على عائلة المريض من خلال سؤال المريض: هل توجد هنالك نفس الحالة أو مريض نفسي آخر في العائلة؟ وهذا يساعدنا كثيرًا كأطباء نفسانيين في تشخيص حالة المريض وعلاجها.

- **سأسألك سؤالًا لصالح القرّاء، ما هي الفيتامينات التي إذا تناولها الإنسان تساعده على تجنب الإصابة بمرض نفسي؟**

رضا آل غنّام: إنني مؤمن شخصيًّا وبقناعة كبيرة، ومن خلال تجربتي، وتوجد لديّ مصادر تؤكد ذلك، أن تمسك الإنسان بالدين يعطيه جرعة قوية من هذه الفيتامينات تقيه من الإصابة بأمراض نفسية فضلًا عن الأمراض العضوية، وخاصة ونحن نعيش في زمن تتسارع فيه ضغوطات الحياة بدرجة كبيرة جدًّا، فالمتنفّس لهذه الضغوطات هو تمسّك الإنسان بالدين وقراءة القرآن، فهي الدرع الأكبر والسلاح الأقوى لمواجهة ذلك. كذلك

يجب على الإنسان ألا يغفل الدور الذي يلعبه العلم في حياته، فمن الواجب عليه أن تكون عنده حصيلة علمية وثقافية تساعده أيضًا على تحديات الحياة.

يقول الفيلسوف الألماني نيتشه: (ما لا يقتلك يجعلك أقوى)، فالإنسان في حالة صراع مع هذه الحياة، وعليه أن يواجه مشاكلها المعقدة ويحلها، وأما الفاشلون فهم أولئك الذين يركنون في زاوية الراحة والاستقرار بعيدًا عن إيجاد حلٍّ لهذه الصعوبات والأزمات الاجتماعية إلى أن تذرفهم رياح الخيبة والخسران، فيظلون في مكانهم متنعمين آمنين إلى أن تمتد أمواج الحياة على رؤوسهم، فأما الحياة وجدت كي يعيش فيها الأقوياء لا الضعفاء.

◘ الطريق السليم الذي نسلكه في تعاملنا مع المريض النفسي؟

رضا آل غنّام: الطريق السليم والوحيد هو أن يكون المريض تحت الإجراء الطبي، فعلينا أن ننقله إلى المستشفى ونعمل الفحوصات اللازمة ويتم تحويله بعد ذلك إلى العيادة النفسية لتقوم بواجبها تجاه المريض ومعالجته بأفضل الطرق والوسائل العلمية الحديثة لكي يصل لمرحلة الشفاء، فالعيادة النفسية يتواجد فيها أفراد متخصصون في علم وطب النفس، وأخصائيون في العلاج النفسي والسيكولوجي المعرفي، وكذلك الطاقم الطبي، جميعهم

يقومـون بدور واحد وفق طرق معينة، وهدفهـم أن ينقلوا المريض إلى مرحلة الشفاء، ومن خلال الأدوية والجلسات العلاجية المبنية على أسـاس علمي وأبحاث وتجارب عملية تجعل المريض -بعد اللـه- يتماثل للشـفاء، بل إن العيادة النفسـية لا يتوقـف دورها بعد التشخيص وصرف العلاج للمريض، فعليها التواصل مع المريض بعـد خروجه من المستشـفى من خلال الزيارات المسـتمرة، أما ما يفعله الناس من الذهاب به إلى المشعوذين والدجالين فهذا الطريق يسلكه غير العقلاء، بل هو خلاف المنطق السليم؛ لأنه لا ثمرة منه، والإنسان الحكيم هو الذي يضع الأمور في أماكنها الصحيحة.

- **بلغـة أكثـر وضوحًـا، هـل هنـاك علاقـة بين الأمراض النفسية وتلبس الجن كما هو شائع بين الناس؟**

رضا آل غنّام: كرأي شـخصي مسـتند على التجارب الطبية، الجـنّ موجـود، وهـذا لا أنكره، فقـد ذكره اللـه تعالى فـي القرآن الكريم، أما الشـيء الذي أنكره هو الاعتقاد السـائد لدى الناس أن الأمراض النفسـية تحدث بسـبب الجنّ، فالعلم قد بيّن بطلان هذه العلاقة وخرج لنا بأسباب علمية موثقة طبيًا، فبعضها يحدث نتيجة تغيرات جينية وأسـباب آخرى ذكرناها سابقًا، فالأسباب معروفة، والعـلاج بين أيدينا، ومن الخطـأ أن نتجاهل ذلك، والدليل القوي

هو تحسّن حالة المريض بواسطة العلاج النفسي من تناوله للأدوية أو الجلسات العلاجية، فالعلاقة بين الأمراض النفسية والجنّ هي علاقة غير منطقية وغير صحيحة إطلاقًا.

○ وماذا عن الذين يذهبون ليمارسوا هذه العلاجات عند هؤلاء المشعوذين؟

رضا آل غنّام: لاحظت من خلال عملي في المستشفى أن الذين يشتكون من أمراض نفسية علاقتهم بالدين ضعيفة جدًّا من خلال تقييم الجانب الديني لهم، إضافة لبعض البيانات التي يقومون بتزويدنا بها وجدنا أن أكثرهم قد مرّ بعلاجات روحانية أو روحية قبل ذهابه للمستشفى، فيؤكد المريض بأن هذه الجلسات لم ينتفع منها إطلاقًا.

يقول تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾[(١)]، أنا على ثقة تامة أن القرآن فيه شفاء للناس، لكن الشيء الخطير الذي يزعجني كثيرًا هو المتاجرة باسم الدين وباسم القرآن، ومن خلال الإحصائيات التي قمنا بها فإن المرضى لم يستفيدوا مطلقًا من هؤلاء الذين يسرقون أموالهم باسم الدين، لكن بدأت حالتهم تتحسن بعد زيارتهم للعيادة النفسية وتلقيهم العلاج المناسب.

---

(١) الإسراء: ٨٢.

- **من المفيد للقـارئ أن تحكي بعض القصص أو الحـالات التـي رصدتهـا أثنـاء عملك في المستشفى وكيف تعاملتم معها؟**

رضا آل غنّام: هذه الحالة تابعتها بنفسي، شيء غريب أصاب أحد المرضى الذين أتوا إلى المستشـفى وكان عمره ٢٥ سنة، كان يرى الشـيطان عنـد خلوده للنـوم بجنب أبيه – هـلاوس بصرية – فعندما يرى المريض الشـيطان فهو كان يراه على أنه حقيقة بالنسبة له، فتطورت حالته وأصبحت خطيرة جدًّا فأمسك زجاجة وحاول أن يرميها على أبيه، وأصبح وجوده يشكل خطرًا كبيرًا على الأسرة بأكملها.

الاتجـاه الـذي يسـلكه معظـم الناس فـي تعاملهـم مع هذه الحـالات هو الذهـاب به إلى هؤلاء المشـعوذين أو الذين يدعون أنهـم يعالجـون بالروحانيات والطلاسـم وما شـابه ذلـك، وفعلاً هـذا ما أشـاروا إليه وأخبرني به ذوي المريـض بأنهم ذهبوا به ولـم يستفيدوا إطلاقًا من هذه الجلسات سوى خسارة الوقت والمال.

بعد المحاولات الفاشـلة سـلكوا الطريق الصحيح وجلبوه إلى مستشـفى الملك فهد الجامعي بالخبر، وشخصت حالته بأنها اضطراب ثنائي القطب (Bipolar Disorder)، وهذا المرض يجعل المريـض يعيـش بين حالتيـن مرضيتيـن: الكآبة والنشـوة في فترة معينة من الزمن، وبواسـطة أدويـة مثبتة المزاج وغيرها من الأدوية

والزيـارات المنتظمـة في العيادة النفسـية وصل لحالـة معتدلة في المزاج وتحسنت حالته وتماثل للشفاء تمامًا.

ومـن غرائب الحالات التي رصدتها في المستشـفى، أن أحد المرضى يقول لنا بعد أن سـألناه بماذا تشـعر؟ فيجيـب قائلًا: أتيت بالشيطان من مثلث برمودا وقيدته في البيت، بل كان يقول لنا ويردد عاليًا: (أنا الله)، (أنا الإله)، (أنتم عبادي)، وما شـابهها من عبارات التي تدلّ على أعلويته وتضخم الأنا عنده، إضافة إلى مشاكل أخرى كانـت تؤثـر على حياته سـلبيًّا، فقـد أحبّ فتـاة وتعلّق بهـا كثيرًا ثم تزوجت، فسببت هذه الحادثة له صدمة كبيرة جعلته يعيش اضطرابًا نفسـيًا وكآبة، وبعد تشـخيص حالتـه وجدنا عنده مـرض اضطراب ثنائي القطب أيضًا، بقي في المستشفى لمدة ثلاثة أشهر، كلما التزم بأخذ الـدواء أعطي إجازة خروج للمنزل كنـوع من التحفيز له على التزامه، وبعد مدة التقيته في أحد الأماكن بالخبر فعرفني وسلم عليّ وكان مبتهجًا وفي أفضل حالاته وأصبح شخصًا طبيعيًّا.

أذكر لكم أيضًا هذه القصة لندرك خطر المرض النفسي على الفرد والأسـرة والمجتمع، كان أحد الأشخاص قد أصيب بحادثة نفسـية في السـنة السادسـة عشـرة من عمره جعلته يدخل في أزمة نفسية استمرت معه لأكثر من عشر سنوات، عانى كثيرًا، ذهبوا أهله به لكثير من المشايخ وعملوا له الكثير من الجلسات الروحانية ولم يسـتفد منهم جميعهم أبدًا، استمر على هذا الحال لعدة سنوات ثم

تـزوج وهو على هـذه الحالة، لم ينجب أولادًا حينهـا، بعدها فكّر الأهـل أن يصطحبـوه للمستشـفى فذهبـوا به لأحد المستشـفيات وأدخلوه العيادة النفسـية ولـم يسـتفد منهم أيضًـا، حينها فكروا أن يـزوروا مستشـفى الملك فهد الجامعي وذلـك لوجود الكفاءة من الأخصائيين، بعد زيارته لهم تحسـن وضعه كثيرًا واتضح لهم بأن التشـخيص في المستشـفى الذي ذهبوا إليـه كان خاطئًا، الآن لديه ثلاثة أولاد وهو في راحة واستقرار تامين.

○ شاركتم في مهرجان الدوخلة لعام ١٤٣٣هـ، حدّثنا عن هذه المشاركة؟

رضـا آل غنّـام: مشـاركتنا في مهرجـان الدوخلـة كانت في الخيمـة الطبيـة هدفهـا التعرف علـى الأخطاء الشـائعة عن مرض السـكري، تثقيـف وتقديم الاستشـارات الطبيـة للزائرين، وإجراء الفحوصـات اللازمـة. والجديـر بالذكـر أننا طرحنا سـؤالًا ضمن مجموعة أسـئلة في اسـتبيان قمنا به لعمل بحـث إحصائي، يتعلّق بالحبة السـوداء، هل حقًّا أن الحبة السـوداء تؤدي إلى الشـفاء من مرض السـكري؟ فأجاب عن الاسـتبيان أكثر من أربع مئة شخص من ضمن تسع مئة بنعم. والصحيح أن الحبه السوداء لا علاقة لها بشفاء المريض من داء السكري وهذا يعكس ضرورة رفع مستوى الثقافة الطبية بالمنطقة.

○ كلمة أخيرة نختم بها هذا الحوار؟

رضا آل غنّام: هناك حقيقة يجب أن يعرفها القارئ، وهي أن التمسك بالدين وقراءة القرآن، تجعل الإنسان متعلقًا بالله سبحانه وتعالى في جميع أموره، وتعطيه حصانة قوية من تعقيدات الحياة ومشاكلها المتزايدة وأمراضها النفسية، وإنها لحقيقة جديرة بالاهتمام، فالتمسك بالله هو أقوى الوسائل للنجاة، ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾[1]، وقدوتنا الكبرى هو الرسول الأعظم ﷺ كيف واجه تحدّيات هذه الحياة بل كيف غير هذا العالم..!!

إضافة إلى تاريخ الرسل والأنبياء نجد في هذا التاريخ مدرسة كبرى، يتعلم الإنسان من خلالها كيف يواجه صعوبات هذه الحياة، فنرى كيف أن النبي نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ واجه تمرد ابنه وقومه، والنبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف واجه النمرود، والنبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف واجه فرعون، والنبي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف واجه بني إسرائيل، والكثير حول مختلف أنواع البلاء الذي تعرض له الأنبياء.

أخيرًا، أدعو القارئ إلى التمسك بالعلم، فالعلم هو الذي يرقى بحياة الإنسان، وهو أغلى ما يملك الإنسان في هذه الحياة، وهو المعيار الأساس الذي يميز بين حقيقة العلوم وزيفها.

---

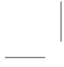
(١) الطلاق:٣.

العلَّامة الشيخ

فوزي آل سيف



المؤلف مع العلّامة الشيخ فوزي آل سيف






العلَّامة الشيخ فوزي آل سيف

«**الدَّاعِي بِلاَ عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلاَ وَتَر**».

علي بن أبي طالب عليه السلام

مـن ألمع خطباء القطيف وعلمائها وكتّابها، التقيته في شـهر ربيع الآخر من عام ١٤٣٤هـ، بمسـجد الرفعة بتاروت، بعد صلاة العشـائين، طرحـت عليه العديد من الأسـئلة حـول بدايات حياته ونشـأته، ثم انتقلت معه لمواضيع مهمة جدًّا، حول فلسـفة الدعاء وعن موقفه تجاه الإعجاز العلمي في القرآن، كذلك شـعوره تجاه العلـوم الزائفة المنتشـرة في جميـع المجتمعات، بدايـة من قراءة الكفّ والتنجيم إلى الشـعوذة والسحر، وجزء مهم من هذا الحوار كان حول بعض الروايات الموجودة في تراثنا الديني.

هنـاك فئـة مـن النـاس أسـاءت فهـم التعامـل مع المسـائل المذكـورة كالدعـاء مثـلًا، وانسـاقت لفعـل بعـض الأعمـال غير

المثمـرة التـي ربما تسـبب الضرر للذين يمارسـونها على أسـاس معتقـدات دينية نتجت عن سـوء فهم لهذه النصـوص، وأعتقد أننا بحاجـة كبيـرة إلى فهم أحسـن لكثير من النصوص كـي لا نقع في الخطأ.

لقـد هدفـت مـن هـذا الحـوار إلـى فهم أحسـن لمثـل هذه المسـائل وكيفية التعامل معها، وعلى هـذا أعتقد وبقناعة كبيرة أن هذا الحوار سـيقدم إلـى القارئ الطريقة الصحيحة، وسـيقربنا من هدفنـا ونكون كقاب قوسـين من هذا الهدف، وبذلـك نضمن أننا نسير في الاتجاه الصحيح.

- **فـي البداية أقـدم لك جزيل الشـكر والامتنان علـى قبولك هـذا اللقـاء، فأنا أعلـم جيِّدًا أن وقتك مشغول غالبًا، وأرجو أن يتسع صدرك لجميـع أسـئلتي، وأكـرّر رجائـي أن تكـون إجابتـك واضحـة كـي يفهمهـا الجميـع، أما الآن فكلي شوق للاستماع إلى نبذة مختصرة حول نفسك؟**

فوزي آل سـيف: اسـمي فوزي بـن محمد تقي بـن علي آل سـيف، من مواليد سـنة ١٣٧٩هـ، فـي تاروت بالقطيـف، والدي المرحوم الحاج محمد تقي بن علي بن عبد الله آل سيف، كان من

المهتمين بالشأن الاجتماعي والسعي في قضايا المجتمع، توفي في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٤١٦هـ، والدتي المرحومة حصة بنت الشيخ منصور بن عبد الله آل سيف، كانت معلمة قرآن لمدة تزيد عن أربعة عقود وقارئة حسينية.

أكملت دراسة المرحلة الابتدائية في تاروت في مدرسة الغالي، ثم سافرت للدراسة الدينية في الحوزة العلمية بالنجف بالعراق سنة ١٣٩١هـ، درست المتوسطة في مدرسة منتدى النشر في النجف الأشرف، التي أسّسها المرحوم الشيخ المظفر، أما الثانوية فكانت عن طريق الانتساب.

من أساتذتي في النجف في علوم اللغة العربية ومقدمات الفقه، الحجج والأفاضل:

١- الشيخ عبد الله الخنيزي.
٢- الشيخ عبد الرسول البيابي.
٣- السيد سعيد الشريف.
٤- الشيخ جمعة الحاوي رحمه الله.

التحقت في عام ١٣٩٤هـ، بمدرسة الرسول الأعظم التي أسّسها الإمام السيد محمد الشيرازي -قدس الله نفسه- ودرست فيها الأصول والفقه وتفسير القرآن والتاريخ الإسلامي والخطابة والأدب على أيدي أساتذة فضلاء، في طليعتهم:

١- آية الله السيد محمد تقي المدرسي.

٢- العلامة السيد عباس المدرسي.

٣- العلامة السيد محمد رضا الشيرازي رحمه الله.

٤- الشيخ صاحب الصادق.

سافرت في عام ١٤٠٠هـ، إلى الجمهورية الإسلامية في إيران، وشاركت في إدارة حوزة القائم العلمية في طهران، وكنت أدرّس فيها الفقه والأصول والثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي.

أكملت دراسة المنهج الحوزوي في الفقه والأصول على يد آية الله الصالحي الزنجاني في حوزة المهدية في طهران، ثم انتقلت لمتابعة الدروس العالية إلى قم في بداية عام ١٤١٢هـ، ولازمت البحث الخارج لآية الله الوحيد الخراساني في الأصول، وآية الله الشيخ التبريزي قدس سره في الفقه والأصول وآية الله حرم بناهي رحمه الله في علم الرجال، وحضرت قسمًا من بحوث آية الله الشيرازي رحمه الله وآية الله السبحاني.

في نهاية عام ١٤١٨هـ عدت إلى القطيف، وأتولى في الحوزة العلمية فيها تدريس الفقه يوميًّا على نخبة من طلبتها الفضلاء.

أمارس الخطابة الحسينية في مواسمها، وأتشرف بأن أكون خادمًا لسيد الشهداء أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب

عليهما السلام، وتبث بعض المحطات الفضائية المحاضرات الحسينية تلك في فترات مختلفة، كما توجد قناة لي على اليوتيوب فيها التسجيلات المصورة لتلك المحاضرات.

- **حقيقة فاعلية الدعاء والتوسل بالأنبياء والأولياء في حياة الإنسان، كالشفاء من الأمراض مثلًا، وهل يكفي الدعاء أو التوسل من دون الذهاب إلى الطبيب؟ وهل تعرف شخصيًا حالة لمرض معين لم يعالج بالطب وبواسطة الدعاء أو التوسل بالأولياء شفي من مرضه، وكيف تفسر لي كثرة أولئك الذين يتوسلون بالشفاء من أمراض خطيرة كالسرطان مثلًا أو إرجاع أحد الأعضاء المبتورة ولم يحصلوا على نتيجة مرضية؟**

فوزي آل سيف: في موضوع المرض والعلاج يوجد عدة مسارات:

المسار الطبيعي وهو كالقانون العام الذي ينبغي أن يسير عليه جميع الناس بغض النظر عن إيمانهم وكفرهم وصلاحهم وسوئهم، وهو الذهاب حين المرض إلى المتخصّص في علاجه، ومراجعة الطبيب في هذا المجال هو القاعدة العامة التي يلتزم بها،

حتى الأنبياء والرسل مع ما نعرفه عن قربهم من الله.

ولهذا فقد عدّ من الأصناف التي لا يستجاب لهم من يكون مريضًا فلا يسلك هذا الطريق وفي المقابل يسأل الله الشفاء.

المسار الاستثنائي وهو ينقسم إلى قسمين:

الأول: ما يؤدي من الأعمال أو الأقوال والأذكار إلى زيادة قوة النفس، الأمر الذي يمكّن الإنسان من التغلب -بقوة نفسه الداخلية- على العوامل المسببة لبعض الأمراض، وذلك أن في النفس الإنسانية قدرات كبيرة قد لا يكتشفها الإنسان إلا حين تتعرض للتحدي والاستثارة.

ولو أردنا أن نورد مثالًا على ذلك، للتنظير والتشبيه، نتحدث عمّا يحدث في عملية التطعيم ضد الأمراض، فإن من المعروف عند الأطباء أنهم يحقنون الشخص الذي يريدون تطعيمه عن الجدري أو التفوئيد أو الكوليرا وما أشبهها، بجرثومة نفس المرض إما مضعفة للغاية، أو ميتة! فعندما تدخل في الجسم، يتعرف الجسم عليها، ويقوم بإيجاد خطوط دفاع تجاه هذا الوافد الغريب، ويرفع البدن من مستوى مناعته ضد هذه الجرثومة، فيصبح الجسم طاردًا لكل جرثومة تنتمي إلى هذا الصنف، ومقاومًا لها حتى لو كانت تلك الجرثومة حيّة وفعالة، وسرّ ذلك هو أنهم قاموا بعملية تنتهي إلى تقوية الجسم أمام مسببات المرض، ورفع مناعته حتى يتغلب عليها.

بل حتى تقوية النفس وقناعة المريض بأنه في طريق الشفاء يصنع نفس الصنيع، وينتج تغلب النفس على مسببات المرض البدني! وقد تحدثت الدراسات عن تجارب يصرف فيها حبوب عادية ليس فيها أي مكون مضاد للمرض ولكنهم يخبرون بأن هذه الحبوب من نوعية متميزة وفيها علاج للمرض، وكانت النتائج واضحة في أثر القناعة الداخلية وقوة النفس بالتغلب على المرض!.

والآخر هو الغيبي: وهو الذي يدخل فيه مسار الدعاء والتوسل وما شابه، ونحن نعتقد أن الإنسان عندما يشعر بأن السبل قد أغلقت أمامه، وأن (لا ملجأ من الله إلا إليه)، ويدعو الله الذي ﴿**يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾[1]، وقد تكون الحكمة تقتضي إجابة دعائه والحصول على الشفاء من مرض عجز عن شفائه العباد، يحصل هذا الإنسان على مبتغاه من العافية، وهذا الأمر من الكثرة بمكان بحيث يلاحظه الكثير من الناس.

أما لماذا لم يحصل بعض الأفراد على شفاء لحالاتهم الصعبة، فنحن نقول: إن هذا الطريق (الثاني) هو استثنائي، ومعنى ذلك أنه ليس قاعدة مضطردة في كلّ الموارد، وإلا لما كان هناك معنى للطريق الأول الطبيعي، ولما اضطر الإنسان إلى الدراسات الطبيعية ومعرفة أسباب الأمراض وطرق علاجها، وفي هذا من

(١) النمل: ٦٢.

السوء ما لا يخفى، فإنه يوقف مسيرة الإنسان العلمية والحضارية، ويخالـف أوامر اللـه القاضية بأن يتدبر الإنسـان في آيـات الله عز وجل وفي نفس الإنسان.

- **مسـألة الإعجـاز العلمي فـي القرآن، انقسـم الناس حولها إلى قسمين، فالقسم الأول يرى أن مسـألة الإعجـاز العلمـي في القـرآن تبين عظمة القرآن، فعندمـا تتفق إحدى النظريات الحديثـة مـع حقيقة نطق بها القـرآن قبل أكثر من ألف وأربع مئة سـنة، فهـذا ينمّ عن عظمة القرآن، أما القسم الثاني لم ترق له هذه الفكرة، ذلـك أن النظريات الحديثة قد تسـقط وتتبدل بنظريـات أخرى، إضافـة إلى أن القـرآن نزل بلسـان عربي وواضح وليس ألغازًا وطلاسـم لـم يستطع البشر فهمها لأكثر من ألف سنة ثم أتينـا نحن في هـذا القرن وفهمناهـا، موقفك من مسألة الإعجاز العلمي في القرآن؟**

فوزي آل سيف: القرآن الكريم هو كتاب هداية، قبل أن يكون كتـاب فيزيـاء أو كيمياء أو فلـك! ولهذا لا ينبغـي أن ينتظر منه -في الأساس- أن يقوم بكشف القوانين العلمية، أو النظريات الطبيعية.

إلا أن هذا لا يعني أنه كتاب خالٍ من هذه الجهات، فإن الله سبحانه وتعالى لما كان منزل القرآن (على علم) فإنه من الممكن أن يشير إلى ما وضع الله سبحانه في الكون من قوانين سيكتشف البشر بعضها بجهودهم وبحثهم واستقرائهم، وربما كشف بعض الأنبياء عليهم السلام عن بعضها الآخر في أحاديثهم إظهارًا لعظمة الله وبيانًا لقدرته، وهكذا ربما تعرض القرآن إليها لنفس ذلك الغرض، إلا أنه في كل ذلك كانت غايته أن يكون (هدى ورحمة)، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[1].

ولا نرى مشكلة في بيان وجوه الإعجاز العلمي في القرآن، ما دام في إطار التوجيه العقائدي لعظمة الخالق وتدبيره، وهذا ما قام به كثير من المؤلفين، أو أن يكون في إطار التحفيز للتعرف على دقائق آيات القرآن الكريم، وعدم المرور عليها من دون تفكّر.

إلا أنه ينبغي الالتفات إلى ما ذكرتم في سؤالكم، وهو أن بعض (القضايا) قد تكون نظرية من النظريات، وليست حقيقة علمية قطعية، وإذا كانت كذلك فهي قابلة للتغير والنقض، وآنئذٍ فنسبتها إلى القرآن الكريم الذي يفترض أن آياته وحقائقها لا تقبل التغيير ولا النقض، ليس صحيحًا.

---

(١) الأعراف:٥٢.

ويمكـن لمؤيدي البحث في الإعجـاز العلمي في القرآن أن يتعاملوا مع هذه المسـألة، بنحوٍ لا يكون فيه نسـبة جزمية للقرآن، وإنما بأن يعتبروا ما توصلوا له إحدى النظريات، وقد يكون فهمهم للقرآن ليس تامًّا!.

- **أرجو من سماحتكم التحدث بشكل مختصر حول هذه العلوم (السـحر - التنجيم - قراءة الكفّ - الأبراج - تحضير الجنّ - اسـتخدام التمائـم والطلاسـم للعلاج)، هـل هي علوم حقيقيـة أم علـوم زائفـة، وموقـف مذهـب الإمامية منها؟**

فـوزي آل سـيف: بشـكل عـام، لا يمكـن وصـف العناوين السابقة بأنها علوم، وذلك أن تعريف العلم - الفلسفي أو المنطقي - لا ينطبق على أيٍّ منها. وما جاء في القرآن ﴿**وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّـحْرَ**﴾[1]، ليس المقصود منه هذا المصطلح، أو إثبات أنه علم بالمعنى الفلسفي أو المنطقي.

أمـا الموقف الديني في مدرسـة أهل البيـت عليهم السلام، فيمكن تحديده بما يلي:

---

(١) البقرة:١٠٢.

١ - لا اعتبار بالنتائج التي يتم الوصول إليها عبر هذه الفنون، فلو فرضنا أنه تم الوصول إلى تحديد السارق من خلال السحر، لا يعدّ ذلك حجة في ثبوت السرقة عليه، وهكذا لو أخبر المنجم- وهو يختلف عن العالم الفلكي الناظر في النجوم والكواكب- عن شيء سيحدث فلا ينبغي تصديقه، ولو تحدث قارئ الكفّ (أو الفنجان) عن أمور فلا اعتبار بها، وهكذا.

٢- وبالإضافة إلى الجهة السابقة فإن مزاولة هذه الأمور والإقبال عليها محرّم في الجملة:

فقد أجمع علماؤنا على أن عمل السحر وتعليمه وتعلمه والتكسب به وأخذ الأجرة عليه حرام شرعًا، وتحضير الجنّ بقصد الإضرار بالغير حرام أيضًا، واستخدام التمائم والطلاسم إن كانت واردة بطريق معتبر عن النبي صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام، كما هو الحال في بعضها، فلا مانع منه ويدخل هذا فيما ذكرناه في الإجابة عن السؤال الأول في المسار الغيبي.

وإن لم تكن كذلك- كما هو الحال في الكثير منها- فلا ينبغي أن يتورط الإنسان فيه. وبمراجعة بعض الرسائل العملية (كمنهاج الصالحين للسيد السيستاني ٢/ ١٣) نرى الفتوى بهذا النص:

مسألة ٢٣: عمل السحر تعليمه وتعلمه والتكسب به حرام

مطلقًا وإن كان لدفع السحر على الأحوط، نعم يجوز بل يجب إذا توقفت عليه مصلحة أهم كحفظ النفس المحترمة المسحورة. والمراد بالسحر ما يوجب الوقوع في الوهْم بالغلبة على البصر أو السمع أو غيرهما، وفي كون تسخير الجنّ أو الملائكة أو الإنسان من السحر إشكال، والأظهر تحريم ما كان مضرًّا بمن يحرم الإضرار به دون غيره.

مسألة ٢٨: التنجيم حرام. وهو: الإخبار عن الحوادث، مثل الرخص والغلاء والحرّ والبرد ونحوها، استنادًا إلى الحركات الفلكية والطوارئ الطارئة على الكواكب، من الاتصال بينها، أو الانفصال، أو الاقتران، أو نحو ذلك، باعتقاد تأثيرها في الحادث، على وجه الاستقلال أو الاشتراك مع الله تعالى، دون مطلق التأثير، نعم يحرم الإخبار بغير علم عن هذه الأمور وغيرها مطلقًا، وليس من التنجيم المحرم الإخبار عن الخسوف والكسوف والأهلة واقتران الكواكب وانفصالها بعد كونه ناشئًا عن أصول وقواعد سديدة وكون الخطأ الواقع فيه أحيانًا ناشئًا من الخطأ في الحساب وإعمال القواعد كسائر العلوم.

وبالنسبة لاستخدام الطلاسم أو التمائم في العلاج، فإذا ثبت بطريق معتبر أن الذِّكر الفلاني، ينفع في كذا، فيمكن توجيهه وحمله على ما ذكرناه سابقًا في المسار الاستثنائي، والذي يدخل في تقوية النفس، ورفع قوة أدائها بالنحو الذي تتغلب فيه على

المرض. واستعمال الشخص لهذه الأمور مع اعتقاده بفاعليتها وتأثيرها، على الأقل يصنع قوة داخلية تستطيع النفس من خلالها التغلب على العوامل المسببة للمرض.

- **في تراثنا الديني تواجهنا بعض النصوص التي لا يتقبلها العقل؛ لأنها تتصادم مع العلم، كسبب المدّ والجزر والزلازل مثلًا، في علل الشرائع يروي الصدوق عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه سئل عن المدّ والجزر، ما هما؟ فقال: ملك موكل بالبحار يقال له رومان، فإذا وضع قدمه في البحر فاض وإذا أخرجها غاص. وحول سبب الزلازل، في علل الشرائع أيضًا، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تعالى خلق الأرض فأمر الحوت فحملتها، فقالت: حملتها بقوتي فبعث الله حوتًا قدر شبر فدخلت في منخرها، فاضطربت أربعين صباحًا فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل أرضًا نزلت تلك الحوتة الصغيرة فزلزلت الأرض فرقًا.**

  كيف ننظر إلى هذه الروايات وما شابهها التي

عندما نتعامل معها بصيغة حرفية يتحتم علينا أن نؤمن أن الأرض تقف على ظهر حوت أو قرن ثور، وأن المدّ والجزر يحدثان بسبب ملك يقال له رومان يضع قدمه في البحر، وهذا يتصادم بشكل واضح مع الحقائق العلمية التي تخبرنا أن المدّ والجزر يحدثان بسبب جاذبية القمر، أرجو من سماحتكم التوسّع في الإجابة عن هذا السؤال؟

فوزي آل سيف: يهمّني هنا أن أوضح نقطة في غاية الأهمية، وهي في منهج التعامل مع الروايات، والمصادر الروائية، وقد أشرت إليها في كتاب (رؤى في الإصلاح الثقافي)، وخلاصتها: أن من الخطأ الانفتاح الكامل ومن غير منهج على النصوص الحديثية. وذلك أن هذه الروايات ليست (جاهزة للاستعمال) وإنما تحتاج إلى كثير من العمل لتوثيق صدورها، وفهم دلالاتها، وتحويلها إلى مادة علمية قابلة للاستفادة.

إن التعامل المباشر مع الروايات من غير الاطّلاع على علمي الدراية والرواية، يسبب الكثير من الأخطاء المنهجية، وهذا ما نلاحظه في قسم من المثقفين في مدرستي الخلفاء وأهل البيت. عندما يقومون بالرجوع إلى المجاميع الحديثية الكبرى، ويتصورون من خلال ذلك أنهم يتعاملون مع نصوص المعصومين

مباشرة. غير أن هذه الفكرة لا تصحّ، بل يحتاج الإنسان إلى تأمل دقيق في ظروف تلك الأخبار، وفي أسانيدها، ومعانيها.

وبالنسبة للروايتين المذكورتين، فإنهما تفقدان صفة الاعتبار ولا يصحّ سندهما، فلا يمكن الاستدلال بهما والاستناد إليهما، بل يعارضهما الكثير مما جاء في روايات أخر.

ولو فرضنا أن الروايتين كانتا تامّتين من حيث السند، فلا تنتهي المسألة عند هذا الحد إذ لا بُدّ أن يكون المتن والدلالة، ممكن القبول. فلو كان يخالف الحقائق العلمية الثابتة أو كان لا يتوافق مع بعض الأصول العقلية، أو المسلمات الدينية، فلا يعتمد عليه.

ولا ريب أن ما جاء في مضمونهما لا يتفق مع النصوص الدينية الأخرى، فضلًا عن الحقائق العلمية الثابتة اليوم، فلا تكون مقبولة.

- **هناك أزمنة معينة يمتنع الناس فيها عن الزواج أو الجماع أو السفر، بصفتها غير محبّذة بناءً على الروايات التي تتحدث حول هذا العنوان، أكتفي بذكر ثلاث روايات من كتاب الوسائل: عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في وصيته لأمير المؤمنين عليه السلام: يا علي، لا تجامع أهلك في**

أول ليلـة من الهلال ولا في ليلـة النصف ولا فـي آخر ليلة فإنّه يتخـوف على ولد من يفعل ذلـك الخبـل، فقال علـي عليه السلام: ولـم ذاك يا رسـول الله؟ فقال: إن الجنّ يكثرون غشـيان نسـائهم في أول ليلة من الهلال وليلة النصف وفي آخر ليلة، أمـا رأيت المجنون يصرع في أول الشـهر وفـي وسـطه وفي آخـره. وحول الزواج في بـرج العقرب يقول الإمام الصادق عليه السلام: «مـن تزوج امرأة والقمـر في العقرب لم يـرَ الحسـنى». وفيما يتعلق بيـوم الأربعاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: «توقّوا يوم الأربعاء فإنه يوم نحس مستمر».

كيف تكون للأيام علاقة بسعادة الإنسان ونحسه، هل بإمكانك أن تشرح لي كيف يتم ذلك؟

فـوزي آل سـيف: ما يرتبط بكـون بعض الأيام أيام سـعد أو نحـس، أيضًا هو من الأمور التي وقع النقاش فيها، فقد التزم بعض الفقهـاء بكراهة بعض الأعمال في بعض الأيام، كما ورد في قسـم من الرسائل العملية، واعتمدوا فيها على مثل ما ذكرتم من الأخبار، غير أن قسـمًا من العلمـاء رأوا أن هذه الروايات لا يمكن الاعتماد عليهـا لضعف أسـانيدها، وربما -لو صحت أسـانيدها أو أسـانيد

بعضها- تحمل على كراهة الإقدام على بعض الأعمال واختيار أوقات أخر، وقد تشير إلى بعض الحقائق الخافية علينا، فإننا نعتقد أن هناك ارتباطًا ما بين الكائنات في تبادل التأثير، وأخيرًا فلا يعني ذلك المنع عن العمل المطلوب (كالزواج أو غيره) في هذا الوقت المعين، وإنما هو تحبيذ اختيار وقت آخر.

ثم إن هناك روايات حاكمة على هذا النوع من الروايات، وهي التي ينبغي العمل عليها حين الرغبة في اختيار الوقت (المكروه) مثل ما ورد عن حماد بن عثمان، قال: قلت لأبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق عليه السلام): أيكره السفر في شيء من الأيام المكروهة مثل الأربعاء وغيره؟ فقال: افتتح سفرك بالصدقة، واخرج إذا بدا لك.

وأيضًا حديث سهل بن يعقوب الذي قال للإمام علي الهادي عليه السلام: يا سيدي، في أكثر هذه الأيام قواطع عن المقاصد لما ذكر فيها من النحس والمخاوف، فتدلني على الاحتراز من المخاوف فيها؟ فإنما تدعوني الضرورة إلى التوجه في الحوائج فيها. فأجابه الإمام بجواب قال فيه: «فثق بالله عزّ وجلّ، وأخلص في الولاء لأئمتك الطاهرين، وتوجّه حيث شئت، واقصد ما شئت إذا أصبحت وقلت ثلاثًا: أصبحت اللهم معتصمًا بذمامك المنيع، الذي لا يطاول ولا يحاول..

وفي هذه الأخبار بالإضافة إلى اختيار الإقدام على العمل المطلوب، فهناك مساهمة في فعل الخير بالصدقة وهذه -مع

تحولهـا إلى ممارسـة اجتماعية- لهـا آثار مهمة فـي رفع حاجات المحتاجين، بل حاجات المجتمع العامة حيث لا تختص الصدقة في سبيل الله بالفقراء فقط.

وأيضًـا جهة أخرى وهـي تكريس التوكّل على الله سـبحانه والاستعانة به، ولا شك أن في هذا الأمر جهة إيمانية.

- **الروايـات حـول الطب الشـعبي كثيـرة جدًّا، في كتاب الوسـائل عن الرسـول ﷺ: «من بـدأ بالملح أذهب الله عنه سـبعين داء، أقلّها الجـذام»، وقـال ﷺ: «في الحبة السـوداء شـفاء مـن كلّ داء إلا السـام[الموت]». هـل هذه العلاجات حقيقيـة أم مجرّد أوهام، فمن الصعوبـة تصديـق ذلـك، أتمنـى الإسـهاب بالتعليق حول هذه الروايات؟**

فـوزي آل سـيف: يقـول العلمـاء: إن الروايات الـواردة في الطب لا بُدّ من النظر إليها عبر عدة زوايا:

- أن بعض هذه الروايات، وما تحتوي عليه من فوائد لنباتات أو عقاقير أو غيرها، قد تكون خاصة بأشخاص معينين، لعلّهم هم السـائلون للمعصوم، أو من يرتبط بهـم، ولا عمومية لها، وهذا ما نلاحظـه حتى في عصرنـا الحاضر، إذ قد يصـف الطبيب لمريض

معين دواء، ملاحظًا حالته الخاصة، وقد لا يكون نافعًا بالضرورة لكلّ الأشخاص، فإن العسل مثلًا نافع وهو بحسب القرآن، ﴿**فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ**﴾[1] ولكنه لا يكون كذلك لمريض السكري!

- وقد تكون ناظرة إلى منطقة معينة، ومراعية للأجواء الخاصة فيها، فما هو صالح مثلًا للبيئة الجافة، لا يكون كذلك بالنسبة للبيئة الرطبة، وهكذا البيئة شديدة الحرارة عن تلك الأخرى الباردة. وربما حمل بعضهم الأحاديث المؤكدة على دور الملح، أنها ناظرة أكثر إلى منطقة الحجاز حيث درجات الحرارة العالية التي تسبب كثرة التعرق، وينتج عنها حاجة الإنسان إلى الأملاح في بدنه، فلا بُدّ والحال هذه من التأكيد على استعمال الملح.

- وفي غير هذه الصور فإنها قد تكون تنبيهًا إلى الفوائد العامة الموجودة في تلك المواد، مثلما نقول الآن: إن البرتقال يعزّز من مناعة الجسم، ويقاوم نزلات البرد، ويؤمن حاجة الجسم من فيتامين سي ويفيد في كذا وكذا.. وتعدد مزاياه الكثيرة، ولكن لا ينبغي أن يتصور أن برتقالة هي مستشفى كامل! وإنما فيها مواد تقتضي الفائدة في هذه الموارد، ما لم يمنع منها مانع فإنها تحدث أثرها!

وينبغي بعد كلّ هذا أن يؤخذ بعين الاعتبار المستمع الذي قيل له هذا الحديث، فلا بُدّ من أن يشرح له ميزات هذه المادة أو تلك، ملاحظًا فيه مستواه العلمي، والذي كان في الغالب في تلك

(١) النحل:٦٩.

الفترات مستوى متواضعًا، فلو تحدّث له المعصوم عن أن الشيء الوسخ فيه ميكروبات أو جراثيم، لم يفهم هذا المعنى فلا يجتنبه، وإنما يتحدّث له بحسب ما يتعقله من أن عليه اجتناب الوسخ وألا يبيت الزبالة في المنزل مثلًا، لكيلا تأتي له الشياطين!

أو يقول له: إن الملح يقي من سبعين داء! وحيث إنه يعرف الجذام كمرض كان موجودًا فإنه ينظر له ويشبه له بهذا المرض!

وأخيرًا مثل هذه الأحاديث تبقى من أحاديث الآحاد، ويتم التعامل معها في الغالب من غير تحقيق، ولذلك فإن بعضها لا يملك ميزة الاعتبار، ولا يمكن الجزم بصدورها عن المعصوم، ولو فرضنا صحة سندها، ومع ذلك كان في مضمونها ودلالتها ما يخالف الحقائق العلمية (الثابتة) لا النظريات فإننا نردها ولا نقبلها، فلسنا أسرى صحة سند الرواية، وإنما لا بُدّ أن يكون مضمونها ومفادها ممكن القبول أيضًا.

- **يعتقد بعض من الناس أن الأمراض والإعاقات هي بسبب ذنوب الإنسان، كذلك الزلازل والبراكين تحدث بسبب معاصي البشر، ما مدى صحة هذا الاعتقاد؟**

فوزي آل سيف: لا يصح هذا الاعتقاد، بل الأمراض والزلازل والبراكين حوادث لها مقدمات وأسباب، قام على

أساسـها الكـون، والأثـر الذي يترتـب على الذنـوب والمعاصي، هـو بالدرجة الأساسـية في النفـس والاخلاق على مسـتوى الفرد والمجتمع، وفي الثواب والعقاب في يوم القيامة.

والذي يرشدك إلى هذا أن الأمراض كما تكون بين المذنبين تكـون بين المؤمنيـن، وأن الزلازل قد تحدث في بلاد المسـلمين (الذين تقع مناطقهم) ضمن الخط الزلزالي، أكثر مما تحدث لدى الكافرين والجاحدين! وأن الله سـبحانه وتعالى، جعل يوم القيامة هو يوم الجزاء والمحاسبة على الذنوب.

- **ما مدى صحة الفكرة التي تقول إن بقاء جسد الميت من دون تحلّل دليل على قداسته؟**

فوزي آل سـيف: هناك أكثر من سـبب يدعو إلى بقاء جسـد الميت دون تحلّل، منها ما يرتبط بطبيعة الأرض التي دفن فيها هذا الانسـان، فالأرض تختلف بحسـب تكوينها الجيولوجي، فتسبب أرض سرعة التحلّل للبدن وأرض أخرى يتأخر فيها تحلّل.

نعـم قـد يكرم الله بعـض أوليائه بـأن تبقى أجسـادهم طريَّة غضـة كأنها قد دفنت في اليوم الماضـي، وهذا في الغالب يحدث بسـبب غيبي، وله غايات محددة قد يكون منها تجلِّي قدرة الله عزّ وجلّ بشكل دائم، ومقدار ارتباط هذا الميت بخالقه.

- **كلمة أخيرة في نهاية اللقاء؟**

فوزي آل سيف: أشكركم على هذا اللقاء، وأتمنى لكم دوام التوفيق والموفقية.

الخاتمة

«الدنيا كبيتٍ له بابان، تدخل من أَحَدِهِما وتخرج من الآخر».

النبي نوح عليه السلام

كثيرًا ما يصادف المرء في واقع قاسٍ كالذي نعيشه، إحباطات كثيرةً في حياته، وبدلًا من علاجها بصورة منطقية، يخرج من هذا المحيط في البحث عن علاج لها خارج الطبيعة، وهذا ليس إلا دليلًا على ضعفه، فمعظم العلوم المزعومة والزائفة التي على وجه الأرض كالسحر والتنجيم وقراءة الكف والقوة الروحانية والطلاسم والأحجار، هي فرضيات وتخمينات واحتمالات علاقتها غامضة جدًّا ولا تستند على أدلة مقنعة، وهي ليست بعلوم منطقية، فعندما نقوم بفحصها تسقط وتفشل.

إن هذه الإحباطات التي تصيب المرء هي السبب الرئيس

الـذي يجعل النـاس يبحثون عن قوة خارقة فـوق طبيعية ليواجهوا بها صعوبات هذه الحياة، كمواجهة الضعفاء للأقوياء.

ومهمـا كان أمـر ذلك، ففي هـذا العالـم تنتشـر عقائد كثيرة، بعضها بسـيطة جدًّا لا تؤذي الإنسـان ولا فرق فيهـا إذا اعتقد فيها الإنسان ومارسها أو لـم يفعل، كعدم الزواج والسفر في أيام معينة، ورأس الخفـاش يمنع عن النوم، وخصية الأسـد لوجع البواسـير، لكن بعضها من أشـدّ ما يكون خطرًا على حياة الإنسـان، وإذا كان العلـم يضيّق الخناق كثيـرًا عليها إلا أن لها شـعبية كبيرة جدًّا، فما زالـت هنـاك قوة أكبر من قـوة العلم تعمل على إرجـاع العالـم إلى الوراء.

ومـن الصعوبـة عليّ في هـذا الكتاب الـذي كتبتـه أن أعدّد جميـع تلـك العقائد المؤذيـة التي يجـب علي أن أحاربهـا وأدعو القارئ إلى عدم الإيمان بها، فوجود هذه العقائد في المجتمع هي كارثة مأسـاوية ولسـت مبالغًا إذا قلت إن خطرها يفوق الأسـلحة المتطـورة، فهـذه العقائـد تعمـل على عدم تـوازن الحيـاة، فالذي يسـتطيع أن يتحكم فـي العالم لأنه يملـك حجرًا معينًا أو طلسـمًا معينًـا، فأين العدالة التي تقدمها لنـا الحياة، وما قيمة تلك القوانين القويـة التي تحكم الحياة، صحيح أن الحياة مليئة بالظلم وتسـبب خيبة أمل، وعلى مرّ التاريخ فإن الأشـرار هم أكثر رفاهية وسـعادة فـي هـذه الحياة مـن الناس الأخيـار، ونتيجـة هذا الواقع القاسـي

يذهب الناس لمثل هذه العلوم الزائفة لمواجهة القوة الشريرة على وجه هذه الأرض، وهذا هو أحد الأسباب الرئيسة التي تجعل الناس يلهثون وراء السحر وما شابهه من علوم زائفة.

ومن أمثلة العلوم الزائفة، قراءة المستقبل باستخدام ورق اللعب، والتكهن باستخدام الثعابين وبالرمل حيث تلقى حفنة من الرمل على الأرض عن طريقها تقرأ أحداث المستقبل، وقراءة الكف وذلك بالنظر إلى تعرجات الخطوط الموجودة في اليد وعن طريقها نستطيع التنبؤ بالمستقبل، ولم تسلم الحيوانات أيضًا من ذلك حيث استخدمت للتكهن بمعرفة أحداث المستقبل، ففي القرن السادس قبل الميلاد بمعبد الكهنة بإيطاليا بمدينة تاركوينيا كان العرافون يتنبؤن بالمستقبل اعتمادًا على رحلات الطيور، كذلك التنجيم والاعتقاد في الأحجار أن لها قوة خارقة، وهناك ما هو أكثر من ذلك.

إن وظيفة العلم هي فحص هذه الفرضيات، فعندما نواجه فرضية يجب أن نشكك فيها ونفحصها جيِّدًا ليتبيَّن لنا صدقها من كذبها، كرأس الخفاش مثلًا يمنع النوم، أو أن الصرع شيء من عند الآلهة، أو تأثير الأحجار والأبراج على حياة الإنسان الاختيارية على كوكب الأرض، أو ادّعاء البعض بمعرفتهم أحداث المستقبل.

يقع الناس البسطاء ضحية لمثل هذه الخرافات فيستمرون على إهدار أموالهم على هذه الأكاذيب والخدع، غير المثمرة

إطلاقًا، إنها جريمة كبرى يرتكبها الإنسان في حقّ نفسه، من يسمح للآخرين أن يسرقوه فقد ارتكب بحقّ نفسه جريمة كبرى.

إن وظيفة العلم هي تطهير عقول الناس من هذه الخرافات التي أثقلت رؤوسهم بها وإنقاصها تدريجيًّا قدر الممكن، وعلينا أن لا نكون متفائلين جدًّا، فإنه من غير الممكن أن نتوقّع أن العلم سيكون له القدرة على إزالة هذه الخرافات جميعًا من عقول البشر، كما أننا لا نتوقع أن المستشفيات ستقضي على الأمراض جميعًا، لكن وجودها بالطبع قلّص الأمراض كثيرًا.

فالتحدّي الرئيس والكبير للعلم هو مواجهة هذه الخرافات والعمل على إنقاصها وإزالتها من عقول الناس، وهذه مهمة كبيرة جدًّا يقوم بها العلم وخاصة هناك قوة كبيرة تحاول أن ترجع الناس إلى الوراء، ومقاومة هذه القوة تحتاج إلى جهدٍ كبير.

إن الكون-أيها القارئ- ليس بذلك الكون الودود الذي تخيّلناه منذ الصغر، وهو يسمو فوق تلك الحكايات التي صورتها الحضارات القديمة، فصوروا لنا الكون بتصورات سخيفة جدًّا، فمرة يصورونه كنتاج ... بين رجل (إله) وامرأة (إله)، ومرة أخرى بأنه فقيسٌ لبيضة كونية، أو أنه ولد من اليباب والخراب، أو أنه نتيجة انصهار الثلج بفعل حرارة النار، أو أنه منتجات لعقل بشري، أو غير ذلك.

وهـا نحن نعيش في ثورة معلوماتية هائلة فسـرت لنا الكون بتفسـيرات لم تـرق لأجدادنا ولـم ترق لنا أيضًـا، إلا أن العلم ليس مجبـورًا أن يتوافـق مـع رغباتنا، فنحن لسـنا بأكثر مـن مخلوقات صغيرة جدًّا ومقياسـنا بالنسبة للكون لا شيء على حسب المعايير الكونية، ومما يجعلنا نشـعر بالخجل أن الأرض بأكملها لا تشكل في الكون شيئًا، فهي ليست بأكثر من حبة رمل في صحراء مترامية.

إن الواقـع المرّ الذي صدمنا بـه العلم هو الذي جعلنا نبحث عن قوى فوق طبيعية تحقق لنا رغباتنا وأمنياتنا وأحلامنا، وكما قلنا سـابقًا حول القصص الإغريقية: إن السـاحرة سيرس عرضت على أوليس من خلال المرآة، جرعة سحرية تبقيه معها إلى الأبد، فرجل يريـد أن يتمتع بالحيـاة ولا يريد أن يموت فيظل طوال عمره يبحث عـن ماء الحيـاة الذي يحقّق له هـذا الحلم الطفولـي، وآخر يبحث عن أكسير الحياة الذي يعالجه من جميع الأمراض، وشخص ثالث يبحر بسفينته في المحيط الأطلسي ليصل إلى مغيب الشمس حيث يلتقـي هناك مخلوقات تحقق له جميع أحلامه الطفولية، وفوق كل هذا، هناك حجر من يملكه يسـتطيع أن يحكم به العالم فيظلّ طوال حياته ينقب عن هذه الأحجار، ومن أجل الحصول على ولدٍ يعيش طويـلًا أو يحكـم العالم فـلا بُدّ من اختيـار ليلة معينة على أسـاس مواقع النجوم كي يحدث فيها ...!

إن عقـول العلمـاء تقفـز فـوق عواطـف الضعفـاء وتقـول

لهـم: ابحثوا فلـن تجدوا إلا السـراب، فهذه الأرض نعـرف جيِّدًا مـاذا يوجد فيها، لدرجـة أننا نتصفح هذه النقطـة الزرقاء والهاتف فـي يدنـا، إن ما نشـاهده بالأقمـار الصناعية يختلف تمامًـا ما كان مرسـومًا في ذهننا الطفولـي وذهن أجدادنا حـول كوكب الأرض الـذي يحوي مـدن الذهب، تعيش الآلهة فـوق الجبال والعفاريت في الغابات والحوريات في البحار.

في العصور الماضية احتلّ الإنسـان مرتبة كبيرة بالنسبة لهذا الكـون، ونلحظ هذا الشـيء في الحضارات التـي قالت بالمركزية الأرضيـة، وبالطبع إنني أقرّ أن الأرض تتميز بموقع مصمّم للغاية، ولكـن في الوقت نفسـه أعرف جيِّـدًا أن الأرض ليسـت إلا كوكبًا صغيـرًا جدًّا يـدور حول الشـمس ضمن مجموعة مـن الكواكب، وهذه الشـمس ليسـت بأكثر من نجمـة صغيرة من بيـن المليارات المليـارات من النجوم التي تشـكل مجرتنا، والتـي بدورها واحدة من المليارات المليارات من المجرات.

لقـد قلت أثناء كتابتي لهذه الصفحـات: إذا أردت أن تعرف حجمـك -أيهـا الإنسـان- ما عليك فقـط إلا أن تذهـب على بعد بضع عشـرات الكيلومتـرات من القطيف في إجازتك الأسـبوعية وتدخـل الصحـراء فـي ليلة محـاق بسـيارتك وتنام علـى ظهرك، وتحـدّق بعينك إلى الأعلى، سـتعرف حينها حجمك الحقيقي في هذا الكون!

قـد نشـعر بخيبـة أمـل عندمـا نعلـم أن الدنيا ليسـت بذلك الجمال الذي تخيّلناه في طفولتنا، فكلما أردنا أن نهرب من واقعنا تواجهنا قوة تجبرنا على قبول واقعية الحياة، نشاهد أحبابنا يموتون وآخرون يصرخون من الألم في المستشفيات، دون أن نستطيع أن نفعل لهم شيئًا، إنها خيبة أمل بالفعل.

إن الحقيقة التي لا نسـتطيع أن نهـرب منها، ويجب علينا أن تكون أمام أعيننا دائمًا كي لا ننسى أنفسنا ويأخذنا الفخر والغرور، إننا لسـنا بأكثر مـن مخلوقات ضعيفـة جدًّا، خلقنا مـن نطفة قذرة ونهايتنـا جيفة نتنة! ونحن نحمل القذارات داخل أجسـامنا، وهذا جسـمنا يتغير بنا ويسـير بنا بقافلة الأيام في رحلـة إلى الهرم، دون أن نسـتطيع أن نوقف هذه الرحلة، اليـوم تلو الآخر حتى تحاصرنا الأمـراض ونبقى طريحي الفراش، ننتظـر أحفادنا يزورونا ويلتفوا حولنـا ويقبّلـوا رأسـنا ليخففـوا عنا شـيئًا مـن عنائنا، وفـي النهاية تنتظرنـا حفـرة صغيـرة نوضـع فيهـا وتسـدّ بالتراب كـي لا تخرج روائحنا الكريهـة العفنة إلى الآخرين، يحكي الرافعي في (حديث القمـر)، أنه قيل لفيلسـوف فقير: من يدفنـك إذا مت؟ أجاب: من يؤذيـه نَتـنُ جيفتي! إنها نهايـة مخيفة جدًّا، وعلـيّ أن أقرّ بالخوف الشـديد من هـذه النهايـة، فتبًّا لهذه الدنيـا تبيعك التراب فتحسـبه ذهبًـا، وبعـد ذلك يأتي إلى هذا المسـرح ممثلون آخرون يلبسـون ثياب الممثلين القديمين وهكذا دواليك.

نفتح في حياتنا فصلًا مفرحًا على أولادنا وأحفادنا ونطوي فصلًا حزينًا على آبائنا وأجدادنا، ونحن البشر هم الأوتار التي تشكل القيثارة التي يعزفها ملك الموت ليلًا ونهارًا من دون توقف، نعيش بين الفصلين أو البابين في قافلة غير متوقفة اسمها الزمن تسير بنا نحو الباب الثاني.

رحلة مهما طالت فهي قصيرة جدًّا، وأنا لا أريد أن أترك لديك-أيها القارئ-انطباعًا سيئًا حول ذلك، إلا أنني أجد نفسي مضطرًا لقبول واقع الحياة، يحكى عن الخليفة العباسي محمد المعتصم أنه قال عند موته: لو علمت أن عمري قصير هكذا ما فعلت، ويروى أن نوحًا لما حضرته الوفاة، قيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: (كَبَيْتٍ له بابان دخلتُ من أحدهما وخرجتُ من الآخر)، حقًا فإن الإنسان مهما طال عمره لا يراه في لحظة موته إلا ساعة واحدة أو أقل من ذلك.

هذه الفترة القصيرة يشبهها بيد (Beda) في كتابه (التاريخ الكنسي للإنكليز) (Ecclesiastical History of the English People)، الذي كتبه في بداية القرن الثامن الميلادي، يقول بيد حول ملك نورثمبريا (Northumbria) إدوين (Edwin)، الذي عقد مجلسًا يقرر فيه الديانة التي يجب اعتمادها في مملكته عام ٦٢٧م:

يا صاحب الجلالة، عندما نقارن حياة الإنسان الحالية على الأرض بذلك العصر الذي لم يكن لدينا فيه أي معرفة، تبدو لي

شبيهة بالطيران السريع لعصفور دوري فرد عبر صالة الولائم، حيث تجلسون للعشاء، في يوم شتوي مع وجهاء مملكتكم ومستشاريكم. يوجد في الوسط نار مريحة تدفئ الصالة، وفي الخارج عواصف شتوية من المطر أو الثلج. وذلك العصفور يطير بسرعة داخلاً من باب وخارجًا من باب آخر، وحين يكون في الداخل ينجو من العواصف الشتوية، ولكنه بعد بضع هنيهات من الراحة يتوارى عن الأنظار في العالم الشتوي الذي أتى منه. والإنسان، على هذه الشاكلة، يظهر على الأرض لفترة قصيرة، أما ما كان موجودًا قبل هذه الحياة وما سوف يوجد بعدها فلا نعلم عنه شيئًا.

حقًّا يا بيد، الحياة كالطير الذي يدخل من باب ويخرج من باب آخر، ويبقى هذا الطير بين البابين بضع هنيهات، ثم يغادر هذه المنطقة التي بين البابين إلى عالم آخر، ولا شك ولا ريب أن هناك شيئًا ينتظرنا خارج صالة الولائم.

إن التاريخ يكشف لنا أننا نحن البشر الذي لم يختلف في نوع من الحيوان كاختلافنا نحن، نقع في غفلة كبيرة جدًّا ونعيش في هذا الوهم ولا نفيق منه إلا في مرحلة متأخرة، ويعود سبب ذلك إلى شعورنا بجمال الدنيا الخادع، متناسين أن هذا الجمال يوجد في مقابله من القبح ما لا يحصى، ففي حديقة سفاري في الصين شاهدت الطيور الملونة ومسكتها بيدي، وعندما كنت

في لبنان ركبت فوق الجبال ومشيت على الثلوج والسّحاب يمر بجانبي، كلّ هذا الجمال تستأنس العين البشرية منه رغم أنني أعرف جيِّدًا كيف تكونت هذه الطيور وتلك الثلوج، لتشكل لنا هذه المناظر الخلابة.

ورغم هذا الجمال الخادع، فهذا الكوكب الصغير الذي نعيش فوقه، يحوي الزلازل والبراكين التي تحصد الآلاف من البشر في لحظات قصيرة جدًّا، تتفشّى فيه المجاعة والتعذيب والتشوهات الخلقية والسرطانية، فهناك آلاف يموتون من الجوع يوميًّا وآلاف مشوّهين يولدون متأثرين بالإشعاعات النووية، وحروب ومآسٍ، مشكلات كثيرة تواجه الجنس البشري على كوكب الأرض جرّاء حماقته التي دمّر بها هذا الكوكب.



لوحة للفنان دوروثي هاردي، الإله أودن مع الشيطان فنرير

في مقابلة مع هوكنج أذاعتها (سي إن إن) بتاريخ ١٠ سبتمبر من عام ٢٠١٠م، حول كتابه الجديد (التصميم العظيم The Grand Design)، قال هوكنج: نحن معرّضون لخطر إهلاك أنفسنا بسبب جشعنا وحماقتنا، لا نستطيع أن نرى أنفسنا دومًا في كوكب صغير!! لقد صدقت يا هوكنج، فالبفعل

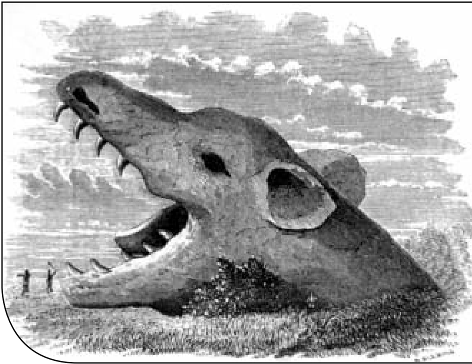
نحن ننسى في أكثر الأوقات أننا نعيش في كوكب صغير دمّرناه بحماقتنا.



لوحة للفنان يوهانس جارت، معركة راكنورك (نهاية العالم)

هذه هي القصة الحزينة لهذه الدنيا التي نعيش فيها لفترة قصيرة جدًّا ثم نغادر عنها، وليس هذا وحسب بل إن الكون بأكمله يواجه هذا المصير المأساوي، فالأساطير والعلم يتفقان على النهاية الحزينة لهذه المسرحية الكونية المأساوية.

ففي الأساطير الإسكندنافية التي رأت أن ولادة الكون بدأت بالنار والثلج، لم تستطع أن تهرب من المصير المأساوي لهذا العالم، فالآلهة سوف يهزمون في معركة طاحنة بينهم وبين المردة راكنورك (Ragnorak)، وتعني مصير الآلهة، فهذا أودن (Odin) كبير آلهتهم يقتل على يد الشيطان فنرير(Fenrir) وهو



الشيطان فنرير

والـد الإله سـكول (Skoll) وابن للإله لوكـي (Loki)، الذي يأخذ شـكل الذئب المتوحـش، فكّه الأعلى في السـماء وفكّه الأسـفل فـي الأرض، تتدمّر الأرض بعد ذلك بالنـار والماء، ويتدمّر العالم بأكمله وينبثق منه عالم آخر.

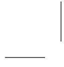
أما العلم فلا يختلف كثيرًا عن هذه الأسطورة الإسكندنافية، فالأرض سوف تبلعها الشمس وتتدمّر هذه الشمس وجميع نجوم الكون سـيلقون هذا المصير المأسـاوي، ويبدأ الكون بالانكماش على نفسه، ثم يعيد الكرة مرة أخرى وينبثق منه عالم آخر.

وهـا أنذا -أيها القارئ- أصـل إلى نهاية هذه القصة الحزينة التي لا تبعث على السرور إطلاقًا، وأختمها بهذه الكلمات الذهبية التـي قرأتها في كتـاب نهج البلاغة الذي جمعه الشـريف الرضي، في القرن الرابع الهجري، ويكون بها خاتمة الكتاب.

أحـبّ أن أتصـور أميـر المؤمنيـن علي بـن أبي طالـب عليه السـلام، وهـو ينظر إلـى النجوم، في مثـل هذه السـاعة من جوف الليل التي أكتب فيها وهي الساعة الثانية والنصف، من يوم السبت الموافـق ١١/ ٥/ ١٤٣٤هـ، وكان ينظر إليـه نوف البكالي، فيقول له الإمام عليه السـلام: يَا نَوْفُ، أَرَاقِدٌ أَنْـتَ أَمْ رَامِقٌ؟ قال له نوف: بل رامق. قال الإمام بعد ذلك:

يَـا نَـوْفُ، طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِـي الدُّنْيَا، الرَّاغِبِيـنَ فِي الْآخِرَةِ،

أُولئِكَ قَـوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بِسَـاطًا، وَتُرَابَهَا فِرَاشًـا، وَمَاءَهَا طِيبًا، وَالْقُرْآنَ شِـعَارًا وَالدُّعَاءَ دِثَـارًا ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضًـا عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِـيحِ. يَـا نَـوْفُ، إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّـلاَمُ قَامَ فِي مِثْلِ هذِهِ السَّـاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: إِنَّهَا سَاعَةٌ لاَ يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلاَّ اسْتُجِيبَ لَهُ، إِلاَّ أَنْ يَكُونَ...






المصادر المهمة للكتاب

لقـد مرّت معنا أثناء قراءة هذا الكتـاب جميع المصادر التي اعتمدت عليها، وتذكيرًا بأهم هذه المصادر:

أولًا: المصادر العربية:

١ – القرآن الكريم.
٢– نهج البلاغة.
٣– غرر الحكم ودرر الكلم.
٤– صحيح البخاري.
٥– سنن الترمذي.
٦– سنن النسائي.
٧– سنن البيهقي.
٨– كنز العمال: المتقي الهندي.
٩– فيض القدير: المناوي.
١٠– تاريخ دمشق: ابن عساكر.

١١- مروج الذهب: المسعودي.
١٢- الكامل في التاريخ: ابن الأثير.
١٣- البداية والنهاية: ابن الأثير.
١٤- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: عبد الرحمن الجوزي.
١٥- السيرة النبوية: ابن هشام.
١٦- تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي.
١٧- تاريخ الدولة العثمانية: محمد فريد.
١٨- العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي.
١٩- الانواء في مواسم العرب: عبد الله بن مسلم الدينوري.
٢٠- حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين الدميري.
٢١- موسوعة حلب المقارنة: محمد خير الدين الأسدي.
٢٢- رحلة ابن فضلان: ابن فضلان.
٢٣- رحلة ابن بطوطة: ابن بطوطة.
٢٤- عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات: زكريا بن محمد القزويني.
٢٥- تاريخ العلوم عند العرب: د.كامل حمود.
٢٦- أخبار مكة: الأزرقي.
٢٧- إحياء علوم الدين: الغزالي.
٢٨- معرفة الصحابة: أبو نعيم الأصبهاني.
٢٩- المستطرف في كل فن مستظرف: الأبشيهي.
٣٠- مجمع الأمثال: الميداني.

٣١- مجلة المقتبس: محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد علي.
٣٢- تحف العقول: ابن شعبة الحراني.
٣٣- علل الشرائع: الصدوق.
٣٤- الوسائل: الحر العاملي.
٣٥- البحار: المجلسي.
٣٦- حديث القمر: الرافعي.
٣٧- المحاسن والمساوئ: البيهقي.
٣٨- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية: ابن البيطار.
٣٩- مجمع البيان: الطوسي.
٤٠- التفسير الكبير: الرازي.
٤١- الفتن: نعيم بن حماد.
٤٢- الكتاب المقدس (الموقع الرسمي للكنسية القبطية الأرثوذكسية).
-http://st-takla.org/Holy-Bible_.html.
٤٣- مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب.
٤٤- قراءة الكف ومعرفة أسرار اليد: عبد الرضا الافتخاري.
٤٥- ديوان أبو تمام.
٤٦- ديوان أبو نواس.
٤٧- ديوان الأساطير (سومر-وأكاد-وآشور): ترجمة: قاسم الشوّاف.
٤٨- الأمير: مايكافلي: ترجمة: محمد لطفي جمعة.
٤٩- الميثلوجيا اليونانية: بيار غريمال: ترجمة: هنري زغيب.

٥٠- قصة الحضارة: ول وايريل ديورانت: ترجمة: د.عبد الحميد يونس.
٥١- أثرُ العلم في المجتمع: برتراند راسل: ترجمة: صباح صدّيق الدملوجي.
٥٢- كوكب الأرض: كارل سيجان: ترجمة: د.شهرت العالم.
٥٣- الإنسان الحائر بين العلم والخرافة: د.عبد المحسن صالح.
٥٤- أحلام الفيزيائيين بالعثور على نظرية نهائية: ستيفن واينبرغ: ترجمة: أدهم السمّان.
٥٥- أسرار الفيزياء الفلكية والميثلوجيا القديمة: بريوشينكين: ترجمة: د.حسّان ميخائيل إسحاق.
٥٦- أينشتاين والقضايا الفلسفية لفيزياء القرن العشرين: مجموعة من الباحثين: ترجمة: ثامر الصفار.
٥٧- الكون في قشرة جوز: ستيفن هوكنج: ترجمة: د.مصطفى إبراهيم فهمي.
٥٨- الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون: ستيفن واينبرغ: ترجمة: محمد وائل الأتاسي.
٥٩- عندما تغير العالم: جيمس بيرك: ترجمة: ليلى الجبالي.
٦١- عالم تسكنه الشياطين: كارل سيجان: ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم.
٦١- تطور الفيزياء: ألبرت أينشتاين، ليوبولد إنفلدا: ترجمة: علي المنذر.

٦٢- موجز في تاريخ الزمان: ستيفن هوكنج: ترجمة: عبد الله حيدر.
٦٣- أصل الأنواع-تشارلز داروين: ترجمة: مجدي محمود المليجي.
٦٤- الثقوب السوداء والأكوان الطفلة: ستيفن هوكنج: ترجمة: د.حاتم النجدي.
٦٥- في خطى الناجحين: حسن الخاطر.

ثانيًا: المصادر الإنجليزية:

66- The life the blessed emperor Constantine: Eusebius Pamphilus.
67- Jerusalem, the biograghy: Simon Sebag Montefiore.
68- The History of the Decline and Fall of the Roman Empire: Edward Gibbon.
69- Popular astronomy: a review of astronomy and allied sciences: William Wallace Payne.
70- The Origin of Specie: (by Means of Natural Selection, or the Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life): Charles Robert Darwin.
71- The Compleat Works Of Nostradamus: Arcanaeum.
72- Ecclesiastical History of the English People: Bede.
73- Physics for scientists and engineers with modern physics: Raymond Serway.

ثالثًا: مواقع الإنترنت:

74- http://news.bbc.co.uk/2/hi/south_asia/5273336.stm.

- موقع أخبار (بي بي سي)، زوجة تحرق نفسها في الهند عام ٢٠٠٦م، ثقافة ستي.

75- http://www.aawsat.com/details.
asp?issueno=8070&article=51950.

- موقع جريدة الشرق الأوسط، (بركان سانتوريني سبب انهيار الحضارة اليونانية الأولى).

76- http://www.pitt.edu/~dwilley/Fire/FireTxt/fire.html.

- مقال علمي حول المشي على الجمر، الدكتور ديفيد ولي.

77- http://st-takla.org/Saints/Coptic-Orthodox-Saints-
Biography/Coptic-Saints-Story_1396.html.

- الموقع الرسمي للكنسية القبطية الأرثوذكسية.

78- http://www.youtube.com/watch?v=zA7JDOU_lCY.

- حوار على قناة (LBC) حول ظهور صدام حسين على القمر.

79- http://www.youtube.com/watch?v=vl4LWD3yEFU.

- تقرير على قناة (CTV) حول تجلي القديسة العذراء مريم بين منارتي كنيسة القديسة العذراء مريم ورئيس الملائكة ميخائيل.

80-http://www.youtube.com/watch?v=gmr68u0NPk0.

- حوار على قناة الحياة بعنوان ظهور السيدة العذراء بين الحقيقة والوهم.

81- http://www.youtube.com/watch?v=Bcaqsqpamxo.

-تقرير على قناة (H2) الإخبارية حول مزار لورد.

82- http://www.alwatanvoice.com/arabic/news/200651824/30/07/.html.

-صحيفة (دنيا الوطن)، (عدم تحلل جثة عبد الحليم حافظ).

83- http://www.elaph.com/Web/ElaphWriter/2006139034/4/.html.

- مقال بعنوان: (الخرافة المصرية من عفريتة علي الحجار إلى جثة عبد الحليم حافظ).

84- http://sabq.org/ofsfde.

- صحيفة سبق، (الثلج يحفظ جثة فتاة ٥٠٠ عام).

85- http://orthodoxinfo.com/general/holyfire.aspx.

- مركز معلومات المسيحيين الأرثوذكس.

86- http://www.orthodoxdoncaster.co.uk/other-articles/970-the-appearance-of-holy-fire-at-pascha.html.

-مقال حول النار المقدسة.

87- http://www.youtube.com/watch?v=MYAqaKOu_b8.

- محاورة على قناة (ANT 1)، حول النار المقدسة.

88- http://www.bbc.co.uk/arabic/scienceandtech/2013130121/01/_cosmic_bang_earth.shtml.

- دراسة بعنوان (انفجار كوني ضرب الأرض في العصور الوسطى).

89- http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=609353&.

- موقع أخبار اليوم السابع، مقالة بعنوان: ما فوائد هرمون الأندروفين؟

90- http://www.youtube.com/watch?v=rZH4PPmhKUA.

- قناة الديار الفضائية، حول توقعات أبو علي الشيباني بخصوص ظهور المهدي المنتظر.

91- http://www.youtube.com/watch?v=VBDHIE3zapM.

- فلم وثائقي بثته قناة العربية حول نوستراداموس، بعنوان (تنبؤات نوستراداموس وأسطورة كتاب القرون وما حدث عبر ٤٠٠ عام).

92- http://www.youtube.com/watch?v=U-QV3Nz-PKs.

- صراع الآلهة، حول الأساطير اليونانية، قناة أكاديمية التنوير.

93- http://www.youtube.com/watch?v=0qpcKPvufcc.

- محاورة على قناة (بي بي سي)، الكون والرب وقوانين العلم.

94- http://www.youtube.com/watch?v=4OmSoZzvXcM.

- حوار على قناة (سي إن إن)، كتاب التصميم العظيم.

95- http://www.youtube.com/watch?v=9u3fpLkzZqQ.

- سلسلة حول الأديان بعنوان (الإلحاد تاريخ مختصر لنقض الإيمان): حوارات قدمها جوناثان ميلر، قناة (بي بي سي).

96- http://www.youtube.com/watch?v=S8GFaMeNANw.

- كارل سيجان، الكون لم يصنع لنا.

97- http://www.youtube.com/watch?v=ySkrqnmN-Bc.

- كارل سيجان، النقطة الزرقاء الباهتة.

98- http://www.youtube.com/watch?v=AcBIrNa2q4Y.

- مارغيتا هاك، الأبراج خرافة.

99- http://www.youtube.com/watch?v=JOk0fGYf5g4.

- ستيفن هوكنج، هل خلق الله الكون؟

100-http://www.youtube.com/watch?v=h8hisCqOFr0.

- ريتشارد دوكنز، أعداء المنطق.

101- http://www.youtube.com/watch?v=qOmKEbV663I.

- التطور فكرة داروين.

102- http://www.youtube.com/watch?v=smK5BOeDgOU.

- كيف نشأت الأرض.

103- http://www.youtube.com/watch?v=1wHZ9WS_PlI.

- فلم وثائقي بعنوان (هنا كان التنين).

الفهرست